القرآن خُلقــاً

قصص من وحي القرآن والسنة

بحث

أماني جيره عبد الواحد

بطاقة الفهرسة

اسم الكتـــاب : القرآن خلقًا

المؤلـــــــف : أماني جيره عبد الواحد

الطبعـــــــة : طبعة أولى / 1431هـ - 2010 م

الناشـــــــر : مكتبة جزيرة الورد

رقم الإيـــداع :

مكتبـــة جزيرة الورد – القاهـــرة / ميدان حليـــم
خلف بنك فيصل شارع 26 يوليو من ميدان الأوبرا
012/9961635 - 02/27877574
010/0004046 - 010/0104115
Email: amany_gera@yahoo.com

المراجعـة: 1-................................ 2-............................

الدرافت: (1) (2) (كلك)

عدد الصفحات: 608 عـدد المـــلازم: 38

إهـداء

إلى من كان له القرآن خُلقًا

وإلى كل من أراد أن يكون...

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأصلي وأسلم على النبي الأمي الذي جعله الله تعالى أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا، وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته السائرين على خطاه المهتدين.

وبعد:

فإني أحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه عله يبلغني الوفاء بنعمته عليَّ بما هيأ لي من كتابة هذا الكتاب الذي أعتز به عملاً صالحًا، وعلمًا ينتفع به إن شاء الله تعالى، وقصتي مع كتابي هذا أني كنت أسمع قول عائشة رضى الله عنها تحدث عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وتصفها بأنها القرآن قائلة:{**كان خلقه القرآن**}، فتقع كلمتها من نفسي موقع الفخر والإكبار للنبي صلى الله عليه وسلم، والحب لذاك الوصف فيه؛ لما له صلى الله عليه وسلم من قدر عظيم عند الله تعالى وعند المؤمنين به، ولما للأخلاق من منزلة عظيمة ومكانة كريمة في الإسلام، إلا أني لم أكن أفهم من ذلك الوصف إلا معنى قريبًا عامًا هو أن أخلاقه صلى الله عليه وسلم حسنة كريمة مثالية كحسن القرآن وكرمه ومثاليته، حتى شاء الله سبحانه أن يطلعني على جانب آخر يحمل معنى أعمق وأثرى في كلمتها المباركة رضى الله عنها إذ وجدت في القرآن الكريم خطوطًا عراضًا وضاءةً للأخلاق الكريمة ممثلة في قصصه التي تتدفق سريًا عذبًا رقراقًا من تلك المبادئ الأخلاقية العظيمة، ورأيت النبي صلى الله عليه وسلم وقد تمثلها في حياته المباركة العظيمة تمثلاً حقيقيًا، ودعا إليها قولاً وفعلاً تشهد بذا كتب السيرة العطرة التي امتلأت بنماذج من أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله، ووجدت في سيرة أصحابه النجوم الذين بأيهم اقتدينا اهتدينا، وممن جاء بعدهم من صالحي التابعين وتابعيهم إلى عصرنا الحالي آثارًا واضحةً للعيان تؤكد سيرهم على

ما سار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا إليه، فأخذت مما أتاني الله وسطرته في ذلك الكتاب؛ آملة النفع راجية الثواب.

وكان منهجي الذي اتبعته فيه هو أن فصلته مباحث وكل مبحث منه يوضح مبدأ أخلاقيًا - أو يزيد - بدأته بالآية الكريمة محل الشاهد القرآني للمبدأ الأخلاقي المقصود، ثم أتبعتها بتفسير يؤيد في الغالب ذلك المبدأ الذي ورد في الآية الكريمة، وقد ذكرت في بعض المباحث أكثر من تفسير؛ ليزداد الأمر بيانًا ووضوحًا، ثم أوردت من السنة الشريفة ما يؤيد ذلك من أفعال للنبي صلى الله عليه وسلم وأقوال تؤكد سيره على ذات المبدأ القرآني موضوع المبحث، ثم ألحقت ذلك بما كان لصحابته رضوان الله عليهم من مواقف تدل على اقتدائهم بالقرآن الكريم وبمن أنزل عليه صلى الله عليه وسلم، ولربما أتبعت ذلك بنماذج مؤيدة للمبدأ عينه من شواهد من حياة التابعين وتابعيهم من المعاصرين تشهد بأن القرآن الكريم منهج أخلاقي للأمة بأسرها مذ أنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم وإلى ما شاء الله تعالى، ودليلاً على أن هناك من الناس من يزالون يقتفون القرآن ويترسمون هديه في أخلاقهم سائرين على ما سار عليه الصالحون من عباد الله دون أدنى زيغ أو مشقة.

وكل ما أوردت من شواهد كان على سبيل المثال لا الحصر، متوخية الدقة متحرية الصدق، وذلك من خلال تحقيق ما أوردته من أحاديث وقصص وروايات على قدر ما مكنني الله تعالى، أو محيلة الشاهد إلى المصدر القريب الذي أخذته منه، مراعية في إيراد الأحداث تاريخها الزمني بادئة بما بدأ به الله جل وعلا إلا إذا اقتضتني الضرورة مخالفة ذلك كما في مبحث:{أَمَكَّثُوٓاْ}، وقد قصدت تنوع التفاسير تبعًا لما يؤيد منها الفكرة موضوع المبحث، ولربما استطردت في شواهد السنة في سرد غزوة أو إيراد حادثة للنبي صلى الله عليه وسلم أو صحبه فحدا بي ذلك إلى الابتعاد قليلاً عن لب موضوع المبحث إلا أنني سرعان ما أعود لما قصدت منوهة عن

سبب ذلك الاستطراد؛ وهوالرغبة في ازدياد الثقافة بالسنة النبوية متمثلة في صاحبها صلى الله عليه وسلم، وأصحابه رضى الله عنهم أجمعين، وليكون الأمر يسيرًا على القارئ الكريم في تلقي الفكرة التي قصدت الإشارة إليها، يسيرًا عليّ في عرضها، ولقد ذكرت ذلك في موضعه.

هذا هو المنهج الذي اتبعته في كل مباحث الكتاب عدا ثلاثة مباحث هم:{لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ} [الشعراء: ٥٠]،{لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ} [القصص: ٢٣]،{يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ} [القصص: ٢٦] فأما المبحث الأول منهم فقد اتبعت نفس المنهج إلا أنـي قصرت الطرف عن ذكر مواقف للنبي صلى الله عليه وسلم تذكر له ذلك الخلق الكريم المتمثل في تلك الآية الكريمة وهو الصمود في وجه المناوئين للحق والثبات عليه، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم سيد في ذا الخلق كما هو سيد في جميع مكارم الأخلاق صلى الله عليه وسلم؛ والسبب في ذلك أني ذكرت في هذا المبحث خلقًا لأتباع موسى عليه السلام يبين شدة تمسكهم بما جاءهم به، فأحببت أن أذكر حال أتباع محمد صلى الله عليه وسلم في نفس ذا الخلق، وأما المبحثان الآخران فلم أورد فيهما مواقف للنبي صلى الله عليه وسلم لأنهما يمثلان خلقين من أخلاق النساء خاصة، على أني قد أوردت في الثلاثة مباحث أحاديث شريفة، ومواقف لصحابته الكرام - من الرجال والنساء - مؤيدة للطرح المذكور.

هذا، وقد أوردت في الكتاب شواهد من الشعر ممثلة مؤيدة للأخلاق الكريمة المذكورة فيه، وآراء لعلماء شرقيين وغربيين أدلوا في تلك الأخلاق برأي العلم.

وأسأل الله الكريم أن يقبل ذلك العمل، وأن يثيبني عليه خير الثواب، وأن يجعله في ميزان حسناتي، وميزان حسنات زوجي الكريم الذي أخذت من وقتي الذي له ولأولاده الكثير، والذي جاهد معي بماله ونفسه لإتمام ذلك العمل، ووالديّ الحبيبين اللذين ربياني صغيرًا وعلماني صغيرًا وكبيرًا، في ميزان حسنات أمي التي أرتني كيف التمسك بالقرآن والسنة قولاً، وأبي الذي

علمني كيف التمسك بهما فعلاً، داعية الله أن يحفظهما ويرحمهما ويجزيهما عني خير ما جازى والد عن ولده، وفي ميزان حسنات أولادي فلذات كبدي، سائلة الله أن ينفع بهم الإسلام وأهله، وعلمائي - الذين وإن ذكروا آخرًا فهم أولاً - فهم الذين نهلت من علمهم لعلي أروى فما زادني الاغتراف منه إلا رغبة في المزيد، وأخص منهم شيخي ومعلمي وأستاذي فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمه الله -، وميزان حسنات كل القائمين عليه، والمنتفعين به، وأسأل الله سبحانه أن ينفع به الناس عامة والمسلمين خاصة، والله الموفق بمنه وكرمه والحمد لله رب العالمين.

أماني جيره عبد الواحد

Email: amany_gera@yahoo.com

* * *

عَسَى أن يَنفَعَنَا

القرآن خُلقًا

عَسَى أَن يَنفَعَنَا

قال تعالى:

{وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾} [يوسف: ٢١].

التفسير: يخبر تعالى بألطافه بيوسف عليه السلام أنه قيض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه وأوصى أهله به وتوسم فيه الخير والصلاح فقال لامرأته:{أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا} وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير، وعن عبد الله بن مسعود أنه قال: أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر حين قال لامرأته{أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ} والمرأة التي قالت لأبيها:{يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ} [القصص: ٢٦] الآية وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقول تعالى كما أنقذنا يوسف من إخوته{وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ} يعني بلاد مصر{وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ} قال مجاهد والسدي: هو تعبير الرؤيا{وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ} أي: إذا أراد شيئًا فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه، قال سعيد بن جبير في قوله{وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ} أي: فعال لما يشاء، وقوله:{وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} يقول: لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه وفعله لما يريد [1].

تقص الآيات التي بين أيدينا قصة يوسف الصديق عليه السلام، فيأتي فيها أنه عليه السلام بعد أن أخرج من البئر بيع في سوق الرقيق بيع العبيد الأرقاء، وقد قدر الله سبحانه وتعالى أن يشتري يوسف عليه

(1) تفسير ابن كثير باختصار.

السلام رجل من مصر ذو منصب عال ومكانة رفيعة، وهو عزيز مصر وأكبر وزرائها، وقد أوصى هذا الرجل امرأته بيوسف خيرًا لأنه (العزيز) لم يكن له ولد، فقال لها:{أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا}، ويبدو أن الرجل كان متفائلاً جدًا بيوسف عليه السلام، فهو يتوقع منه أحد خيرين: إما أن ينفعه في قضاء حوائجه وإنفاذ مصالحه كغلام خادم، وإما أحسن منها أن يكون له ولد حيث إنه يفتقد الولد، وكأن العزيز لم يتوقع من يوسف عليه السلام السوء قط، ولم تساوره ظنونه نحوه بأية ريبة؛ ولذا لم يستشعر الخوف منه ولم يداخله الشك في منفعته له، بالرغم من أن يوسف عليه السلام هو العبد الغريب الذي اشتراه الرجل لتوه من السوق، ولا يعرف عن تاريخه شيئًا، ولا يعرف قليلاً أو كثيرًا طبائعه وخصاله، فلماذا لم يضع العزيز احتمالات أخرى عن يوسف عليه السلام مثل هذه، ربما أبق مني وخسرت نقودي التي دفعتها فيه، أو ربما كان عبد سوء أينما أوجهُ لا يأتي بخير ويصير كلاً وعبئًا عليّ، أو ربما وهو العبد الغريب أن يكون فيه عيبًا جوهريًا تعجز فنون الطب وضروب الحكمة عن مداواته كأن يكون كذابًا أو نمامًا أو أحمقًا.. أو ربما... وربما... وحاشاه عليه السلام أن يكون كذلك، ولكننا نضع افتراضات واحتمالات يضعها كل من يقدم على ما أقدم عليه عزيز مصر.

أعني لماذا لم يتوقع هذا الرجل السوء من يوسف عليه السلام حيث لا يعرفه؟! لماذا أوصى زوجه به بدلاً من أن يحذرها منه؟ ألم يكن من الأولى أن يحذرها منه؟!

ولكن نراه مستبشرًا بيوسف عليه السلام متفائلاً به ظانًا به خيرًا راجيًا منه كل خير، خائفًا عليه من جور كل ذي جور؛ فيوصي امرأته به خيرًا وكأنه ولده من صلبه فيقول:{أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ} أحسني إليه مترقبًا منه أحد خيرين لا يشوبهما سوء، فيوسف بالنسبة للرجل

إما خير وإما خير على خلاف نظر الناس للأشياء إما خير وإما شر.

ولأن ذلك المصري كان على ذلك القدر من حسن الظن والتفاؤل؛ فقد كان يوسف عليه السلام له الخيرين معًا، نفعه كغلام خادم خدمه طوال السنوات التي قضاها من طفولته وصباه في بيته، وعندما بلغ أشده واستوى وهو ما يزال في بيت ذلك العزيز راودته التي هو في بيتها عن نفسه، وغلقت الأبواب، وأعدت كل ما يمكن أن يعد، وهيأت كل ما يمكن أن يهيأ؛ لإغوائه والإيقاع به في حبائل الهوى والفحش، عندئذ تذكر يوسف عليه السلام أول ما تذكر أن ذلك الرجل زوجها كان على الحقيقة بمثابة أب له حريص عليه، وبه رؤوف رحيم، فلا يمكن بعد ذلك أن يخون بيته، أو أن يفعل سوءًا بزوجه حتى إن دعته وأمرته، وقد صرح يوسف عليه السلام بذلك المبدأ واعترف بتلك الحقيقة في موقف لا يحتمل أي تصريح، أو اعتراف بفضل أحد، في قلب تلك المراودة الدنيئة، وفي غمرات المكيدة النجسة يصرخ يوسف عليه السلام رافضًا منكرًا دافعًا المرأة وغيها{قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ } يوسف: ٢٣] وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير، أي أن بعلك ربي أحسن مثواي، أي: منزلي وأحسن إليّ فلا أقابله بالفاحشة في أهله [1].

وكيف يفعل يوسف عليه السلام السوء والعزيز منذ الوهلة الأولى لم يتوقع منه إلا الخير فقط، وقد اتخذه ولدًا وحنا عليه حنو الوالد الشفيق؟!

وكيف يصح بعد ذلك أن يقابل يوسف عليه السلام الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم كرم أخلاق ذلك العزيز وإحسانه بشيء من السوء{ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾} [الرحمن: ٦٠].

(1) تفسير ابن كثير.

{قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ } [يوسف: ٢٣] حقًا إنه سيده الذي أحسن إليه فلن يكافئه يوسف عليه السلام إلا بالعدل، ولن يعطيه إلا ما قد أخذ منه الإكرام والإحسان، والحرص عليه وعلى بيته، والرعاية لحرمة ذلك البيت، وحفظ حق الصحبة لصاحبه.

لقد كان حسن ظن ذلك المصري بيوسف عليه السلام في محله، وقد أعطاه الله على حسن ظنه أكثر مما توقع وارتقب ورجا.

امرأة فرعون وعسى أن ينفعنا

ولا نزال نتجول بمصر ذلك البلد العريق ذي التاريخ المجيد - وإن اختلفت العصور والأزمان - وبجوار نهرها الفياض بالخير والنماء بجوار النيل العظيم الذي هو نهر من أنهار الجنة؛ لنرى امرأة فرعون - تلك المرأة العظيمة التي ضربها الله مثلاً للمؤمنين في كل مكان وزمان{وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ } [التحريم: ١١] وهي تلتقط موسى عليه السلام من اليم وتقول دافعة عنه فرعون وجنوده:{قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا} [القصص: ٩].

التفسير:

{وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ} [القصص: ٩] يعني أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفًا من أن يكون من بني إسرائيل، فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتذب دونه وتحببه إلى فرعون فقالت:{قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ} فقال فرعون: أما لك فنعم وأما لي فلا، فكان كذلك وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه. وقوله:{عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ } وقد حصل لها ذلك وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه. وقوله:{أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا} أي: أرادت أن تتخذه ولدًا وتتبناه وذلك أنه لم يكن لها ولد منه. وقوله تعالى:{وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ } [القصص: ٩] أي لا

يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة [1].

{عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا} لقد سمعنا هذه الكلمات منذ قليل على لسان العزيز في حق يوسف عليه السلام، وهاهي نفس الكلمات تتكرر على لسان المرأة المؤمنة امرأة فرعون في حق موسى عليه السلام، فهي رضى الله عنها تتوقع من موسى عليه السلام الخير فقط بالرغم من أن الظروف والأحوال السائدة حينئذٍ لم تكن تنبئ بأي خير، أو توحي بأية بشرى، أو تشجع على أي حسن ظن، فزوج المرأة - كما تذكر الروايات والآثار - يخشى زوال ملكه ذلك لأنه أنبئ بأن ذلك سيحدث على يد غلام من بني إسرائيل يولد في تلك الأيام، فيكون هلاك ذلك الملك الفرعون على يديه؛ ولهذا فقد اتخذ جميع الإجراءات الأمنية تحسبًا من وجود ذلك الغلام، فأمر بقتل كل الأبناء الذكور لبني إسرائيل، وبالفعل نفذ هذا الأمر على كل من وقعت عليه أيدي جنود فرعون من غلمان بني إسرائيل.

ولكن بالرغم من كل هذه الظروف التي قد بلغت الغاية من السوء إذ الخوف والحذر والترقب والتحسب تفاجئنا امرأة فرعون بحسن ظنها واستبشارها، فهي ترى في موسى عليه السلام أنه عسى أن ينفعهم أو يتخذوه ولدًا!

فأي نفع قد يتوقعه الإنسان في مثل تلك الظروف؟ ومن أين قد يأتي؟! وكيف وأنها التقطت موسى عليه السلام من اليم في ظروف غريبة مريبة جدًا.. طفل في تابوت قد ألقي به في اليم، وألقاه اليم بالساحل، فلماذا لم تظن بل لماذا لم تتيقن أن ذلك الغلام هو بالقطع من بني إسرائيل هو ابن أحد رجالهم وإحدى نسائهم، وأبواه قد خشيا عليه

---

(1) تفسير ابن كثير.

سطوة فرعون وجنوده ففعلا به ما فعلا؟ وهكذا يصبح التقاط ذلك الغلام من اليم لهو العوم ضد التيار، ولهو المجازفة الكبيرة الخطيرة بملك مصر وملكها.

لا، لم يخطر ببالها رضى الله عنها كل ذلك، ولكنها ترى في موسى عليه السلام عكس ذلك، فهو قرة عين تتوقع منه أن ينفعها أو تتخذه ولدًا، ونورد بعضًا مما أورده ابن كثير - رحمه الله - في كتابه قصص الأنبياء عن تلك المرأة العظيمة في تلك الواقعة الشهيرة المعجزة يقول: فلما رأته - أي موسى عليه السلام - ووقع نظرها عليه أحبته حبًا شديدًا جدًا فلما جاء فرعون قال: ما هذا؟ وأمر بذبحه، فاستوهبته منه ودفعت عنه وقالت:{قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ} فقال لها فرعون: أما لك فنعم وأما لي فلا. أي حاجة لي به. والبلاء موكل بالمنطق!

وقولها:{عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ} قد أنالها الله ما رجت من النفع: أما في الدنيا فهداها الله به، وأما في الآخرة فأسكنها جنته بسببه.{أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا} وذلك أنهما تبنياه؛ لأنه لم يكن يولد لهما ولد.

وهكذا نرى أن امرأة فرعون قد توقعت أن يكون موسى عليه السلام لها أحد خيرين فأبى الله جل وعلا إلا أن تنال كلا الخيرين معًا، بل وأكثر من ذلك فلقد أقر الله سبحانه عينها بموسى عليه السلام ولدًا قويًا أمينًا تربى في بيتها ملء سمعها وبصرها قد سعدت بأمومتها له أيما سعادة، وعندما كبر وصار رسولاً نبيًا نفعها الله به، فأسلمت على يديه، ونجت من نار تلظى وقودها الناس والحجارة، ودخلت جنة عرضها السموات والأرض قد أعد الله لها فيها بيتًا كريمًا عنده، وصارت مثلاً يضرب للمؤمنين في الإيمان به سبحانه إلى قيام الساعة بل إلى ما شاء الله.

هذا وإن رجعنا لنجمل القول نقول: إن قال قائل: إن الله قد مكن

ليوسف عليه السلام في الأرض، وإن ما حدث له من حياة في بيت العزيز إنما هو قدر قد قدره الله له، والقول نفسه ينطبق على موسى عليه السلام، فقد قدر الله له أن يربى في بيت فرعون. نقول للقائل: إن قولك لا يتعارض مع فكرتنا وإنما هو يؤيدها، حقًا قد مكن الله جل وعلا ليوسف عليه السلام في الأرض وقدر له ذلك، فهذا مما لا ريب فيه ولا جدال، وإنما الذي أردنا توكيده هوأن الله إذا أراد أمرًا هيأ له الأسباب، وعليه فإن حسن ظن المصري بيوسف عليه السلام كان سببًا من أسباب تمكينه وميسرًا من ميسرات ساقها الله لإنفاذ ذاك القدر بل ومن أهم أسباب إنفاذه.

وإذا ما أعدنا قراءة الآية القرآنية الكريمة مرة أخرى{وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِى مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾} [يوسف: ٢١].

نجد أن الله سبحانه قد مكن ليوسف عليه السلام في الأرض بأن يشتريه رجل ذو منصب ومكانة، وأن ذلك الرجل لا ولد له؛ لذا فهو يأمل أن يكون يوسف عليه السلام له ولدًا، وأن ذلك الرجل حسن الظن بيوسف عليه السلام حسن الرجاء، فهو يراه أحد خيرين، وهذا المعنى تدلنا عليه وتوحي به كلمة{وَكَذَٰلِكَ } في عقب الآية أي بهذه الأسباب، وأسباب معها قبلها وبعدها{مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ}، وما حدث لنبي الله يوسف عليه السلام لا يختلف كثيرًا عما حدث لنبيه موسى عليه السلام، فكلام امرأة فرعون عن موسى عليه السلام وحسن ظنها به لا يتناقض مع القدر القائل لفرعون: " يا أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه: قد حكم العظيم الذي لا يغلب ولا يمانع، ولا تخالف أقداره، إن هذا المولود

الذي تحترز منه، وقد قتلت بسببه من النفوس مالا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك، ولا يغذّى إلا بطعامك وشرابك في منزلك وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتفداه ولا تطلع على سر معناه، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحى إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق، أن رب السماوات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو القوى الشديد، ذو البأس العظيم، والحول والقوة والمشيئة التي لا مرد لها! " [1].

ولأنه سبحانه قدر ما قدر من أمر موسى عليه السلام، كان حسن ظن امرأة فرعون من الأسباب التي هيأها الله لإنفاذ ذلك القدر، وهو أن يربى موسى عليه السلام في قصر عدوه وهو لا يعلم ولله در القائل:

وإذا العناية لاحظتك عيونها ::: نم فالمخاوف كلهن أمان

حسن الظن خلق أصيل من أخلاق النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم

وإذا ما بحثنا عما يوافق حسن الظن في سنة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم فلن يتعبنا البحث أو يشق علينا؛ ذلك أن هذا الخلق واضح في سيرته صلى الله عليه وسلم وضوح شمس صيف في رائعة السماء.

{هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها} هذا الكلام المبشر قاله النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه قبيل غزوة بدر الكبرى التي تبدأ أحداثها بمعرفة الرسول صلى الله عليه وسلم بأن هناك عيرًا لقريش في طريقها إلى مكة فيستنفر صلى الله عليه

(1) قصص الأنبياء.

وسلم أصحابه قائلاً:**{هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها}**.

أمل ورجاء وحسن ظن يطالعنا منذ البداية، ولم لا فالنبي صلى الله عليه وسلم ذو النظرة المشرقة دائمًا قد علم أن هناك عيرًا محملة بثروات طائلة لأهل مكة ألف بعير موقرة بالأموال، لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبي، وليس معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلاً.

إذن فالفرصة سانحة للمسلمين أن يستردوا أموالهم التي أخذها أهل مكة منهم عنوة وأخرجوهم دونها، فلماذا لا تتم المبادرة بمهاجمة تلك القافلة الكظيظة بالأموال والاستيلاء عليها؛ ليعوضوا بها بعض ما فقدوه.

ولهذا قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم مرغبًا لهم في ذلك:**{لعل الله ينفلكموها}** أي تكون لكم غنيمة تعوضكم عما فقدتم من الدور والأموال في تلكم البلدة التي حرمها الله (مكة)، ويبادر المسلمون بتلبية نداء النبي صلى الله عليه وسلم، ويحتشدون وإن لم يعزم عليهم، ويخرجون للقاء القافلة، وهم ثلاثة مائة وبضعة عشر رجلاً، ولكن كيف وقائد القافلة المطلوبة المرغوبة داهية من دواهي العرب، عبقري التصرف في المواقف الحرجة إنه (أبو سفيان) وحسبك!!

الذي علم بما خرج إليه محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمون، فأرسل مستصرخًا لقريش بالنفير إلى عيرهم، ويعلم عن طريق استخباراته أن محمدًا صلى الله عليه وسلم وأصحابه توجهوا نحو بدر لملاقاة القافلة، فيغير الطريق ويتحول نحو الساحل غربًا، تاركًا الطريق الرئيسي الذي يمر ببدر على اليسار، وبهذا ينجو بالقافلة ولكن قريشًا كانت قد استعدت بجيش جرار قوامه نحو ألف وثلاثمائة مقاتل على إثر دعوة ذلك الداعي الذي كان قد أرسله أبو سفيان لهم

يستنفرهم لنجدة القافلة، و يتلقى جيش الكفار في طريقه رسالة أخرى من أبي سفيان بأن القافلة نجت ولم يعد هناك من داع للقتال مع محمد وأصحابه، وهنا يقوم الطاغية أشقى القوم أبو جهل الحكم بن هشام في غطرسة وكبرياء ويرفض العودة دون بدر.

ويعلم النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق الاستخبارات تحرك عير قريش ونفيرهم، وهنا يتأكد لديه أنه لم يبق مجال للاجتناب عن لقاء دام، فيعقد مجلسًا عسكريًّا استشاريًا أعلى تبادل فيه الرأي مع عامة جيشه، وقادته،**{أشيروا علي أيها الناس}** ويستقر رأي المهاجرين والأنصار على مقابلة العدو مهما كلفهم الأمر. " يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك " فوالذي بعثك بالحق لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد " فيسر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، ويقول لهم:**{سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم}**، وهذه الكلمة لهي البشرى الثانية بعد**{لعل الله ينفلكموها}** وتبدأ المعركة وتلتقي الفئتان الفئة التي تقاتل في سبيل الله بقيادة محمد صلى الله عليه وسلم، والفئة الكافرة التي تقاتل في سبيل الشيطان بقيادة أبي جهل بن هشام، ويلتحم الجيشان التحامًا قويًا، ويحتدم القتال ويأتي المدد للمسلمين ملائكة من الرحمن منزلين مردفين تردف جماعة منهم جماعة، وتضطرب صفوف المشركين وتتهدم أمام حملات المسلمين العنيفة، ويلوذ من بقي منهم بالفرار، ويركب المسلمون ظهورهم فيأسرون ويقتلون، وتتم الهزيمة الساحقة للمشركين، والفتح المبين للمسلمين فقد استشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً، وقتل من المشركين سبعون وأسر سبعون، ثم نفل المسلمون الأنفال والغنائم، وقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين على السواء بعد أن أخذ منها الخمس.

وهكذا انتهت تلك الغزوة لتسطر في تاريخ المسلمين أول وأكبر وأهم معركة من معارك الإسلام الفاصلة [1].

هذه هي أحداث غزوة بدر الكبرى مع كثير من المعالجة بالاختصار أحببت أن أوردها في هذا المقام؛ ليزداد القارئ معي معرفة بأحداث هذه الغزوة العظيمة، وليكون الأمر يسيرًا عليَّ في عرض خاطرتي التي رغبت التنويه إليها، تيسيرًا على القارئ الكريم في تلقيها.

تبدأ أحداث الغزوة بذكر النبي صلى الله عليه وسلم للأنفال وترغيب أصحابه فيها، وتنتهي الغزوة بتقسيم الأنفال، وحول هذه الغزوة نزلت سورة الأنفال.

{لعل الله ينفلكموها}.

أمل النبي صلى الله عليه وسلم ورجا أن يغنم المسلمون وينفلوا عير قريش، فكانت هدية الله تعالى له أكبر مما أمل ورجا، فقد نفله الله سبحانه رقاب قوم لطالما آذوه وأصحابه، ووقفوا في طريق دعوته، نفله صناديد الكفر، وطغاة الإلحاد، وجبابرة الشرك، قتلهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ورآهم بعينيه وقد قتلوا ثم سحبهم بيده الشريفة وألقى بهم في قليب من قلب بدر، فما أعظمها من نافلة كان النبي صلى الله عليه وسلم حسن الرجاء والظن بالله فلم يخيب الله ظنه.

{لعل الله ينفلكموها}.

وبالفعل ينفلهم الله غنائم عظيمة من هذه المعركة التاريخية يحرزون منها ويجمعون، يقسمها النبي صلى الله عليه وسلم عليهم بالسوية بعد أن يأخذ منها الخمس {وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ

---

(1) أحداث الغزوة من كتاب الرحيق المختوم (بتصرف).

ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾} [الأنفال: ٤١].

لقد رجا النبي صلى الله عليه وسلم أن ينفله الله إحدى الطائفتين " إما العير، وإما النفير " فنفله الله تعالى الطائفتين معًا " العير والنفير ".

{لعل الله ينفلكموها}.

وتنزل سورة من أعظم سور القرآن الكريم من السبع الطوال المثاني تنزل تعليقًا إلهيًا - إن صح هذا التعبير - على هذه المعركة، يختلف كثيرًا عن التعاليق التي ينطق بها الملوك والقواد بعد الفتح. سورة يبين الله جل وعلا للمسلمين فيها في كل مكان وزمان أخلاقيات تكمل نفوسهم وتزكيها، ثم يثني سبحانه بما كان في هذا الفتح من تأييد الله وعونه ونصره بالغيب للمسلمين؛ لئلا يغتروا بشجاعتهم وبسالتهم وتتسور نفوسهم الغطرسة والكبرياء، بل ليتوكلوا على الله ويطيعوا رسوله عليه الصلاة والسلام، ثم يبين لهم الأهداف والأغراض النبيلة التي خاض الرسول صلى الله عليه وسلم لأجلها هذه المعركة الدامية الرهيبة، ودلهم على الصفات والأخلاق التي تسببت في الفتوح وفي المعارك، ثم خاطب المشركين والمنافقين واليهود وأسارى المعركة، ووعظهم موعظة بليغة، تهديهم إلى الاستسلام للحق والتقيد به، ثم خاطب الله سبحانه أيضًا في هذه السورة المسلمين حول موضوع الغنائم، وقنن لهم مبادئ وأسس هذه المسألة، ثم بين وشرع لهم قوانين الحرب والسلم حتى تمتاز حروب المسلمين عن حروب أهل الجاهلية، ويقوم لهم التفوق في الأخلاق والقيم والمثل، ويتأكد للدنيا أن الإسلام ليس مجرد وجهة نظرية، بل إنه يثقف أهله عمليًا على الأسس والمبادئ التي يدعو إليها، ثم قرر بنودًا من قوانين الدولة الإسلامية التي تقيم الفرق بين المسلمين الذين يسكنون داخل

حدودها، والذين يسكنون خارجها [1].

سورة عظيمة من القرآن الكريم تنزلت مسماة بلفظة تلفظ به النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قبل بدأ الغزوة، تختزل كل ما سبق أن أشرنا إليه من الخير والأخلاق والمبادئ**{لعل الله أن ينفلكموها}**.

نعم ينفل الله رسوله وأصحابه المسلمين وأتباعه إلى قيام الساعة غزوة سميت باسم (الكبرى) حقًا فهي بدر الكبرى التي كانت فتحًا عظيمًا للإسلام زاده قوة إلى قوته وأكسبه ثباتًا كان في أمس الحاجة إليه وقتها.

{لعل الله ينفلكموها}.

وما يزال المسلمون يستمدون من بدر كل فَخَار وعزة وبأس إلى يومنا هذا وإلى ما شاء الله تعالى.

{لعل الله ينفلكموها}.

ولا نستطيع وإن كتبنا وكتب الناس أن نحيط علمًا بما نفل الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين من غزوة بدر الكبرى.

ويظل حسن ظن النبي صلى الله عليه وسلم بالله سبحانه وتعالى وبتوفيقه أولاً، ثم بنفسه المتفائلة الظانة خيرًا دائمًا ثانيًا، ثم بالصحابة الكرام وإخلاصهم وإيمانهم وحبهم لله ولرسوله وللإسلام ثالثًا من أهم الأخلاق التي يتخلق بها صلى الله عليه وسلم على كل أحواله، وكيف لا؟! وهو من علمنا ذلك في الحديث القدسي:**{أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء}** [2].

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أكثر تفاؤلاً وأعظم رجاءً وحُسن ظن بالنصر من عزيز مصر ومن امرأة فرعون فقد استخدم كلمة

---

(1) الرحيق المختوم.
(2) رواه البخاري ومسلم.

(لعل) التي تدل على ترجيح الطرف المرجى على نقيضه في حين استخدما هما كلمة (عسى) التي يستوي طرفاها في التحقق.

وليبق حسن الظن والرجاء من أهم الأخلاق التي يتخلق بها المسلم في كل مكان وزمان، وهو يعلم أنه لن يعدم جوازيه اقتداءً بما ذكر في القرآن الكريم، والسنة النبوية المشرفة من شواهد ودلائل على حسن الظن، وقد ذكر ابن الوزير في كتابه (العواصم والقواصم) : إن الرجاء في رحمة الله - عز وجل - يفتح الأمل للعبد، ويقويه على الطاعة ويجعله نشيطًا في النوافل سابقًا إلى الخيرات.

ولبعض الكتاب: إن الرجاء مادة الصبر، والمعين عليه. فكذلك علة الرجاء ومادته، حسن الظن بالله، الذي لا يجوز أن يخيب، فإنا قد نستقري الكرماء، فنجدهم يرفعون من أحسن ظنه بهم، ويتحوبون من تخيب أمله فيهم، ويتحرجون من إخفاق رجاء من قصدهم، فكيف بأكرم الأكرمين، الذي لا يعوزه أن يمنح مؤمليه ما يزيد على أمانيهم فيه [1].

وإني لأرجو الله حتى كأنني ::: أرى بجميل الظن ما الله صانع

هند ترى في صغيرها ملكا

ومن القصص المأثورة التي تذكر أيضًا حسن الظن وجميل نتائجه، قصة طريفة عن معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه قال المدائني عن صالح بن كيسان قال: رأى أحد متفرسي العرب معاوية وهو صغير؛ فقال: إني لأظن هذا الغلام سيسود قومه. فقالت هند - أم معاوية - ثكلته إن كان لا يسود إلا قومه.

هكذا نظرت هند رضى الله عنها لابنها، وهكذا أحسنت الظن به، فرفضت أن يكون سيدًا لقومه على الحد الأدنى، ورأت فيه ما يؤهله

(1) لا تحزن.

لأن يسودهم وغيرهم من الأقوام، وبالفعل كبرالصغير، وصدق الله سبحانه ظن أمه فيه وساد العرب والعجم، فكان أول ملك عربي يحكم الفريقين معًا.

شرائط تؤخذ في الاعتبار

إن علماء التنمية البشرية ليهيبون بحسن الظن، ويعدونه ركيزة من أهم ركائز النجاح والتفوق، ولكن حسن الظن لن يؤتي أكله إذا أثنانا عن تلك الشرائط أن تؤخذ في الاعتبار وهى: -

1 - العمل والإخلاص فيه، فلا يعني حسن الظن بالله تعالى ترك العمل، والركون إلى الأماني الخادعة، والاغترار بعفو الله وعظيم مغفرته، فقد قال بعض السلف: " رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق "، وإنما يعني حسن الظن به تعالى أن يحسن العبد العمل ويخشى الله ويتقيه في كل صغيرة وكبيرة، فهو القهار الجبار سبحانه مع حسن التوكل عليه، والطمع في رحمته؛ لأن من كان بالله أعرف كان لله أخوف، فبقدر شدة خوف العبد من الله جل وعلا يكون عظيم رجائه لمغفرته وعفوه وحسن ظنه بكرمه وحلمه، فهذا هو حسن الظن وهكذا يجب أن يكون.

وهو ما رأيناه متحققًا فيما ورد في الآيات القرآنية موضوع المبحث، ففي قصة يوسف عليه السلام أحسن العزيز الظن بيوسف عليه السلام، وعمل بمقتضى حسن ظنه، فأحسن إلى الصدّيق عليه السلام، وأكرم مثواه، وأوصى به امرأته خيرًا، وما فعله العزيز مع يوسف عليه السلام فعلته امرأة فرعون مع موسى الكليم عليه السلام، فمذ أن رأته جعلته قرة عينها، ودفعت عنه القتل وربته في بيتها كابن لها تحبه وترعاه وتحنو عليه، هذا ولقد كان حسن ظن النبي صلى الله عليه وسلم في النصر متوافقًا مع كل ما قام به من استخبارات واستعدادت وتعبئة للجيش المسلم.

2 – الحذر؛ إذ لابد مع حسن الظن أن يكون الإنسان على قدر لا بأس به من حذر؛ لأن كما في الدنيا الخير فإن فيها أيضًا الشر " والذي لا يعرف الشر أحرى أن يقع فيه " كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ولا يعني ذلك أن تكون خبيثًا سيئ الظن، ولكن يعني ألا يكون حسن ظنك ممكن للخبيث منك، وكما قال عمر بن الخطاب يصف نفسه: " أنا لست بالخب ولكن الخب لا يخدعني "، فلا يكن حسن ظنك جسرًا يمر عليه اللؤماء إليك، ولا بد أن تضع في اعتبارك أن الناس ليسوا كلهم يوسف الصديق عفة، وليسوا كلهم كالكليم أمانة، وليسوا كلهم محمدًا صلى الله عليه وسلم في الخلق العظيم.

هذا ولا يناقض الحذر حسن الظن وإنما يجب أن يلازمه، وقد ظهر لنا من حذر الرسول صلى الله عليه وسلم في المثال الذي عرضناه في هذا المبحث موضحًا حسن ظنه ألا وهو غزوة بدر، أنه صلى الله عليه وسلم قام باستخبارات سرية قبيل المعركة يستكشف بها حال جيش الكفار وعددهم، ذلك مع حسن ظنه بأن الله سبحانه سينفله وأصحابه إحدى الطائفتين " إما العير وإما النفير ".

بل إن تلازم حسن الظن مع الحذر كان خلقًا من أهم الأخلاق التي تميز بها صلى الله عليه وسلم على كل أحواله، وقد ذكره له عليٌّ بن أبي طالب رضى الله عنه حينما سأله ابنه الحسن رضى الله عنه عن بعض صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان جواب عليّ رضى الله عنه "... ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي على أحد منهم بشره ولا خلقه... " [1].

فهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يظن بأحدهم شرًا أو خلقًا سيئًا.

---

(1) رواه الطبراني.

3 - الصبر من أهم الصفات التي يجب أن تلازم حسن الظن وتقترن به؛ ذلك لأن نتيجة حسن الظن لن تأتي في كل الأحوال بين عشية وضحاها، ولكنها قد تتأخر؛ فاصبر ولا تستعجل وأحسن الظن، وكن متأكدًا من حسن المصير؛ " لأن النصر مع الصبر، ولأن الصبور لا يعدم الظفر وإن طال الزمان " كما قال الإمام عليٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه.

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ::: ومدمن القرع للأبواب أن يلجا
فحسن الظن واقرنه بالعمل والحذر والصبر ::: وسيأتيك الله بالبشرى من حيث لا تدري

وبعد هذا العرض لتلك الصور المشرقة التي عرضت لنا حسن الظن ونتائجه المشرقة لم يعد لنا منه بد كخلق لابد أن يتخلق به كل مسلم صغيرًا أو كبيرًا، رجلاً كان أو امرأةً.

فلابد أولاً أن نحسن الظن بالله جل وعلا ونتعبده بحسن الظن به؛ لأنه سبحانه هو نعم المولى ونعم النصير هو الرحمن الرحيم هو من له الأسماء الحسنى، ونستمد منه سبحانه كل قوتنا وعزتنا وأملنا، ونحسن الظن في رحمته وعفوه وغفرانه{مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾} [النساء: ١٤٧] " ولأن حسن الظن بالله هو الطريق إلى الجنة " [1] فهوالحرز الذي يجب أن يبقى للمسلم حتى آخر لحظة في حياته كما أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال:**{لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل}** [2].

ونحسن الظن في رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم أسوتنا وقدوتنا إلى يوم القيامة، ونستلهم من سيرته العطرة، ومن سنته المطهرة سلوكًا نحتذيه وطريقًا نقتفيه. { لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

(1) برنامج أسماء الله الحسنى للشيخ محمد راتب النابلسي.
(2) رواه مسلم.

لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾} [الأحزاب: ٢١] لأنه كما قال الله تعالى عنه وعن رحمته بنا:{لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾} [التوبة: ١٢٨]، وكما قال عنه الله جل وعلا مزكيًا لخلقه:{وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾} [القلم: ٤].

ونحسن الظن بكتاب الله الكريم معجزته الباقية على طول العصور والأزمان، المتمثلة آياته أخلاقًا واضحة للعيان، ومنهجًا قويمًا لكل من اهتدى من بني الإنسان{ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة: ٢].

ونحسن الظن بأنفسنا ونعرف قدرها " رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه "، فنعرف مواطن القوة والخير فيها؛ فنستفيد منها بأن نعززها ونقويها، ونعرف مواقع الخور والضعف فيها؛ فنتجنب آثارهما بالتماس العلاج{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾} [الشمس: ٧ - ١٠].

ونحسن الظن بأبنائنا أولئك المسلمين الأحداث، وذلك النسل المبارك الذي يكاثر ويفاخر النبي صلى الله عليه وسلم بهم الأنبياء والأمم يوم القيامة، ونهيئ لهم الأسباب التي من شأنها أن تترقى بهم وتزكيهم، فلأن كان عزيز مصر وامرأة فرعون قد ظنا خيرًا بغريبين عنهما، وهما يوسف وموسى عليهما السلام، وقد أراهما الله سبحانه عاقبة حسن ظنهما وأثابهما عليها خيرًا بخير{هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾} [الرحمن: ٦٠] فأجدر بنا إذن أن نظن بأبنائنا وفلذات أكبادنا اللذين من أصلابنا وأرحامنا خيرًا وننتظر منهم كل خير.

وبالمجمل حري أن يظن المعلم بتلميذه النجابة والذكاء، ويظن الطبيب بمريضه الشفاء والمعافاة، ويظن الفلاح بحقله الإنتاج الكثير والرزق الوفير، وكذا المهندس والعامل و... كل من له مهنة وعمل.

نحتاج أن يظن كل منا خيرًا في أهله وفى أخيه وفى جاره وفى زميله وفى...

وليظل لحسن الظن آيات من القرآن الكريم، وشواهد من سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم باقية ببقاء السماوات والأرض غديرًا رائقًا ننهل منها لنزداد يقينًا وتفاؤلاً ورجاءً واستبشارًا.

* * *

هنالك دعا زكريا ربه

القرآن خُلقًا

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ

قال تعالى:

{ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ

إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾} [آل عمران: ٣٥ - ٣٩].

التفسير:{ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ} اسمها حنة بالنون، وهى أم مريم، وعمران هذا هو والد مريم{نَذَرْتُ} أي جعلت نذرًا عليّ أن يكون هذا الولد في بطني حبسًا على خدمة بيتك، وهو بيت المقدس{مُحَرَّرًا} أي عتيقًا من كل شغل إلا خدمة المسجد{ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا} الآية. كانوا لا يحررون الإناث بخدمة المساجد، فقالت{إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ} تحسرًا وتلهفًا على ما فاتها من النذر الذي نذرت{وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} قرئ وضعت بإسكان التاء وهو من كلام الله تعظيمًا لوضعها. وقرئ بضم التاء وإسكان العين وهو على هذا من كلامها{وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ} يحتمل أن يكون من كلام الله، فالمعنى

ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لك، وأن يكون من كلامها فالمعنى ليس الذكر كالانثى في خدمة المساجد، لان الذكور كانوا يخدمونها دون الإناث.

{سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ} إنما قالت لربها: سميتها مريم؛ لأن مريم في لغتهم بمعنى العابدة، فأرادت بذلك التقرب إلى الله، ويؤخذ من هذا تسمية المولود يوم ولادته، وامتنع مريم من الصرف للتعريف والتأنيث، وفيه أيضًا العجمة{وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ} ورد في الحديث ما من مولود إلا نخسه الشيطان يوم ولد فيستهل صارخًا إلا مريم وابنها، لقوله:{وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ} الآية{ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا } أي رضيها للمسجد مكان الذكر{بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا } عبارة عن حسن النشأة{وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا } أي ضمها إلى إنفاقه وحضانته، والكافل هو الحاضن، وكان زكريا زوج خالتها، وقرئ كفّلها بتشديد الفاء، ونصب زكريا: أي جعله الله كافلها.

{ٱلۡمِحۡرَابَ} في اللغة أشرف المجالس، وبذلك سمي موضع الإمام، ويقال: إن زكريا بنى لها غرفة في المسجد، وهى المحراب هنا، وقيل: المحراب موضع العبادة{وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا} كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، ويقال: إنها لم ترضع ثديًا قط، وكان الله يرزقها{أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا} إشارة إلى مكان أي كيف ومن أين{إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ} يحتمل أن يكون من كلام مريم أو من كلام الله تعالى{هُنَالِكَ} إشارة إلى مكان، وقد يستعمل في الزمان، وهو الأظهر هنا أي لما رأى زكريا كرامة الله تعالى لمريم: سأل من الله الولد{ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ} أنث رعاية للجماعة، وقرئ بالألف على التذكير، وقيل: الذي ناداه جبريل وحده{يَحۡيَىٰ} اسم سماه الله تعالى به قبل أن يولد، وهو اسم بالعبرانية صادف اشتقاقًا وبناءً في العربية، وهو لا ينصرف، فإن كان في الإعراب أعجميًا ففيه التعريف والعجمة، وإن كان عربيًا فالتعريف ووزن الفعل{مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ} أي: مصدقًا بعيسى عليه السلام مؤمنًا به، وسمي عيسى كلمة الله، لأنه لم يوجد إلا بكلمة الله وحدها وهى قوله كن لا بسبب آخر وهو الوالد كسائر بني آدم{وَسَيِّدًا} السيد الذي يسود قومه أي يفوقهم في الشرف والفضل{وَحَصُورًا} أي: لا يأتي النساء فقيل

خلقه الله كذلك، وقيل كان يمسك نفسه، وقيل الحصور الذي لا يأتي الذنوب [1].

يقص الله سبحانه علينا في تلك الآيات الكريمات أن زكريا عليه السلام بعدما كفل مريم عليها السلام كان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقًا لم يحضره لها، ومما لم يكن في بيته وهو القائم برعايتها وكفالتها لا سواه، حتى قيل أنه كان يجد فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، ولما سألها عن ذلك الرزق قائلاً:{يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ }؟.

{قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ} وهنا يدرك زكريا عليه السلام عظيم قدرة الله، وتذكره السيدة مريم بهذا المبدأ الذي ربما غاب عنه قليلاً{إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ}، ويستوعب كنه قصة طعام السيدة مريم، ويرن في أذنيه صدى كلماتها، وهنالك في نفس الزمان والمكان يدعو ربه أن يهبه ولدًا حتى وإن كان قد صار شيخًا كبيرًا وامرأته عجوزًا عاقرًا، فما دام أن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فلماذا لا يكون هو أول المطبقين لهذا المبدأ المسارعين فيه؟ ويسارع زكريا عليه السلام ويدعو ربه السميع المجيب{رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةً} وعلى الفور يأتيه جواب طلبه ويؤتى سؤله ببشرى عظيمة من الله تضمنت العديد من البشر، ولنتأمل تلك البشرى كلمة كلمة بيسير من التفصيل:

{ فَنَادَتۡهُ} الفاء للسرعة، أي: بمجرد أن دعا زكريا عليه السلام الله سبحانه في نفس المكان والزمان جاءه الرد، ونادته: أي أن الملائكة خاطبته مشافهة وليس وحيًا.

{ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ} أي أن الذي قام بتبليغ زكريا عليه السلام بالبشرى هم عباد الله المكرمون ملائكة الرحمن، والجمع في ملائكة يدل على أنه ليس ملكًا واحدًا، وإنما ملائكة كثر قد حملوا له البشرى، وكأن السماء تحتفل بالنبأ

---

(1) التسهيل لعلوم التنزيل، بشيء من الاختصار.

السعيد، فتتسابق الملائكة وتتسارع في إخبار زكريا عليه السلام به.

{وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي} لقد تم هذا النداء لزكريا عليه السلام وهوأقرب ما يكون من ربه وهو يصلي وقبل أن ينصرف من صلاته ودعائه.

{فِي ٱلۡمِحۡرَابِ} : لقد كان هذا النداء في أطهر بقاع الأرض وأحبها إلى الله جل وعلا في محراب الصلاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{أحب البلاد إلى الله مساجدها...}** [1].

وإذا ما تأملنا نداء الملائكة لزكريا عليه السلام وما يحملون له من خبر، وما يزفون إليه من بشرى نجد أن كلامهم يبدأ بأن للتأكيد{أَنَّ ٱللَّهَ} فكم تكون درجة الصدق إذا أكد هؤلاء الأمناء الصادقون كلامهم؟!{يُبَشِّرُكَ} أي: يفرحك ويسرك، هكذا يبدأ كلام الملائكة بالبشر والسرور لزكريا عليه السلام من الله سبحانه وتعالى{بِيَحۡيَىٰ} أي: ولد ذكر سيرزقك الله إياه، وأن الله قد أسماه لك يحيى، لكن لماذا يحيى على وجه الخصوص اسم اختاره الله سبحانه لولد زكريا عليه السلام ويحيى هوعلى الحقيقة فعل لا اسم؟

إن ذلك لحكم ذكر بعضها العلماء منها: أنه سيحيا بالإيمان والنبوة، وقيل: لأن الله أحيا به الناس بالهدى؛ ولأن حياته لن تكون كحياة البشر إنما ستكون أشرف وأعظم، ولأنه لن يموت وإنما ستتصل حياته الدنيوية بالحياة الأخروية بالشهادة التي كتبها الله له.

{مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ} أي: مؤمنًا ومصدقًا بلا إله إلا الله، وقيل: مصدقًا بعيسى ابن مريم.

{وَسَيِّدٗا} أي: ليس رجلاً من عامة الناس، وإنما رجلاً متبوعًا سيدًا يسود الناس.

ومن المعروف أن من يَسُدْ الناس يكن عنده من المزايا والخصائص ما

---

(1) رواه مسلم.

يؤهله لأن يسودهم ويسوسهم إما علماً وحكمةً، أو عقلاً راجحًا، أو خلقًا رفيعًا، أودينًا وتقى وما إلى ذلك من خصائص الزعامة والسيادة.

{وَحَصُورًا} أي: ممنوعًا من الذنوب لا يأتيها كما ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:**{ما من عبد يلقى الله إلا ذا ذنب، إلا يحيى بن زكريا فإن الله يقول:{وَسَيِّدًاوَحَصُورًا}...}** [1].

{وَنَبِيًّا} هي بشارة بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى [2] وبشرى أيضًا بأنه سيحيا حتى يبلغ سن النبوة [3]{مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ} دخول يحيى عليه السلام في الصالحين لهي الختام المسك لهذه البشرى؛ لأنها دعوة الأنبياء أن يلحقوا بالصالحين ويكونوا منهم ومعهم.

وإن أجملنا ما جاء في البشرى نقول: تنادي الملائكة زكريا عليه السلام وهو ما يزال في محراب الصلاة وعقب دعائه مباشرة: يا زكريا إن الله يبشرك بولد ولقد أسماه لك اسمًا جديدًا لم يكن لأحد قبله أن يسمى به، أسماه يحيى ليحيا معافى قويًا رغم كبر سن والديه، ويحيا بالإيمان، ويحيا الناس بهديه، ونخبرك من صفاته أنه ليس إنسانًا عاديًا كالقاعدة العريضة من عامة الناس، وإنما هو من آحادهم المتفردين، فهو مصدق بكلمة الله وسيد وحصور ونبي من الصالحين.

وبعد تأمل البشرى يعرض لنا سؤال، هل هذه البشرى تقدر بمال الأرض مجتمعًا؟؟ هل تقدر بشيء من متاع الدنيا مهما عظمت قيمته؟ أم أنها لا حساب لفضلها ولخيرها؟

حقًا إنها أكثر من أن تحسب أو تحصى، وأكبر من أن تحصر أو تحاط، فما يكاد ينتهي انبهارنا بجانب منها حتى يجيء الجانب الثاني فإذا هو أعظم منه وأجل، لأنه عطاء بغير حساب، ورزق بلا حدود، وكل ذلك

(1) تفسير ابن كثير.
(2) تفسير ابن كثير.
(3) تفسير الشعراوي.

الخير والعطاء والرزق الذي لا حساب له؛ من إثر إدراك زكريا عليه السلام لمغزى قصة طعام السيدة مريم عليها السلام وقولها له:{إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ} من إثر يقينه وتنفيذه لهذه الفكرة بل ومسارعته في التنفيذ.

ألا تلمح في ذلك المشهد القرآني أن زكريا عليه السلام عرضت له فكرة صائبة من صديقة، فلم يتردد في إجرائها بنفسه وعلى نفسه ما دامت فكرة صائبة جاءته من ثقة؟ ألا تلمح أن نتائج تنفيذ هذه الفكرة على زكريا عليه السلام كانت أعظم أثرًا من نتائجها على السيدة مريم نفسها التي أوحى كلامها له بالفكرة؟ فلقد كان أثرها على الصديقة عليها السلام رزق طعام وشراب - وما أجلها من نعمة ولا نحقر نعم الله وإنما نفاضل بينها - أما أثرها على زكريا عليه السلام، فلقد كان ولد مؤمن سيد حصور نبي من الصالحين رزق به على الكبر بعدما وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبًا، وقت أن كاد يفارقه الرجاء في أن يكون له ولد؛ لذا فقد كان لذلك الرزق في نفسه الأثر الأعمق، وكان لتلك الفكرة ومسارعته في تنفيذها بإذن الله تعالى الفضل الأكبر.

موسى عليه السلام يسارع في الخير

ولقد كان لموسى عليه السلام موقف كموقف زكريا عليه السلام في السبق للخير، واقتناص أولى فرصه، والمسارعة فيه حفظها له الله سبحانه في كتابه العزيز.

قال تعالى:

{وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾} [طه: ٨٣ - ٨٤].

التفسير:

في قوله تعالى:{وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ} أي ما حملك على أن

تسبقهم. قيل: عنى بالقوم جميع بني إسرائيل، فعلى هذا قيل: استخلف هارون على بني إسرائيل، وخرج معه بسبعين رجلاً للميقات. فقوله:{هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى} ليس يريد أنهم يسيرون خلفه متوجهين إليه، بل أراد أنهم بالقرب مني ينتظرون عودي إليهم. وقيل: لا بل كان أمر هارون بأن يتبع في بني إسرائيل أثره ويلتحقوا به. وقال قوم: أراد القوم السبعين الذين اختارهم، وكان موسى لما قرب من الطور سبقهم شوقاً إلى سماع كلام الله. وقيل: لما وفد إلى طور سيناء بالوعد اشتاق إلى ربه، وطالت عليه المسافة من شدة الشوق إلى الله تعالى، فضاق به الأمر حتى شق قميصه، ثم لم يصبر حتى خلفهم ومضى وحده، فلما وقف في مقامه قال الله تبارك وتعالى:{وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ} فبقي صلى الله عليه وسلم متحيراً عن الجواب وكنى عنه بقوله:{هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى} وإنما سأله عن السبب الذي أعجله بقوله:{وَمَآ} فأخبر عن مجيئهم بالأثر. ثم قال:{وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ} فكنى عن ذكر الشوق وصدقه إلى ابتغاء الرضا، ولذلك قال الله تبارك اسمه فيما يروى عنه: " طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم أشوق ". قال ابن عباس: كان الله عالماً ولكن قال:{وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ}.

رحمة لموسى، وإكراماً له بهذا القول، وتسكيناً لقلبه، ورقة عليه [1].

لقد وجد موسى عليه السلام مضمارًا للسباق إلى الله، فكان فيه أول السابقين المتقدمين، حائزًا قصب السبق، محرزًا أولى المراتب، مقتنصًا كل فرصة إلى الله، ولم لا وهو يعلم أن العجلة إلى الله هي عجلة في الخير محمودة عند الله جل وعلا؛ لأنها قربة من أجل القربات التي ترضيه سبحانه، وهي على ذلك مضمونة التحصيل مجزي عليها بأفضل الجزاء.

(1) تفسير القرطبي.

السحرة لهم نصيب

وقبل أن نترك زمن النبي موسى عليه السلام كان لنا مع المسارعة في الخير مع المؤمنين به مشهد آخر من القرآن الكريم مؤيد ودال على أن السبق في الخير والمسارعة إليه واقتناص فرصه ليس مقصورًا فقط على الأنبياء أو حكرًا عليهم، وإنما دخل معهم فيه كل من كان له قلب أو ألقى الذكر وهو شهيد، ولقد كان آخر المواقف من نصيب السحرة من قوم فرعون.

قال الله تعالى:

{فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾} [الشعراء: ٣٨ - ٥١].

التفسير:

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى عليه السلام والقبط في سورة الأعراف وفي سورة طه وفي هذه السورة: وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نورالله بأفواههم فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، وهذا شأن الكفر والإيمان ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان{بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾} [الأنبياء: ١٨].

{وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ} [الإسراء: ٨١]، ولهذا لما جاء السحرة وقد

جمعوهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلاً في ذلك، وكان السحرة جمعًا كثيرًا، وجمًّا غفيرًا، وقال قائلهم:{لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ} ولم يقولوا: نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم{ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ} أي: إلى مجلس فرعون، وقد ضربوا له وطاقًا وجمع خدمه وحشمه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم، والتقرب إليه إن غلبوا أي هذا الذي جمعتنا من أجله فقالوا:{أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾} أي: وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي، فعادوا إلى مقام المناظرة{قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟} وقد اختصر هذا ههنا فقال لهم موسى{أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾} وهذا كما تقول الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئًا هذا بثواب فلان، وقد ذكر الله تعالى في سورة الأعراف أنهم{سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [الأعراف: ١١٦]. وقال في سورة طه{فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ} [طه: ٦٦] إلى قوله:{وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ} [طه: ٦٩] وقال ههنا{ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} [الشعراء: ٤٥] أي تخطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئًا، قال الله تعالى{ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾} إلى قوله:{رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ} فكان هذا أمرًا عظيمًا جدًا وبرهانًا قاطعًا للعذر وحجة دامغة، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة وسجدوا لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فغلب فرعون غلبًا لم يشاهد العالم مثله.

وكان وقحًا جريئًا عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل فشرع يتهددهم ويتوعدهم ويقول{إِنَّهُۥ

لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ} وقال:{إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ} الآية. تهددهم فلم ينفع ذلك فيهم وتوعدهم فما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا، وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر إلا أن يكون الله قد أيده وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء من ربه، ولهذا لما قال لهم فرعون:{ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ} أي كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم ولا تفتاتوا عليّ في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم وإن منعتكم امتنعتم، فإني أنا الحاكم المطاع:{إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ} وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل، ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب فقالوا:{لَا ضَيْرَ} أي لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به{إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ} أي: المرجع إلى الله عز وجل وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً ولا يخفى عليه ما فعلت بنا وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء ولهذا قالوا{إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ} أي ما قارفناه من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر{أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} أي بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان. فقتلهم كلهم [(1)].

لقد غيرت رؤية الحق مسار السحرة ووجهتهم، وما اعتزموا عليه بدرجة مائة بالمائة، فحينما تحققوا من صدق موسى عليه السلام وحقيقة ما جاءهم به، بادروا إلى الحق واعتنقوه وآمنوا به غير ناظرين إذن فرعون غير آبهين بتهديده أو مكترثين بما جمعهم له، فلقد رأوا الحق وآياته الواضحات فما كان منهم إلا المسارعة في الإيمان، واقتناص أول الفرص ليسجلوا أسماءهم في أوائل المؤمنين، عادين ذلك من القربات العظيمة إلى الله جل وعلا، والتي بها تمحى الذنوب الكبيرة.

---

(1) تفسير ابن كثير.

محمد صلى الله عليه وسلم **أول السابقين**

أما النبي محمد صلى الله عليه وسلم فهو أول السابقين لأنه أول المسلمين، وهذا ما شهد له به الله سبحانه، وأمره أن يشهد هو به لنفسه قال تعالى:{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾} [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

التفسير:

... ثم إذا قاله فلا يقل:{وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}. وهي: الرابعة: إذ ليس أحدهم بأولهم إلا محمداً صلى الله عليه وسلم. فإن قيل: أو ليس إبراهيم والنبيون قبله؟ قلنا عنه ثلاثة أجوبة: الأول: أنه أول الخلق أجمع معنىً، كما في حديث أبي هريرة من قوله عليه السلام:{**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة**}. وفي حديث حذيفة:{**نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضي لهم قبل الخلائق**}. الثاني: أنه أولهم لكونه مقدمًا في الخلق عليهم، قال الله تعالى:{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ } [الأحزاب: ٧]. قال قتادة: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال:{**كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث**}. فذلك وقع ذكره هنا مقدمًا قبل نوح وغيره. الثالث: أول المسلمين من أهل ملته، قاله ابن العربي، وهو قول قتادة وغيره. وقد اختلفت الروايات في أول ففي بعضها ثبوتها وفي بعضها لا، على ما ذكرنا [1].

وللشيخ الشعراوي في إثبات تلك الأولية للنبي صلى الله عليه وسلم كلام جميل قال الشيخ - رحمه الله -: النبي محمد صلى الله عليه وسلم أول المسلمين لأن له منزلة بين رسل الله أجمعين؛ لأنه أخذ العهد على غيره له ولم يأخذ العهد عليه لأحد؛ لذا فهو أول المسلمين وإن لم يكن أولهم حدثًا [2] فالنبي صلى الله عليه وسلم هو سابق الأولين والآخرين إلى كل

(1) تفسير القرطبي.
(2) تفسير الشعراوي.

خير - وإن لم يكن أول الأنبياء بعثًا - وهو المسارع الأول على مستوى البشر قاطبة إلى الخير الأعظم فصلى الله على نبينا وآله سلم.

ونعود لنؤكد ذلك الخلق من السنة النبوية فنجد أن نهج النبي صلى الله عليه وسلم في استباق الخير واقتناص فرصه دون تسويف أو تأخير خلقًا من أهم أخلاقه صلى الله عليه وسلم، فهو سيد في هذا الخلق وغيره، ولولا أنه سيد فيه ما اختاره الله سبحانه ليسبق الأولين والآخرين إلى الخير الأعظم والفضل الأكبر، فالنبي صلى الله عليه وسلم سابقنا وأولنا ودليلنا وقدوتنا في كل خير وإليه، وفي هذا يقول الجلندي ملك عمان لما بلغه أن رسول الله يدعوه إلى الإسلام: " والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له... " [1].

فالنبي صلى الله عليه وسلم هو أول مغتنم لكل خير، وأول مجتنب لكل شر، ومما يؤيد ذلك حديث أخرجه مسلم عن حذيفة قال: صليت مع النبي ذات ليلة فافتتح البقرة فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى فقلت: يصلي بها في ركعة - أي البقرة - فمضى فقلت: يركع بها ثم افتتح آل عمران فقرأها، ثم افتتح النساء فقرأها - وهذه السور تعدل سدس القرآن - يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد، ثم قام طويلاً قريبًا مما ركع، ثم سجد فقال سبحان ربي الأعلى فكان سجوده قريبًا من قيامه [2].

وشاهدنا من الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسارع إلى الخير وينفذه عمليًّا مع مراعاته للإتقان، فلا يمر في صلاته بتسبيح إلا وسبح، ولا تعوذ إلا وتعوذ مع القراءة مترسلاً وهذا هو حاله وديدنه دائمًا

---

(1) كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم سعيد حوى.

(2) أخرجه مسلم.

صلى الله عليه وسلم، فقد كان يقوم بكل أمر بما لا يسبق إليه مع إحاطته وعدم تفريطه بأي جانب من جوانب الإسلام الذي كلف به وأمر أن يدعو إليه حتى أن الدارس المنصف لحياته صلى الله عليه وسلم في هذا الجانب لا يتمالك إلا أن يشهد أن محمدًا رسول الله حقًا، فما عرض على النبي صلى الله عليه وسلم خير إلا كان مستبقًا له، ومسارعًا إليه، ومنفذًا له، وداعيًا إليه بأفضل ما دعا إنسان أمته إلى خير{ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ } [النحل: ١٢٥].

وكما يقول المفكر الإسلامي سعيد حوى في كتابه الرسول صلى الله عليه وسلم : أنه لم يكن لديه صلى الله عليه وسلم انفصالاً بين المثل والواقع بين المقال والفعال بين الدعوى والحقيقة، فالنبي دعا الإنسانية كلها إلى أعظم قمم السمو، ومثل بسلوكه العملي هذه الذروة بشكل رائع مدهش عجيب.

الصحابة يقتدون بالنبي صلى الله عليه وسلم **في استباق الخير**

وإذا ما نظرنا لنرى من صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم، وربوا على يده نجد أنهم قد استنوا بسنته وتخلقوا بذات الخلق والذي هو المسارعة إلى الخير واقتناص فرصه إذ نجد لذلك أمثلة كثيرة جدًا في كتب السيرة التي أوردت لنا جوانب من حياتهم المباركة رضى الله عنهم أجمعين، ومن المواقف التي تشهد لهم بذلك عن ابن عباس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**عُرضت علي الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**} ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول

الله صلى الله عليه وسلم وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئًا -، وذكروا أشياء - فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:**{ما الذي تخوضون فيه؟}** فأخبروه فقال:**{هم الذين لا يرقون ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون}** فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال:**{أنت منهم}** ثم قام رجل فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال:**{سبقك بها عكاشة}** (1).

وشاهدنا من الحديث الذي ينبئ النبي صلى الله عليه وسلم فيه عن هؤلاء السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ويختلف أصحابه صلى الله عليه وسلم في من يكون هؤلاء؟ فمنهم من يذكر أنهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله، ومنهم من يرى أنهم أولادهم الذين ولدوا في الإسلام فعبدوا الله وحده وعرفوا طريق النور من أول لحظة في حياتهم، ويبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ما اختلف فيه أصحابه رضي الله عنهم، فيخرج ليوضح لهم من هم هؤلاء الذين عناهم بالحديث، فيذكر أنهم:**{هم الذين لا يرقون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون}**، وهنالك في نفس المكان والزمان يلتقطها عكاشة بن محصن رضي الله عنه يلتقط أهم ما يهمه، فيسارع ويطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له أن يكون من هؤلاء السبعين، ويجيبه النبي صلى الله عليه وسلم مبشرًا له بأنه بالفعل منهم، وهنا موضع الشاهد، ثم يحاول صحابي ثان أن يلحق بعكاشة بن محصن في مضمار المسارعة إلى الخير، فيسأل النبي صلى الله عليه وسلم كما سأله عكاشة فيقول: ادع الله أن يجعلني منهم فيجيبه النبي صلى الله عليه وسلم بسبق عكاشة بذاك الخير وتفرده بتلك البشرى:**{سبقك بها عكاشة}**.

انظر إلى عكاشة بن محصن كيف سبقنا جميعًا بهذه الروح اليقظة الوثابة، وكيف أنه رضي الله عنه اقتنص الخير اقتناصًا وحازه وتفرد فيه حين

---

(1) متفق عليه.

كان أسبق من سبق إلى عرض خير عرضه النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يتأخر في أن يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون ممن لهم ذلك الخير ويأتيه جواب النبي صلى الله عليه وسلم على نفس درجة سبقه إلى الخير مهنئًا له بأنه منهم: نعم{**أنت منهم**}، ويستحق عن جدارة أن يكون منهم مادام هو على هذه الدرجة من التحفز والاستعداد، على هذه الدرجة من القدرة على السبق والامتياز، على هذه الدرجة من الشجاعة عن الإعلان عن نفسه بين الحضور.

ولا نستبعد أن يكون عكاشة بن محصن قد نالها لسبقه إلى طلبها ألم يقل الله سبحانه في كتابه العزيز:{وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ} [الواقعة: ١٠ - ١١] هكذا جعل الله السبق في الخير علامة التفوق والقرب منه سبحانه، وعليه ألا يكون السبق في طلب الخير هو خير؟ ألم يقل سبحانه:{فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ} [البقرة: ١٤٨] تقديرًا منه سبحانه لاستباق الخيرات، وقدر الخلق الذي يمثله؟

ألم يقل الله سبحانه وتعالى:{وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾} [آل عمران: ١٣٣] آمرًا عباده بالمسارعة إلى كل ما يوجب لهم المغفرة والجنة؟

ألم يورد الله سبحانه مسارعة أحد كبار المسارعين في الخيرات وهو زكريا عليه السلام في القرآن الكريم مقدرًا له في غير موضع فهو القائل جل شأنه: {فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠] إن الله سبحانه قد حمد لزكريا عليه السلام وآله مسارعتهم في الخيرات، وعدها سبحانه من الميزات والامتيازات التي اتصفوا بها عليهم السلام، وإلى نفس ذا المعنى أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى خلق عظيم في الصحابي الجليل عكاشة بن محصن رضى الله عنه حين قال صلى الله عليه وسلم :{**سبقك بها عكاشة**}.

ولقد أثبت عكاشة بن محصن رضى الله عنه لنفسه بذلك السبق إلى الخير ما تهفو إليه كل القلوب المؤمنة، وتتطاول إليه منهم كل النفوس، فما أعظم ما نال عكاشة بسبقه!

من الصحابيات سابقات

وليكن المثال الثاني المؤيد لذلك الخلق والممثل له من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثالاً نسائياً لامرأة حذت حذو الصالحين السابقين ونهجت نهجهم، فاقتنصت فرصة من فرص الخير أوصلتها إلى الجنة وأدخلتها إياها من أي أبوابها شاءت، وفى إيراد هذا المثال ما يؤكد أن المسارعة في الخير واقتناص فرصه ليست حكرًا على الرجال دون النساء بل هما في ذلك سواء{ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾} [النحل: ٩٧].

فقد روى الشيخان عن أنس بن مالك: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخل على أم حرام بنت ملحان - وهي من خالاته في الرضاع - فتطعمه وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمته فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استيقظ وهو يضحك قالت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال:**{ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرة}**. قالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ وهو يضحك. قالت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال:**{ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله}**، كما قال في المرة الأولى. قالت: يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني منهم. قال:**{أنت من الأولين}** [1].

(1) رواه الشيخان.

يبدأ الحديث الشريف بدخول الرسول صلى الله عليه وسلم على أم حرام بنت ملحان - وهى إحدى خالاته من الرضاع - فتطعمه وينام عندها ثم يستيقظ صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، ومن أول الحديث يبدو اهتمام أم حرام بالنبي صلى الله عليه وسلم وبانتباهها إلى كل ما يصدر عنه من أفعال، فتسأله رضى الله عنها عن سبب ضحكه، فيخبرها صلى الله عليه وسلم عما أضحكه وأسره، وذلك أنه رأى فيما يرى النائم ناسًا من أمته يركبون وسط البحر مجاهدين في سبيل الله، ويصفهم النبي صلى الله عليه وسلم وصفًا جميلاً لا يظهرعليهم فيه أثر السفر ولا الجهاد لكنهم يظهرون في أحسن صورة يبدون ملوكًا على الأسرة، فيبهرها ويسرها ما أبهر النبي وأسره، وما يبهر ويسر كل من سمع عنهم بوصفهم الذي يأخذ بالألباب، ولكنها - أم حرام رضى الله عنها لا تقف صامتة ساكنة لا تزد عن حد الانبهار والسرور، ولكنها تسارع وتسأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله لها أن تكون منهم، فانظر إلى نفاذ بصيرتها وحضور بديهتها وما أنالاها من خير، إذ يجيب النبي صلى الله عليه وسلم لها طلبها فيدعو الله جل وعلا لها أن تكون منهم، ثم يعود النبي صلى الله عليه وسلم ليضع رأسه فينام ثم يستيقظ وهو يضحك، فتسأله مرة أخرى عما يضحكه، فيجيبها بنفس الإجابة السابقة على نفس سؤالها المماثل السابق:**{ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله...}** وتكرر أم حرام على النبي صلى الله عليه وسلم طلبها وتسأله أن يدعو الله لها أن تكون منهم، فلا تكون إجابة النبي صلى الله عليه وسلم لما سألته كسابقتها، ولكن هذه المرة تأتيها بشرى عظيمة من نبي عظيم صلى الله عليه وسلم أذن بها رب عظيم كريم سبحانه؛ ذلك لأنها امرأة عظيمة في السبق إلى الخير والإلحاح على حيازته، فيبشرها النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً:**{أنت من الأولين}**.

وقد ذكر أنها رضى الله عنها ركبت البحر مع معاوية بن أبي سفيان،

فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، واستشهدت لحظتها. وقد غزا معاوية بن أبي سفيان قبرص سنة ثمان وعشرين هجرية، ومعه من كبار الصحابة أبو ذر وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت زوجها، وإلى الآن قبر تلك الشهيدة في قبرص شاهدًا على سباقها للخير وسبقها له.

ولكن ما يثير الدهشة ويبعث العجب ويجعلنا نتوقف عنده في تلك القصة أن بطلتها امرأة عربية بسيطة نتوقع أن طموحها قد لا يتجاوز أوتاد خيمتها أو مرابض أغنامها، وإذ بها تفاجئنا بمبادرتها لطلب ركوب البحر مجاهدة في سبيل الله وتلح عليه، فتناله وزيادة إذ تصبح من الأولين في ركوبه، وتثبت لنا خطأ توقعنا وسوء افتراضنا، وتسجل تلك المرأة ابنة ملحان اسمها ليكون في قائمة أول المجاهدين، وكذلك سجل لها التاريخ اسمها في أهم وأنصع صفحاته من يوم أن قالت تلك الكلمة وبادرت تلك المبادرة إلى ما شاء الله، سجل اسمها ليبين أنها أسوة حسنة في حب الخير واستباقه لكل من أرادت أن تحز قصب السبق في الخير واقتناص عروضه والتماس فرصه والفوز بها، وحري بنا أن نكون منهن.

درء الشر لا يقل عن جلب الخير

ولا تقل المسارعة في درء الشر واجتنابه درجة عن المسارعة في جلب الخير وحيازته بل هي تفوقها؛ لأن درء المفسدة في القاعدة الشرعية مقدم على جلب المنفعة، وإن أبينا ألا نفاضل بينهما لفضل كل منهما في نفسها، وفي الوقت الذي يتيحها أو يحتمها نقول إن كليهما وجهان لعملة واحدة وعنوانان متماثلان دالان على ذات الطريق طريق النجاة والنجاح؛ لأنهما مندرجان تحت المسارعة في الخير واستباقه المؤدي حتما بإذن الله تعالى إلى الجنة دار القرار{فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ}

[آل عمران: ١٨٥].

خلق المسارعة في درء الشر

وإذا ما عدنا لسيرة النبي العطرة باحثين عن ذلك الخلق عنده صلى الله عليه وسلم إلا ووجدناه خلقًا بهي الصورة واضح القسمات، وليكن الشاهد المؤيد على المسارعة في درء الشر واجتنابه هوعينه ترك التواني في الخير، فعن أبي سروعة - بكسر السين المهملة وفتحها - عقبة بن الحارث رضي الله عنه، قال: صليت وراء النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة العصر، فسلم ثم قام مسرعًا فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم، فرأى أنهم قد عجبوا من سرعته قال:**{ذكرت شيئًا من تبر عندنا، فكرهت أن يحبسني، فأمرت بقسمته}** وفي رواية له:**{كنت خلفت في البيت تبرًا من الصدقة فكرهت أن أبيته}** [1].

فهكذا كان حاله صلى الله عليه وسلم لا يتوانى عن خير أبدًا، وإذا حدث ونسي أمرًا كان يجب أن يفعله ثم ذكره كان إليه أسرع دارئًا عن نفسه التواني عن الخير ولو للحظات؛ إذ إن التواني في الخير شر حاشاه أن يمسه صلى الله عليه وسلم.

موقف يسجل للصحابة هذا الخلق الكريم

أما أصحاب المصطفى صلى الله عليه وسلم فإن لهم قصصًا أيضًا سجلت لهم مبادرات عظيمة لدرء الشر واجتنابه، اخترت منها قصة الصحابي الجليل صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الخندق حذيفة بن اليمان - رضي الله تعالى عنه - حينما أرسله النبي صلى الله عليه وسلم ليأتيه بخبر الأحزاب إبان محاصرتهم المدينة.

يقول حذيفة قاصًا ما حدث له مع الكفار: خرجت فلما وصلت إليهم، أقبل جند الله الأول ريح فيها حصى، فما تركت لهم نارًا إلاّ أذرّتها، ولا خباءًا

---

(1) رواه البخاري.

إلاّ طرحته، ولارمحًا إلا ألقته، حتى جعلوا يتترّسون من الحصى.

فجلست بين رجلين من المشركين، فقام أبو سفيان وقال: إن كنّا نقاتل أهل الأرض فنحن بالقدرة عليه، وإن كنّا نقاتل أهل السماء كما يقول محمد فلا طاقة لنا بأهل السماء، انظروا بينكم لا يكون لمحمد عين بيننا، فليسأل بعضكم بعضًا.

قال حذيفة: فبادرتُ إلى الذي عن يميني وقلت له: من أنت؟

قال معاوية. وقلت للذي عن يساري: من أنت؟

فقال: عمرو بن سهيل، ولم يسألاني عن اسمي.

ثم أقبل جند الله الأعظم. ريح فيها جندل، فقام أبو سفيان إلى راحلته، ثم صاح في قريش: النجاء النجاء، ولما أراد أن يركب راحلته أمكنني قتله، فلما هممت بذلك تذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{لا تحدثن حدثًا حتى ترجع إليّ}** فكففت ورجعت بعد أن انهزم المشركون وذهب الأحزاب.

فأخبرتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر وقد طلع الفجر، فتهيّأ وتهيّئنا معه للصلاة، فصلّى بنا الفجر ثم نادى مناديه:**{لا يبرحنّ أحد مكانه إلى أن تطلع الشمس}**، فلما طلعت الشمس انصرفنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى داخل المدينة وهو يقول على رواية:**{لا إله إلاّ اللهّ وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، فله الملك وله الحمد، يحيي ويميت، ويميت ويحيي، وهو حيّ لا يموت بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير}**.

ها هي المبادرة لاجتناب الشر مرة أخرى تظهر صراحة في ثنايا حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه وتستوعب الموقف الذي قصه كله حين تكون هي أنفع الحيل، وأقصر السبل، وأفضل ما يمتلك المرء، وأحرى ما يحتاجه الموقف.

فلقد كانت مبادرة حذيفة لمن على يمينه ويساره بالسؤال عن اسمه منجية له رضي الله تعالى عنه من أن يسألاه هما وينكشف أمره وتفشل مهمته؛ لذا فمبادرته لهما بالسؤال عن اسميهما كانت منجية له من عذاب شديد كان سيلقاه من الكفار والمتحزبين معهم، ومتممة له مهمة ندبه النبي صلى الله عليه وسلم للقيام بها، ولولا علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بمهارة متميزة فريدة يمتلكها حذيفة - رضي الله تعالى عنه - ما كان صلى الله عليه وسلم اختاره بالاسم حين قال له:**{اقترب يا حذيفة أما تسمع كلامي؟}** وحين قال له آمرًا له بالمسير إلى الأحزاب:**{انطلق حتى تسمع كلامهم وتأتيني بخبرهم}**.

والذي يجمع كل ما أوردته من نماذج إنسانية عظيمة هو خيط واحد هو تلك الروح اليقظة، والبديهة النافذة الثاقبة، والاستعداد لاقتناص فرص الخير، والمسارعةإليها، واستباقها وسبقها سواء أكان ذلك بدرء مفسدة أو بجلب منفعة.

ولا عجب أن ذلك المبدأ هو من أعظم المبادئ إن لم يكن أعظمها على الإطلاق؛ إذ إنه هو المبدأ الوحيد الذي جعله الله سبحانه أصلاً في وجود جل الكائنات الحية في هذا الكون الفسيح، ألم يكن وجودنا في هذه الحياة بإذن الله بسبب ذلك الحيوان المنوي النشط المتوثب اليقظ الذي اقتنص البويضة اقتناصًا فنال منها ولقحها فكان له الوجود والبقاء في حين كان مصير الملايين بل البلايين من نوعه إلى المرحاض... إلى العدم... إلى اللاشيء؟!

سر عبقرية العباقرة

إن سر عبقرية العباقرة وتفرد المتفردين تكمن في الأخذ بمبدأ المسارعة في الخير والسبق له والتفرد والابتكار فيه، وإن سر نجاح الناجحين المتفوقين هو عدم تضييع الفرص السوانح، فهل نسير أنا وأنت على نفس هذا المبدأ ونأخذ به؟ هل نقطف الثمرة متى دنت وأينعت؟

هل نقتنص الفرصة متى عرضت وواتت؟ أم أننا نتركها تمر مرور الكرام ثم نقعد نادمين ملومين محسورين عليها؟

فإذا أردت أن تكون عبقريًا متميزًا فكن مسارعًا إلى الخير مبتدرًا له مقتنصًا لكل فرصة توصلك إليه:

إذا هبت هبوبك فاغتنمها ::: فإن لكل ثائرة سكون

ولكي تكون من المسارعين إلى الخير ابدأ مبادرتك ومسارعتك في الخير وإليه أولا بالدعاء، فادع الله أن ييسر لك الخير ويهيأ لك فرصه، وإن واتتك فرص الخير - ومن اليقين أنها ستواتيك بإذن الله - فاغتنمها ولا تدعها تفوتك وعدها قربة من الله سبحانه وإليه، واعلم أنك تقربت إلى الله شبرًا، وأنه سبحانه تقرب إليك ذراعًا، فاستمر في التقرب إلى الله بدعائه سبحانه أن يوفقك ويسددك فيما يسر لك من الخير؛ فهو ولي ذلك والقادر عليه، ثم ادع الله أن يتقبل منك طاعتك ومسارعتك إلى الخير وفيه، وليكن الإخلاص هو العامل المشترك والظهير المؤيد في كل ما سبق.

على الطرف الآخر

وعلى الطرف الآخر في أقصى اليسار نجد ممثلين لخلاف ذلك المبدأ العظيم إذ هم يمثلون التواني عن الخير وعدم الهروب من الشر، ونجد لهم مثلاً في كتاب الله ففي هؤلاء الناس يضرب الله تعالى هذا المثل قال تعالى:

{قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١} [الأنعام: ٧١].

التفسير:

قال السدي: قال المشركون للمؤمنين: اتبعوا سبيلنا، واتركوا دين محمد، فأنزل الله عز وجل:{قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا

يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا } أي: في الكفر {بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ} فيكون مثلنا مثل الذي{ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ} يقول: مثلكم، إن كفرتم بعد الإيمان، كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق، فضل الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض، وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: " ائتنا فإنا على الطريق " فأبى أن يأتيهم. فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم، ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام. رواه ابن جرير [1].

لقد كان الممثل لذلك المثل المضروب في الآية الكريمة - وإن لم تنزل فيه خاصة - من الواقع المعاش أيام النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً شريفًا من الأشراف كريم الأعراق والأخلاق، ذا حمية ومروءة، واصلاً للرحم محبًا للأهل ذابًا عنهم كل أذى، دافعًا عنهم كل شر، محتملاً لأجلهم كل سوء، يلتجأ إليه في الشدائد، ويهرع إليه في النائبات.

رجل تجمعت فيه كل تلك الشمائل أتراه يتأخر عن اقتناص فرصة عظيمة من فرص الخير وهو مقتنع بصدق من جاءه به؟!

أتراه يتقاعس عن أن يتبعه يؤخر... ويسوف... ويتردد... وفي النهاية يمتنع؟!

لعلك لا تصدق وجود ذلك النموذج البشري، أو تستبعد وجوده، ولكنه للأسف موجود فيما بيننا، ولقد كان موجودًا فيما خلا إن من نعنيه في هذا المقام هوعم النبي صلى الله عليه وسلم إنه أبو طالب ذلك الرجل الذي لطالما دفع عن النبي صلى الله عليه وسلم أذى قريش، وحماه من كيدهم ومكرهم، وكان له سندًا ومعينًا، وتحمل معه الحصار الذي ضربته قريش عليه وعلى أصحابه، وبرغم حبه للنبي صلى الله عليه وسلم ودفاعه المستميت عنه وعن دعوته ومؤازرته له بكل ما أوتي من قوة ومكانة،

---

(1) تفسير ابن كثير.

إلا إنه لم يقتنص فرصة الخير العظمى التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم، والتي قد لاحت كالشمس، ويؤمن بالله جل وعلا، ويتبع النبي صلى الله عليه وسلم الذي لطالما تمنى له أن يؤمن به ويتبعه كمن آمن به واتبعه من عشيرته الأقربين وآل بيته الأطهار، وكمن آمن واتبع من أهل مكة.

وبرغم أن الفرصة ظلت منطرحة أمام أبي طالب - على غير عادتها في السرعة والعجلة - أعوامًا عديدة وسنوات مديدة، إلا أنه لم يسأل الله الهدى، ولم يستجب لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم له بأن يؤمن مع اقتناعه بالنبي صلى الله عليه وسلم وبصدق دعوته، ولم يكن في يد النبي صلى الله عليه وسلم لهداية عمه من شيء إذ القلوب بيد الله سبحانه يقلبها كيف يشاء، وأن الهدى من عنده تعالى يهدي به من يشاء من عباده، أما النبي صلى الله عليه وسلم فليس له من الأمر شيء، وليس عليه هدى أحد حتى وإن كان المرجو هدايته هو عمه الحبيب الذي تكفل بتربيته طفلاً، وحماه ودعوته كهلاً، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم لا ييأس أبدًا، ولا يفقد الأمل في هداية عمه الحبيب إلى الحق والنور، ويستمر راجيًا الله أن يهدي عمه حتى لحظة الموت، فعند البخاري عن ابن المسيب عن أبيه أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل فقال:{**أي عم، قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج بها عند الله**} فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر ما كلمهم به: على ملة عبد المطلب فقال النبي صلى الله عليه وسلم :{**لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**}، فنزلت{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾} [التوبة: ١١٣] ونزلت{إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ} [القصص: ٥٦] ورواه مسلم (1). وأخرجا أيضًا من طريق

(1) رواه البخاري ومسلم والنسائي.

آخر عنه بنحوه وقال فيه: فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى قال آخر ما قال: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: " لا إله إلا الله " فقال النبي صلى الله عليه وسلم :**{أما لأستغفرن لك ما لم أنه عنك}** فأنزل الله يعني بعد ذلك - فذكر الآيتين [1]. وهكذا روى الإمام أحمد ومسلم والنسائي الترمذي عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:**{يا عماه، قل: لا إله إلا الله أشهد لك يوم القيامة}** فقال: لولا أن تعيرني قريش يقولون: ما حمله عليه إلا فزع الموت لأقررت بها عينك ولا أقولها إلا لأقر بها عينك فأنزل الله عز وجل: { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } [القصص: ٥٦] [2].

لقد التمس النبي صلى الله عليه وسلم نجاة عمه من النار، وأمل في ذلك حتى الرمق الأخير لعمه، وألح النبي صلى الله عليه وسلم عليه في أن يقول كلمة هي أفضل ما قال النبي صلى الله عليه وسلم والنبيون من قبله كلمة يشهد بها له ويحاج يوم القيامة وتوجب لعمه الجنة إنها " لا إله إلا الله " ما أخفها على اللسان وما أثقلها في الميزان.

قل يا عم... قل... لكن العم يمتنع رغم رغبته، ويخبر النبي صلى الله عليه وسلم بصادق رغبته في أن يقولها ليقر بها عين النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه يراعي اعتبارات أخرى هي عنده أهم من الحق وأولى، فلا يقول: " لا إله إلا الله "، ولا يقر بها عين النبي صلى الله عليه وسلم وأعيننا، ولا يستطيع أن يفارق ملة آبائه؛ خوفًا من أن تعيره قريش إن هو نطق بها، وما أوهاها من حجة وأسخفها في عين الرائي البصير إذ متى تعيره قريش وهو على فراش الموت؟!

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه مسلم وأحمد والترمذي.

ويستجيب أبو طالب في النهاية لداعي الشرعن شماله، وينطق كلمة الكفر لتكون آخر قوله من الدنيا " على ملة عبد المطلب "، وتستهويه الشياطين، ويترك صاحبًا يدعوه إلى الهدى مستحبًا للضلالة عن الهدى؛ فيكون من أصحاب الجحيم، وتفلت الفرصة منه إلى الأبد، وتتفلت نفسه من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النار، ويموت أبو طالب كافرًا رغم رغبة النبي صلى الله عليه وسلم، ورغبة كل من سمع عنه وعن دوره في حماية الدعوة الإسلامية في مهدها أن لو كان آمن.

ويخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم بنوع العذاب الذي سينال أبا طالب في جهنم، ففي الصحيح عن العباس بن عبد المطلب، قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال:**{هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار}** (1).

وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم - وذكر عنده عمه - فقال:**{لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار تبلغ كعبيه}** (2).

لم يستطع أبو طالب أن يحرك قدميه نحو الإسلام قيد أنملة، ولو أنه تقرب من الله شبرًا لتقرب الله سبحانه منه ذراعًا، لكن هيهات هيهات، فقد بدا أبو طالب مقتنعًا بالدين الإسلامي وبمن جاء به بقلبه وجنانه مدافعًا عنه ومؤيدًا له بقوته وسلطانه إلا أنه ظل ثابت القدم في الكفر معدودًا من الكفار فكان جزاؤه من جنس عمله.

كان حري بأبي طالب أن يبادر إلى الإسلام ويقتنص الفرصة... لكن... ولا يزال لأبي طالب أشباه وأمثال إلى يوم القيامة.

---

(1) صحيح البخاري.
(2) صحيح البخاري.

وإلى ذلك الخلق المرذول - وهو التواني عن اغتنام الخير - أشار النبي صلى الله عليه وسلم محذرًا حين قال صلى الله عليه وسلم :{**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**} (1).

فلقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم المبادرة إلى الخير مثبتًا للإنسان في الإيمان دارئًا عنه فتنًا كقطع الليل المظلم.

وحذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك الخلق أيضًا حين قال:{**بادروا بالأعمال سبعًا ، هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا، أو غنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا أو موتًا مجهزًا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر**} (2).

فلقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن التواني عن الخير وعدم المسارعة فيه من شأنه أن يعرض الإنسان لواحدة من هاتيك المدهيات المهلكات.

أسوأ من المتواني عن الخير

وأسوأ من خلق المتقاعس عن الخير المتواني عن اغتنامه خلق المسارع في الشر الساعي إليه فكما أن للخير مسارعين فيه فإن للشر كذلك.

قال تعالى:{وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾} [المائدة: ٦٢].

التفسير: قوله تعالى:{وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ} يعني من اليهود{يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ} أي يسابقون في المعاصي والظلم{وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ} (3).

لقد كانت المسارعة في الإثم ولازالت وستظل لليهود منها النصيب الأكبر

---

(1) رواه مسلم.

(2) رواه الترمذي.

(3) تفسير القرطبي.

والحظ الأوفر تشهد بذلك مواقفهم الخالية والحالية، اخترت من مواقفهم الخالية التي تشهد لهم بذلك الخلق المشين موقفهم قبيل وإبان غزوة الخندق، فلقد كانوا هم الذين أوقدوا نارها، وسارعوا في إذكاء عداوة الكفار للمسلمين، وحرضوا على حربهم، فقد كان سبب الغزوة أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين على المسلمين يوم أحد، وعلموا بميعاد أبي سفيان لغزو المسلمين فخرج لذلك ثم رجع للعام المقبل خرج أشرافهم كسلام بن أبي الحقيق وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع وغيرهم إلى قريش بمكة يحرضونهم على غزو رسول الله صلى الله عليه وسلم ويوالونهم عليه ووعدهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم، ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلى ذلك فاستجاب لهم من استجاب، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته والمسلمين.

فخرجت قريش وقائدهم أبو سفيان في أربعة آلاف ووفاهم بنوسليم بمر الظهران وخرجت بنو أسد وفزارة وأشجع وبنو مرة وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن، وكان من وافى الخندق من الكفار عشرة آلاف [1].

كان هذا هو دور اليهود القبيح قبيل الغزوة، أما دورهم إبانها فكان أقبح منه وأنذل إذ انطلق حيي بن أخطب إلى بني قريظة فدنا من حصنهم، فأبى كعب بن أسد أن يفتح له فلم يزل يكلمه حتى فتح له فلما دخل عليه قال: لقد جئتك بعز الدهر جئتك بقريش وغطفان وأسد على قادتها لحرب محمد قال له كعب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد أراق ماءه، فهو يرعد ويبرق، فلم يزل به حتى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل مع المشركين في محاربته فسر بذلك

(1) زاد المعاد، الرحيق المختوم.

المشركون، وشرط كعب على حيي أنه إن لم يظفروا بمحمد أن يجيء حتى يدخل معه في حصنه فيصيبه ما أصابه فأجابه إلى ذلك ووفى له به، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر بني قريظة ونقضهم للعهد، فبعث إليهم السعدين وخوات بن جبير وعبد الله بن رواحة؛ ليعرفوه هل هم على عهدهم أو قد نقضوه، فلما دنوا منهم فوجدوهم على أخبث ما يكون وجاهروهم بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرفوا عنهم، ولحنوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لحنًا يخبرونه أنهم قد نقضوا العهد وغدروا فعظم ذلك على المسلمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك:{**الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين**} [1].

كان ما تقدم هو بعض أمثلة مسارعة اليهود في الإثم أقدموا عليها وعلى غيرها مثبتين لأنفسهم السبق فيما لا يسبق إليه، أما وقد عرضنا لها فلا يفوتنا أن نعرض لبعض جزائهم البالغ السرعة على ذلك السبق المخزي، فبعد أن أجلى الله جل وعلا الأحزاب عن المدينة وفي اليوم الذي رجع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، جاءه جبريل عليه السلام عند الظهر، وهو يغتسل في بيت أم سلمة، فقال: أو قد وضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل في موكبه من الملائكة.

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنًا في الناس:{**من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة**}. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية عليّ بن أبي طالب، وقدمه إلى بني قريظة، فسار عليٌّ حتى إذا دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله (في

---

(1) زاد المعاد.

رسول الله) صلى الله عليه وسلم.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في موكبه من المهاجرين والأنصار، حتى نزل على بئر من آبار قريظة يقال لها: بئر أنا، وبادر المسلمون إلى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، وتحركوا نحو قريظة، وأدركتهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصليها إلا في بني قريظة كما أمرنا، حتى أن رجالاً منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك، وإنما أراد سرعة الخروج، فصلوها في الطريق، فلم يعنف واحدة من الطائفتين.

هكذا تحرك الجيش الإسلامي نحو بني قريظة أرسالاً، حتى تلاحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهم ثلاثة آلاف، والخيل ثلاثون فرسًا، فنازلوا حصون بني قريظة، وفرضوا عليهم الحصار.

ولما اشتد الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال: إما أن يسلموا، ويدخلوا مع محمد صلى الله عليه وسلم في دينه، فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم - وقد قال لهم: والله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم - وإما أن يقتلوا ذراريهم ونساءهم بأيديهم، ويخرجوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالسيوف مصلتين، يناجزونه حتى يظفروا بهم، أو يقتلوا عن آخرهم، وإما أن يهجموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ويكسبوهم يوم السبت؛ لأنهم قد آمنوا أن يقاتلونهم فيه، فأبوا أن يجيبوه إلى واحدة من هذه الخصال الثلاث، ولم يبق لقريظة بعد رد هذه الخصال الثلاث إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنهم أرادوا أن يتصلوا ببعض حلفائهم من المسلمين، لعلهم يتعرفون ماذا سيحل بهم إذا نزلوا على حكمه، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أرسل إلينا أبا لبابة نستشيره، وكان حليفًا لهم، وكانت أمواله وولده في منطقتهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرق

لهم، وقالوا: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم! وأشار بيده إلى حلقه، يقول إنه الذبح، ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله فمضى على وجهه، ولم يرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أتى المسجد النبوي بالمدينة، فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف أن لا يحله إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، وأنه لا يدخل أرض بني قريظة أبدًا. فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره - وكان قد استبطأه - قال: أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، أما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله إليه.

وبرغم ما أشار إليه أبو لبابة قررت قريظة النزول على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقد كان باستطاعة اليهود أن يتحملوا الحصار الطويل؛ لتوفر المواد الغذائية والمياه والآبار ومناعة الحصون، ولأن المسلمين كانوا يقاسون البرد القارس والجوع الشديد وهم في العراء، مع شدة التعب الذي اعتراهم؛ لمواصلة الأعمال الحربية من قبل بداية معركة الأحزاب، إلا أن حرب قريظة كانت حرب أعصاب، فقد قذف الله في قلوبهم الرعب، وأخذت معنوياتهم تنهار، وبلغ هذا الانهيار إلى نهايته أن تقدم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وصاح عليٌّ: يا كتيبة الإيمان، والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم.

وحينئذ بادروا إلى النزول على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتقال الرجال، فوضعت القيود في أيديهم تحت إشراف محمد بن مسلمة الأنصاري، وجعلت النساء والذراري بمعزل عن الرجال في ناحية، وقامت الأوس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله، قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت، وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا، فأحسن فيهم، فقال: ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى. قال: فذاك إلى سعد بن معاذ. قالوا: قد رضينا.

فأرسل إلى سعد بن معاذ، وكان في المدينة، ولم يخرج معهم، للجرح الذي أصاب أكحله في معركة الأحزاب، فأركب حمارًا، وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلوا يقولون وهم كنيفه: يا سعد، أجمل في مواليك فأحسن فيهم، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حكمك لتحسن فيهم، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئًا، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألاّ تأخذه في الله لومة لائم، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعى إليهم القوم.

ولما انتهى سعد إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال للصحابة:**{قوموا إلى سيدكم}**. فلما أنزلوه قالوا: يا سعد، إن هؤلاء القوم نزلوا على حكمك. قال: وحكمي نافذ عليهم؟ قالوا: نعم. قال: وعلى المسلمين؟ قالوا: نعم. قال وعلى من ههنا؟ - وأعرض بوجهه، وأشار إلى ناحية رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالاً له وتعظيمًا - قال: نعم وعليَّ. قال: فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات}**.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحبست بني قريظة في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، وحفرت لهم خنادق في سوق المدينة، ثم أمر بهم فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالاً أرسالاً وتضرب في تلك الخنادق أعناقهم. فقال من كان بعد في الحبس لرئيسهم كعب بن أسد: ما تراه يصنع بنا؟ فقال: أفي كل موطن لا تعقلون أما ترون الداعي لا ينزع؟ والذاهب منكم لا يرجع؟هو والله القتل. وكانوا ما بين الستمائة والسبعمائة فضربت أعناقهم وقتل مع هؤلاء شيطان بنى النضير، وأحد أكابر مجرمي معركة الأحزاب حيي بن أخطب [1] الذي كان أول المسارعين في تحريض اليهود على نقض عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(1) الرحيق المختوم.

لقد كان جزاء المسارعين في الشر والإثم والعدوان جزاءً وفاقًا على قدر مسارعتهم فيه وابتدارهم له، فما أنصف تلك المحاكمة التي حوكموا فيها، وما أعدل قاضيها، وما أنصف حكمه عليهم بالإعدام على ما اقترفوه من جرائم، فلقد سارعوا في الإثم ظانين في أنفسهم الذكاء والنجابة، مثبتين لها السبق والتفرد، فانقلب مكرهم على أنفسهم، وذاقوا وبال أمرهم وكان عاقبتة عليهم خسرًا.

هذا وإحقاقًا للحق أن هذا الخلق المرذول وإن كان لليهود منه نصيب الأسد إلا أن هناك من الناس من لم يحرم منه يؤيد ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : {**إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه**} [1].

احذر أن تكون منهم

فاحذر أن تكون من ذلك الصنف السيئ من الناس الذي يسارع ويفتح باب الشر وكأنما سيحرز فوزًا أو سيحقق نصرًا، فهذا الصنف من الناس ما أشد بغض الناس لهم وابتعادهم عنهم، فذلك هو أول ما يحرزونه ويفوزون به، وقد يفوت ذلك المسارع إلى الشر أنه بفتح باب الشر الذي إن انفتح أخذه أولاً في طريقه إلى الهلكة والثبور.

الظان بنفسه ما ليس فيها

أما النموذج الرابع معنا في هذا المبحث فهو لأناس أكثر خسرانًا من أبي طالب وأمثاله، وأكثر حزنًا في الآخرة من المسارعين في الإثم؛ لأنهم ظنوا بأنفسهم ما ليس فيهم وحسبوا أنهمَ يحسنون صنعًا قال تعالى:{وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾} [الأحقاف: ١١].

التفسير:

---

(1) أخرجه ابن ماجة.

وقوله تعالى:{وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ} أي قالوا عن المؤمنين بالقرآن لو كان القرآن خيرًا ما سبقنا هؤلاء إليه يعنون بلالاً وعمارًا وصهيبًا وخبابًا رضى الله عنهم وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية. وقد غلطوا في ذلك غلطًا فاحشًا وأخطأوا خطأ بينًا كما قال تبارك وتعالى:{وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ} [الأنعام: ٥٣] أي: يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا ولهذا قالوا{لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ} وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضى الله عنهم : هو بدعة لأنه لو كان خيرًا لسبقونا إليه لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها. وقوله تعالى{وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ} أي بالقرآن:{فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ} أي كذب قديم أي مأثور عن الناس الأقدمين فينتقصون القرآن وأهله وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**بطر الحق وغمط الناس**} [1].

لقد ظن الكفار بأنفسهم السبق والتفرد وهم على خلاف ذلك إذ قالوا لو أن هذا القرآن خير وحق ما سبقنا إليه هؤلاء المستضعفين من المسلمين، فوقعوا بذلك الظن السيئ في كبيرتين من أعظم الكبائر: أولهما كانت الكبر، فتكبروا عن أن يتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه صهيب وبلال وعمار وهم السابقون الأولون حقًا. وثانيهما ما لا كبيرة بعدها وهي الكفر إذ ليس بعده ذنب، وكل ذلك نالهم من جراء أنهم ظنوا بأنفسهم ما ليس فيهم، حين اعتقدوا أنهم أهل سبق وهم على غير ذلك، فهم ليسوا أهل سبق وتلك حقيقة قائمة إلى قيام الساعة يقررها الله جل وعلا إذ يقول الله تعالى{ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾} [الأنفال: ٥٩].

وإنما هم أهل مكابرة وعناد وحسد، ومن كان على تلك الأخلاق المرذولة

(1) تفسير ابن كثير.

فإنه لا يسبق ولا يتقدم ولا يسود.

كان هذا المبحث عرضًا لأخلاق أنواع متباينة من الناس منهم المسارع إلى الخير مقتنصه، والمتواني عن طلبه تاركه، والمسارع في الشر داعيه، والظان في نفسه السبق وهو على غير ذلك، ترى فمن أي تلك النماذج أنا وأنت؟

* * *

قال أبشرتموني على أن مسني
الكبر فبم تبشرون

القرآن خُلقًا

قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ

قال تعالى:

{ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾} [الحجر: ٥١ - ٥٦].

التفسير:

يقول تعالى: وأخبرهم يا محمد عن قصة ضيف إبراهيم، والضيف يطلق على الواحد والجمع، وكيف دخلوا عليه فقالوا سلامًا{قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ } أي خائفون، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة وهوالعجل السمين الحنيذ{ قَالُوا لَا تَوْجَلْ } أي لا تخف{إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ } أي إسحاق عليه السلام. ثم{ قَالَ } متعجبًا من كبره وكبر زوجته ومتحققًا للوعد:{أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ } فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقًا وبشارة{ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ } فأجابهم بأنه ليس يقنط ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك [1].

تبدأ الآيات الكريمات بأمر من الله سبحانه للنبي صلى الله عليه وسلم بأن ينبئ عباد الله عن ضيف إبراهيم، أولئك الملائكة المكرمون الذين دخلوا عليه وهو لا يعرفهم، وكانوا في صورة رجال، فقالوا سلامًا فرد إبراهيم عليه السلام{سَلَامٌ} ولم تسرد القصة كلها في آيات سورة الحجر بأنه عليه السلام أكرمهم وقدم لهم عجلاً سمينًا حينئذ، فلم يمدوا إليه أيديهم، وعندئذ أوجس منهم خيفة ووجل منهم، وأخبرهم بأنه وجل خائف منهم، فطمأنوه

---

(1) تفسير ابن كثير.

وقالوا لا توجل إننا لم نأت إليك بمكروه يقلقك ويخيفك، ولكن جئناك بما يسرك ويفرحك أتيناك ببشارة من الله لك بأنك سترزق بغلام عليم. ما أعظمها من بشارة إذا ما بشر بها أي إنسان بوجه عام وهى أعظم عند الخليل عليه السلام بصفة خاصة؛ وذلك لأنه عليه السلام كان وقتئذ شيخًا كبيرًا، ولطالما تمنى مذ كان شابًا أن يرزقه الله جل وعلا بغلام ودعا الله أن يحقق له ما تمناه.

{رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾} [الصافات: ١٠٠] وها هوعليه السلام وبعد مرور السنين تأتيه البشرى باستجابة دعائه وتحقق رجائه، وإذا ما جئنا للننظر للبشرى التي حملها لإبراهيم عليه السلام عباد الله المكرمون بعين التدبر نجدها مكونة من كلمتين أولهما كلمة **(غلام)** أي ليس جارية وإنما غلام ذكر، ومما يعلم من طباع الناس أن جلهم يفضلون الذكورعن الإناث؛ لما يتميزون به من القوة والجلد، أما الكلمة الثانية من البشرى هي كلمة **(عليم)** ولا يوصف الغلام بأنه عليم، وإنما يعني ذلك أن الغلام سيصير إلى مرتبة أن يكون عليمًا [(1)]، فهي بشارة داخل بشارة على أن هذا الغلام سيولد ويكبر ويصبح عالمًا عليمًا ينتفع الناس بعلمه.

ولكن هذه البشرى العظيمة والتي حملها لإبراهيم عليه السلام عباد الله المكرمون، بل والموقف التي قيلت فيه كان موقفًا عصيبًا موقف خوف وقلق ووجل لما يتوقع من المكاره يتحول بكلمات قصيرة إلى موقف للطمأنينة والأمن والسرور لما يتوقع من المأمول.

وبرغم كل هذا يأتي رد الخليل عليه السلام على غيرالمتوقع، فيعجب ويتساءل أيكون له ولد وهو في هذه السن الكبيرة، وهو الذي لم يرزق بالولد في أيام شبابه وقوته هو وزوجه فكيف بهما الآن وهذا الولد وقد أصبحا في سن لا يرتجى فيها أن يرزقا به؟! ويستنبئ الملائكة عن صدق

(1) تفسير الشعراوي.

هذه البشرى مستبعدًا حدوثها مريدًا منهم أن يؤكدوها له إن كانت حقًا{ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ }، ويأتي رد الملائكة مؤكدين لإبراهيم عليه السلام بأنها بشرى من الله عز وجل، وإنها لحق ولا يحق له وهوالخليل أن يقنط من عطاء الله ورحمته{ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾} وقد ذكر القرطبي - رحمه الله - في تفسيرتلك الآيات أن{فَبِمَ تُبَشِّرُونَ } استفهام تعجب، وقيل: استفهام حقيقي؛ لأن الخليل عليه السلام كان آيس من الولد لفرط الكبر واستبعده لكبر سنه لا أنه قنط من رحمة الله ".

وبعد أن أكدت الملائكة عليهم السلام لإبراهيم عليه السلام صدق البشرى، وتأكد أنها حق تذكر أن أهل الإيمان هم أهل الأمل الدائم والنظرة المشرقة، أما الذين يقنطون من رحمة الله فأولئك هم الضالون المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب، وحاشاه عليه السلام وهو خليل الرحمن أن يكون منهم{وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾}.

وعندما تأكد من تحقق تلك البشرى فما من شك أنه فرح فرحًا عظيمًا بعظم تلك البشرى، وعظيم حاجته إليها، وحمد الله حمدًا يليق بنعمته ومنته عليه.

لقد بشر الخليل عليه السلام بالولد بعد أن مسه الكبر هو وزوجه، ولكن مَنْ مِنَ الناس قد أعطاه الله ذرية كذرية الخليل تلك التي تأخرت طويلاً؟ مَنْ مِنَ الناس له أبناء وأحفاد كأبناء وأحفاد إبراهيم عليه السلام إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وموسى... ومحمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين؟ أعظم بها من ذرية، وأنعم بهم من أبناء وحفدة.

{وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾} [العنكبوت: ٢٧]، فما من نبي أرسله الله من بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من ذريته عليهم جميعًا السلام، فلقد أعطي إبراهيم ذرية في وقت يعد عند الناس مستحيلاً للخلف

والذرية، ولكنها كانت ذرية فاقت ذرية كل الناس، وانتفع بها كل الناس، وود أن ينتسب إليها كل الناس؛ ذلك لنتعلم أن الخير هو الخير متى جاء وحيثما حل، ولنتعلم ألا نيأس أبدًا، وألا نقول إن هذا الأمرقد فات أوانه أوهذا الشيء تأخر كثيرًا، ولو أنه قدر لي أن أحصل عليه قبل ذلك لكان ذلك خيرًا أما الأن فقد فات الأوان، هذا وتوحي هذه القصة العظيمة بمعاني الإشراق والأمل وتذكرنا أن الخير قد يحدث في أي وقت وأن ليس للخير وقت معلوم أو محدد، وإنما كل وقت هو وقته.

وإذا ما التمسنا خيط الأمل الدائم وما يمثله من خلق في موضع ثان في القرآن الكريم نثبته في هذا المقام، نجد قول الله تعالى الصريح الواضح الذي يفسح باب الأمل أمام كل راغب{ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ} [هود: ١١٤].

فمادامت الحسنات يذهبن السيئات فقد حسم الله القضية لصالح المؤمن الخطاء التواب الآمل دائمًا في عفوه وغفرانه سبحانه، ومن كلامه سبحانه أيضًا الذي يفتح باب الأمل على مصراعيه أمام كل العباد، والذي هو أكبر رحمة، وأوسع تأميلاً للناس، وإبعادًا لليأس والقنوط عن قلوبهم قوله تعالى: {قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣} [الزمر: ٥٣] فباب الأوبة إلى الله مفتوح دائمًا مهما كان قدر الذنوب ومقدارها.

الأمل الدائم خلقا كريمًا من أخلاق المصطفى

وإذا ما بحثنا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك الخيط العريض الواضح من الأمل الدائم في القرآن الكريم إلا ووجدناه كذلك خيطًا عريضًا واضحًا في حياته المباركة، وخلقًا كريمًا من أهم أخلاقه صلى الله عليه وسلم قام به فعلاً ودعا إليه قولاً.

أما الفعل فقد روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فاتته الصلاة - أي قيام الليل - من وجع

أوغيره صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة [1].

فالنبي صلى الله عليه وسلم يستدرك ما فاته قدر ما مكنه الله بحانه وقدر له، ولا بأس من أن يصلى بدلاً من صلاة الليل التي فاتته صلاة طويلة في النهار تعد ركعاتها عائشة رضي الله عنها ، وتخبر أنها اثنتي عشرة ركعة، ليجبر بهن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان من نقص في صلاة الليل من وجع أو غيره، فما من عمل يمكن تداركه إلا وتداركه النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليبين لأمته مبدأنا السابق أن الخير هو الخير أينما جاء ووقتما حل، فما دمت حيًا يمكنك أن تعوض ما فاتك.

وأما ما دعا إليه قولاً، فعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:**{من نام عن حزبه أو عن شيء منه، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له كأنما قرأه من الليل}** [2] وهو القائل صلى الله عليه وسلم :**{إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليفعل}** [3].

إن الإصرار على تحقيق الخير وابتداره حتى آخر نفس من أنفاس الحياة الدنيا أمر واجب مأمور به كل مسلم كما ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بل إن الخير يحكمه قانون الاستطراد فلا يقتصر تقديمه على من يجب معهم من أهل الفضل فحسب بل، ويجب كذلك حتى مع ذويهم، فإنه يستطرد حتى ينالهم دارئًا عن مقدمه أثر ذنوب عظيمة أن تحيق به، والشاهد المؤيد على ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: يا رسول الله، إني أذنبت ذنبًا عظيمًا فهل لي من توبة؟ فقال

(1) رواه مسلم.
(2) رواه مسلم.
(3) رواه البخاري.

رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:**{ألك والدة}**، وفي رواية ابن قتادة:**{أما لك والدة}** قال: لا. قال:**{ألك خالة}** قال: نعم. قال:**{فبرها}** [1]. فالخير مستطرد وممتد والخالة في الإسلام بمنزلة الأم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم؛ وعليه فإن بر الخالة في عدم وجود الأم أو في وجودها هو بر للأم.

هذا ويؤكد النبي صلى الله عليه وسلم على أن أبواب الخير مفتوحة للداخلين والراغبين في الدخول حتى الرمق الأخيرمن حياة كل إنسان يقول صلى الله عليه وسلم :**{إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر}** [2]، ففي استطاعة كل إنسان أن يركب قطار التوبة، ويحصل مغفرة الله حتى في لحظة الاحتضار، فلا تيأسن أيها الإنسان من رحمة الله عز وجل الرحمن الرحيم.

الأمل الدائم سجية في نفوس المؤمنين

ولعمر بن الخطاب رضى الله عنه كلام جميل يحمل نفس المعنى قال رضى الله عنه يعظ رجلاً: "... وإذا أسأت فأحسن فإني لا أرى شيئًا أشد طلبًا ولا أسرع دركة من حسنة حديثة لذنب قديم " [3].

ولعلي بن أبي طالب رضى الله عنه، وكرم الله وجهه - قول يوافق قول الفاروق إذ يقول رضوان الله عليه: ".. ولا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين: رجل أذنب ذنبًا فهو تدارك ذلك بتوبته، أو رجل يسارع في الخيرات، ولا يقل عمل في تقوى وكيف يقل ما يتقبل " [4].

لأن خلق الأمل وعدم اليأس من رحمة الله سجية في نفوس المؤمنين وفطرة فطرهم الله عليها ووصفهم بها في كتابه العزيز قال جل

---

(1) رواه الترمذي وابن حبان والحاكم والبيهقي.
(2) رواه الترمذي.
(3) حياة الصحابة.
(4) حياة الصحابة.

وعلا:{أَفَلَمْ يَاْيْـَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا} [الرعد: ٣١] فقلوب المؤمنين دائمًا مملوءة بالأمل، وراغبة في كل خير لا تعرف اليأس أو القنوط، ويؤكد النبي صلى الله عليه وسلم على تلك الحقيقة بقوله:**{لن يشبع مؤمن من خير حتى يكون منتهاه الجنة}** (1).

وكيف ييأس المؤمنون وهم يعلمون أن باب الخير والرحمة مفتوح المصراعين على طول الحياة ليلاً ونهارًا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :**{إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها}** (2) وكيف ييأس المؤمنون وقد انتهوا حين نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن استصغار الخير حين قال:**{لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق}** (3).

وحين قال:**{يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة جارتها ولو فرسن شاة}** (4) فمهما كان قدر الخير يظل كبيرًا، ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم معظمًا قيمة الخير أيا كان قدره:**{لو دعيت إلى كراع أو ذراع لأجبت، ولو أهدي إليَّ ذراع أو كراع لقبلت}** (5).

ومن كل ما تقدم يتأكد لنا أن الله سبحانه ما جعل لليأس إلى قلوب المؤمنين من سبيل، فيا من تؤجل الخير أو تستبعده بدعوى أنه قد مر وقته نذكرك بذرية أعطاها الخليل في الوقت المستحيل بعد أن مسه الكبر، فكانت أعظم من كل ما أعطاه بني آدم من ذرية إلى أن تقوم الساعة، ذرية حملت البركة والخير للأرض إلى ما شاء الله، ونذكرك بأحوال وأقوال للنبي صلى الله عليه وسلم كلها تصر على الخير مادام الإنسان

---

(1) رواه الترمذي.
(2) رواه مسلم.
(3) رواه مسلم.
(4) متفق عليه.
(5) رواه البخاري.

حيًا، وما دامت السماوات والأرض، فيا ملتمس الخير وطالبه فإنك لكي تجده وتحققه لا تحمل لافتة [فات الأوان ولم يعد الوقت مناسبًا] بل اضرب بها عرض الحائط غير ملتفت إليها، ولتغرس في قلبك بدلاً منها شجرة عظيمة تحمل اسم{فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ } اشدد عليها بكلتي يديك واجعلها نصب عينيك وتذكر بها دائمًا أن الخير هو الخير متى جاء، وحيثما حل وقدر ما كان مقداره متأسيًا في ذلك بمن جعلهم الله للناس أسوة.

إن كنت مكتئبًا لعز قد مضى ::: هيهات يرجعه إليك تندم
أو كنت جاوزت الشباب فلا تقل ::: شاخ الزمان فإنه لا يهرم
أنظر فما زالت تطل من الثرى ::: صورًا تكاد لحسنها تتكلم

* * *

إذ حضر يعقوب الموت

القرآن خُلقًا

إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ

قال تعالى:

{أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾} [البقرة: ١٣٣].

التفسير:

يقول تعالى محتجًا على المشركين من العرب أبناء إسماعيل وعلى الكفار من بني إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له فقال لهم:{مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ} وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه. قال النحاس والعرب تسمي العم أبًا، وقوله:{إِلَٰهًا وَٰحِدًا} أي: نوحده بالألوهية ولا نشرك به شيئًا غيره:{وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ} أي: مطيعون خاضعون كما قال تعالى:{وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾} [آل عمران: ٨٣] والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم كما قال تعالى:{وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾} [الأنبياء: ٢٥] والآيات في هذا كثيرة والأحاديث فمنها قوله صلى الله عليه وسلم :**{نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد}** (1).

إن يعقوب عليه السلام حينما جاءه الموت وحضره أجله جمع بنيه وأوصاهم، والوصية عادة تقضي بالحمل على شيء نافع في آخر وقت لك في الدنيا، وهي عظة من تحب بالاستمساك بما تحب في آخر لحظة من لحظات حياتك، ولحظة الموت هي اللحظة التي لا يتبقى فيها شيء

(1) تفسير ابن كثير.

من فتنة الدنيا، لا يبقى إلا الله الحق، فأراد يعقوب عليه السلام أن يعطي أبناءه خلاصة مبادئه في الحياة فكانت تلك الخلاصة وصية جاءت في صورة سؤال ما تعبدون من بعدي؟ [1].

يبدو يعقوب عليه السلام حينما حضره أجله مطمئنًا يستقبل الموت بنفس راضية مطمئنة غير جزعة ولا فزعة ولا خائفة أو وجلة، ولكنه عليه السلام بأريحية وهدوء شديدين يسأل بنيه سؤالاً بالأحرى لا يخصه هو، وإنما يخصهم هم فهو عليه السلام قد عبد الله سبحانه حتى آتاه اليقين، وهو الآن يعالج سكراته مطمئنًا هادئ البال ويريد ليكمل اطمئنان نفسه بالاطمئنان على بنيه، فيسألهم عن معبودهم وعبادتهم، ويجيبه بنوه الصالحون إجابة شافية له من كل خوف وقلق عليهم إجابة رباهم عليها طيلة حياته، وعند موته لم يكن يرجو منهم غيرها يا أبت إن الله ربنا والإسلام ديننا، ولن نتحول عما كنت تعبد وتدين، كما لم تتحول أنت عنه حتى آخر رمق لك في هذه الحياة، فلن نموت إلا ونحن على مثل ما أنت عليه إلا ونحن مسلمون. فتكتمل ليعقوب عليه السلام طمأنينة نفسه بجواب أبنائه فلا خوف عليهم بعد تلك الإجابة ولا حزن، ويرحل عليه السلام قريرالعين مرتاح الفؤاد هادئ البال.

كيف كان حاله صلى الله عليه وسلم **إذ حضره الموت**

وإذا ما سرنا على نفس ذا الطريق طريق الطمأنينة لحظة الموت متمسكين بذلك الخلق الكريم نفسه؛ لنرى كيف كانت وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف كان حاله إذ جاءه الموت، فداك روحي وأبي وأمي يا رسول الله صلى الله عليك وعلى آلك سلم.

ولنا من نبينا في لحظة الموت عبرة ::: تهز شغاف القلب ولها يذوب
تذكر كل ذي لب وتنبئ ::: بأن الدنيا ليس لها حبيب

---

(1) تفسير الشعراوي.

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم لحظة موته بأقل من يعقوب عليه السلام اطمئنانًا وهدوءًا وثباتًا وأمنًا، والدليل على ذلك ما روي عنه في آخر يوم من أيام حياته صلى الله عليه وسلم، فقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه أن المسلمين بينا هم في صلاة الفجر يوم الاثنين - وأبو بكر يصلي بهم لم يفجأهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم كشف ستر حجرة عائشة فنظر إليهم، وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه؛ ليصل الصف، وظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يخرج إلى الصلاة. فقال أنس: وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم، فرحًا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأشار إليهم بيده رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر [(1)]

ثم لم يأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت صلاة أخرى.

ولما ارتفع الضحى، دعا النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة فسارها بشيء فبكت. ثم دعاها فسارها بشيء فضحكت، قالت عائشة، فسألنا عن ذلك - أي فيما بعد - فقالت: سارني النبي صلى الله عليه وسلم أول مرة، فأخبرني أنه يقبض في مرضه، فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله لحوقًا به، فضحكت[(2)]، وبشر النبي صلى الله عليه وسلم فاطمة بأنها سيدة نساء العالمين.

ورأت فاطمة ما برسول الله صلى الله عليه وسلم من الكرب الشديد الذي يتغشاه، فقالت: واكرباه. فقال لها:**{ليس على أبيك كرب بعد اليوم}** [(3)]، ودعا الحسن والحسين فقبلهما، وأوصى بهما خيرًا، ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن، وطفق الوجع يشتد ويزيد، وقد ظهر أثر السم الذي

(1) صحيح البخاري.
(2) صحيح البخاري.
(3) صحيح البخاري.

أكله بخيبر حتى كان يقول:{**يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم**} [1] وأوصى الناس فقال:{**الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم**} وكرر ذلك مرارًا [2].

وبدأ الاحتضار، فأسندته عائشة إليها، وكانت تقول: إن من نعم الله عليَّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته، دخل عبد الرحمن - ابن أبي بكر - وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك فقلت آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته، فاشتد عليه، وقلت: ألينه لك؟ وأشار برأسه أن نعم، فلينته. فأمره - وفي رواية أنه استن بها كأحسن ما كان مستنًا - وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه، يقول:{**لا إله إلا الله، إن للموت سكرات...**} [3] الحديث، وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يديه أو إصبعه، وشخص بصره نحو السقف، وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة وهو يقول:{مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ} [النساء: ٦٩]، **اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى**} [4]. كرر الكلمة الأخيرة ثلاثًا، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى. إنا لله وإنا إليه راجعون [5].

أرأيت أحدًا حضره الموت وهو يعلم أنه الموت ثم يحيا تلك اللحظات مطمئنًا هادئًا تغشاه السكينة ويحوطه الأمن؟! أرأيت أحدًا ساعة الموت آمنًا مطمئنًا كالنبي صلى الله عليه وسلم قد فاض أمنه واطمئنانه فأفاضه

(1) صحيح البخاري.
(2) صحيح البخاري.
(3) صحيح البخاري.
(4) صحيح البخاري.
(5) عن كتاب الرحيق المختوم وهامشه.

على من حوله؟! فها هو النبي صلى الله عليه وسلم ينبئ فاطمة الزهراء رضى الله عنها بنبأ موته بكل هدوء واطمئنان، ويخبرها بأنها أول أهل بيته لحوقًا به، ويبشرها بأنها سيدة نساء العالمين مستثنيًا من ذلك مريم ابنة عمران، ويصبرها حينما يرى حزنها عليه وجزعها فيقول:**{لا كرب على أبيك بعد اليوم}** نافيًا عن نفسها كل أسى، باثًا فيها عزاءً وصبرًا واطمئنانًا فهي بضعة منه كما قال صلى الله عليه وسلم :**{فاطمة بضعة مني}**، ثم يدعو حفيديه فيقبلهما، ويوصي بهما خيرًا، ويعظ أزواجه، ويذكرهن بالله ثم يوصي الناس بالصلاة مكررًا الوصية، ويلتفت إلى زوجته الحبيبة أحب الناس إليه عائشة التي أسندته إلى صدرها فيقبلها القبلة الأخيرة، ولحظات ويعوده عائد، إنه عبد الرحمن بن أبي بكر، وينظر النبي صلى الله عليه وسلم للسواك في يد عائده طالبًا له ليستاك به، وتأخذه سكرات الموت، فيدخل يده الشريفة في إناء الماء، ويمسح وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم، وينطق الكلمة التي من أجلها أرسله الله تعالى إنها لا إله إلا الله، ويقر بما للموت من سكرات لم يعف منها صلى الله عليه وسلم، ويفرغ النبي من السواك، ومن كل ما يشغله من أمر الدنيا، وها هو قد استعد للرحيل فيرفع يده داعيًا مختارًا للرفاق بعد الموت، وهم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، ويشخص ببصره نحو السقف أو بالأحرى نحو السماء نحو العلو والسمو مكملاً كلامه، داعيًا لنفسه بالمغفرة والرحمة واللحاق بالرفيق الأعلى مكررًا ذلك مصرًا عليه.

فهل رأيت أحدًا حضره الموت ففعل كل ذلك قبيل موته وساعة موته وهو مطمئن هادئ البال ثابت الجأش كالنبي صلى الله عليه وسلم؟!

وإذا ما جئنا لنعد ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حينما حضره الموت نقول: إنه صلى الله عليه وسلم أخبر ونبأ واستثنى وبشر وصبر ونادى ودعا ووعظ وذكر وأوصى وقبل واستاك ومسح وجهه وشهد وأقر

واختار ودعا، كل ذلك قام به النبي صلى الله عليه وسلم ساعة موته، وما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليفعل كل ذا إلا لما سكن في نفسه من اطمئنان وسكينة.

فانظر إلى تلك النفس المطمئنة إلى لحظة الموت مطمئنة حتى بالموت مطمئنة محبيها :{**لا كرب على أبيك بعد اليوم**}.

وأي كرب عساه أن ينالك يا رسول الله صلى الله عليك وسلم، وقد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وكشف الله تعالى بك الغمة؟!

وأي كرب ومن أين عساه قد يأتيك، وقد وفيت وأكملت وأتممت؟! أي كرب وقد قمت في جميع وكل ما أمرت به فكنت أول من قام وأفضل من قام، والحمد لله رب العالمين فأي كرب عساه أن يقترب من جنابك يا رسول الله؟!

حقًا، لا كرب عليك بعد ذاك اليوم لاكرب صلى الله عليك وعلى آلك وصحبك وسلم، ولتذهب للقاء الذي قد استعددت وتهيأت له مطمئنًا هادئًا؛ لتكون لنا معلمًا حتى لحظة الموت نتعلم منك فيها كيف يكون الاطمئنان ساعة اللقاء، كيف يكون الاطمئنان بالموت؟

على محمد صلاة الأبرار ::: صلى عليك المصطفون الأخيار

قد كنت قوامًا بكى الأسحار ::: يا ليت شعري والمنايا أطوار

هل تجمعني وحبيبي الدار

كان هذا حال النبي صلى الله عليه وسلم إذ حضره الموت، وكان ذاك هو اطمئنانه بالموت الذي فاق اطمئنان الأولين والآخرين إذ كان ذلك الاطمئنان خلقًا أصيلاً من أخلاقه صلى الله عليه وسلم طيلة حياته، وظل معه إلى أن فارق الحياة الدنيا.

لحظة موت ثاني الراشدين

وإذا ما سجلنا لحظة موت ثاني الخلفاء الراشدين - عمر بن الخطاب الذي إنما ذهب - رحمه الله - شهيد مؤامرة من أعداء الدولة الإسلامية نجد أنه يوم قتل قد خرج قبيل الفجر يوقظ الناس، ثم يسوي الصفوف للصلاة فلم يكد يؤم الناس حتى فاجأه القاتل بطعنتين إحداهما في كتفه، والأخرى في خاصرته، وقيل ثلاث طعنات إحداهن تحت السرة وقد خرقت الصفاقين قضى بها نحبه - رحمه الله - وقيل بل ست طعنات منها تلك الطعنة القاتلة.

فلم تشغله هذه الطعنات المفاجئات عن الصلاة، ولم يفكر أن يشغل المسلمين بمقتله عن أداء فريضتهم في موعدها، وسأل عن عبد الرحمن ابن عوف ليصلي بالناس، ثم جعل يغمى عليه ولا ينتبه إذا دعوه، حتى قال بعض عارفيه: إنكم لن تفزعوه بشيء مثل الصلاة إن كانت به حياة، فنودي: الصلاة.. الصلاة! فلما سمع النداء فتح عينيه وفاه بكلمات متقطعات:{**الصلاة!ها.. الله.. إذن..**} ثم قال: لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة.

ولم يهمه من قتله بعد أن حمل إلى منزله إلا أن يعرف ألمظلمة كان قتله أم لبغي من القاتل؟

فلما علم أنه أبو لؤلؤة قال: ولم قاتله الله وقد أمرت به معروفًا؟

ثم حمد الله قائلاً: " الحمد لله الذي لم يجعل قاتلي يحاجني عند الله بسجدة سجدها له قط، ما كانت العرب لتقتلني ".

وهمه بعد ذلك أن يلقى حسابه عند الناس وهو وشيك أن يلقى حسابه عند الله، فأمر ابن عباس أن يخرج إلى المهاجرين والأنصار يسألهم: أعن ملإٍ منكم ومشورة هذا الذي أصابني؟ فصاحوا معلنين: " لا والله، ولوددنا أن الله زاد في عمره من أعمارنا ".

واشتد البكاء كأن الناس لم يصابوا بمصيبة قبلها، فنهاهم أن يبكوا عليه، ثم سقوه نقيع التمر فخرج من الجرح أحمر كما هو، فلم يعرفوا أدم هو أم النقيع خرج بلونه، فسقوه اللبن فخرج أبيض يشوبه صديد، فأشار عليه الطبيب أن يعهد، فقال: " لو قلت غير هذا لكذبتك ".

وكان قد أنكر على الناس أن يجيئوه بالطبيب قبل أن يفرغ من وصاياه: ويحكم أيها الناس، أأنظر في أمر نفسي قبل أن أنظر في أمور المسلمين؟

فلما قال الطبيب مقالته أخذ في تدبير المهم من شؤون الدولة وأولها الخلافة، فجعلها شورى ليستقر بها القرار ما استطيع إقراره، ونجا بأهله منها وهو يقول: "... أما لقد جهدت نفسي، وحرمت أهلي وإن نجوت كفافًا لا وزر ولا أجر إني لسعيد ".

وهو في هذا كله لا يخالف ديدنه من صراحة، ولا يكتم طبيعة أهل الفناء من حب الحياة، ولا يخفي " إن للحياة لنصيبًا من القلب إن للموت لكربة! " ولكنها لم تمنعه قط أن يعطي الحق حيث وجب للموت أو للحياة.

فلما فرغ من شؤون الدولة نظر في أمر دينه فأبى أن يدفن قبل أن يضمن سداده، وأقبل يطمئن إلى مضجعه في جوار صاحبيه وقد فرغ من حقوق الدنيا، فدعا بابنه عبد الله ينطلق إلى عائشة أم المؤمنين ويقرئها منه السلام، ونهاه أن يسميه عندها أمير المؤمنين لأنه ليس اليوم للمؤمنين أميرًا، ثم يستأذنها أن يدفن إلى جوار صاحبيه يعني النبي عليه السلام وخليفته الصديق، ووجدها عبد الله تبكي فسلم عليها واستأذنها فأذنت، وقالت: كنت أريده لنفسي ولأوثرنه به اليوم على نفسي، فلم يكفه هذا حتى يستوثق كل الاستيثاق من رضاها، فعاد يخاطب ابنه: يا عبد الله بن عمر! انظر، فإذا أنا قبضت فاحملوني على سريري ثم قف على الباب، فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لي فأدخلني، وإن ردتني فردني إلى مقابر المسلمين، فإني أخشى أن يكون إذنها لي لمكان السلطان.

وقال شهود دفنه: " فلما حمل فكأن المسلمين لم تصبهم مصيبة إلا

يومئذ " [1].

هذا هو الفاروق وهكذا كان رحيله رضى الله عنه فلقد كان مطعونًا طعنات قاتلة نفذت إلى بطنه، ولكنها لم تنفذ إلى قلبه فتشغله عن أن يسأل هل صلى الناس؟ ثم ينقل إلى بيته قد أنهكته الطعنات وأهلكته، فلا يسأل عن حالته الصحية، ولكن يسأل فيما قتل؟

ألمظلمة أم لبغي؟ ثم يسأل أفعل القاتل ما فعل على علم ومشورة من الناس؟

لأن همه أن يلقى حسابه عند الناس وهو وشيك أن يلقى حسابه عند ربه، وينكر على الناس البكاء عليه، وينكر عليهم أن يحملوه على النظر في أمر نفسه قبل أن ينظر في أمور المسلمين

وبعد أن يؤكد له الطبيب وشيك موته نجده يهتم بتدبير شؤون الدولة وأولها الخلافة، وعندما يفرغ من شؤون دولته يرفض أن يموت وعليه دين فيضمن سداد دينه، وبعد ذلك يفكر في قبره ومدفنه، ويستأذن عائشة في أن يدفن بجوار صاحبيه في حجرتها، ويصر على أن يستوثق تمام الاستيثاق من إذنها، ولا يهمل عمر رضى الله عنه مع شغله الكبيرفي الموقف الخطير الذي هو فيه تفاصيل الموقف الدقيقة، فنراه مراعيًا للبرتوكولات الرسمية كما نسميها اليوم من ألقاب ورتب فينهى ابنه أن يسميه عند عائشة رضى الله عنها أمير المؤمنين لأنه لم يعد اليوم أميرهم.

إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه جعلنا ونحن نقرأ قصة مقتله نشعر وكأن الذي قد قتل شخص غيره أما عمر رضى الله عنه فما زال يقضي حاجاته ويدبر مصالح دولته ويضمن سداد دينه ويبحث عن قبر، وكأن من سيدفن عما قليل في ذاك القبر لم يكن عمر!

---

(1) عبقرية عمر.

يفعل كل ذلك وهو مطمئن هادئ، يفعل كل ذلك مع حبه للحياة واعترافه بنصيبها من قلبه، وكربته من الموت " إن للحياة لنصيبًا من القلب، وإن للموت لكربة "، فكيف حقق عمر تلك المعادلة الصعبة، وحل ذلك اللغز المشكل؟

كيف يحب الحياة ولها نصيب من قلبه ويصاب ويكرب من الموت وبرغم ذلك حينما يحضره ما يكرب منه ما يقطع نصيبه من الدنيا والحياة فيها يتصرف عمر رضى الله عنه كأن بينه وبين الموت أمدًا بعيدًا؟ فأنى له ذلك، وأنى له هذه الطمأنينة في لحظة الموت الشديدة الصعبة، وغمراته وسكراته المدهية المريرة؟

لقد أكد لنا موت عمر رضى الله عنه أن تلك الطمأنينة بالموت لم تكن حكرًا على الأنبياء عليهم صلوات الله وتسليماته، وإنما هي سنة الله في عباده الصالحين، وإذا ما بحثنا عن مصادر الطمأنينة عنده رضى الله عنه فسنجدها كثيرة عديدة بحيث لا يمكن إحصاؤها أو حصرها، وإنما نكتفي بذكر بعضًا منها، وأول ما نذكر أنه رضى الله عنه من المسلمين السابقين إلى الإسلام ومن المهاجرين الأول، وهو أحد صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي مات وهو عنهما راض فقد عاش عمر رضى الله عنه مع النبي صلى الله عليه وسلم فكان عبده وخادمه وجلوازه كما يخبر عمر عن نفسه، ومنذ أن أسلم أعز الله به الإسلام وأهله، وفرق به بين الحق والباطل، وهو ثاني العشرة المبشرين بالجنة، وثاني الخلفاء الراشدين تولى أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم فأصلح وأحسن ورفق ورحم وحكم فعدل فأمن واطمأن حتى لحظة الموت.

أمنت لما أقمت العدل يـا عمـر ::: فنمت نوم قريـر العـين هانيهـا

بلال في آخر اللحظات

وإذا ما عرجنا لنرى بلالاً رضى الله عنه ساعة الموت نجده غير مختلف عن سابقيه في الاطمئنان بالموت، فقد ذكر أن الصحابي الجليل بلال بن

رباح رضى الله عنه لما حضرته الوفاة قامت زوجته وقالت: وامصيبتاه فأفاق بلال وقال لها: أنا بريء من هذا الكلام، بل قولي وافرحتاه غدا ألقى الأحبة محمدًا وصحبه [1].

إن بلالاً رضى الله عنه في آخر لحظات حياته يتبرأ مما تبرأ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويشغله لقاء النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الذي غدا في الغد القريب، وتنسيه فرحة ذاك اللقاء ما يعانيه من سكرات الموت، وتبدله عنها أنسًا وفرحةً واطمئنانًا.

خالد يموت على فراشه!!

وقصة موت خالد بن الوليد سيف الله المسلول الذي لطالما نازل الكفار، وفرق جموع المرتدين، وأرعد فلول مانعي الزكاة، ثم انبرى للفرس والروم يلقنهم دروسًا قاسية، ويرميهم بألوان من الهزائم يجرعهم مرارتها الواحدة تلو الأخرى، ويقهرهم بانتصاراته العظيمة التي وقف فيها السيف ممسكًا بسيفه في ساحة القتال فتحول إلى أسد مغوار يفتك بالأعداء، فملأ أرض المعركة وساحتها بالقتلى والجرحى، وملؤوا جسده طعنات وضربات اكتفت بأن تترك أثارها فيه حينما لم تستطع النيل منه، نراه رضى الله عنه وهو يموت على فراشه، وقد تقال ميتته حتى أنه يصفها بميتة البعير داعيًا على الجبناء ببعد الكرى وطول السهاد، يقول خالد رضى الله عنه ساعة احتضاره: " لقد شهدت كذا وكذا زحفًا، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء " [2].

ثم كتب وصيته بأن ترد تركته إلى بيت مال المسلمين، ويتسلمها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

---

(1) أنيس المؤمنين.
(2) حياة الصحابة.

إن ما أحزن خالد بن الوليد رضى الله عنه وهو على فراش الموت أنه بعد هذا العمر الطويل المليء بالكفاح المشرف، والجهاد المستمر في سبيل الله أن يموت على فراشه ولا يظفر بالشهادة في ساحة القتال، وهو الأمر الذي كان يطلبه صباح مساء، فلقد تمنى خالد رضى الله عنه لو أنه صارع الموت وجهًا لوجه في ساحة القتال كما كان يفعل، وهو على يقين بأنه لن يصرعه هذه المرة، ولكن ذلك كان سيرضي روح الجندي الثائرة داخله التي أرادت ميتة مقاتل شجاع حتى إذا ما صرعه الموت مات ونفسه راضية أنه لم يمت إلا كما يريد، أما وقد قضى الله وقدر عليه أن يموت على فراشه، فلا اعتراض ولا خوف ولا فزع بل رضًا واطمئنانًا داعيًا على كل جبان هياب للموت ظانًا أنه سيلقاه فقط في ساحة القتال.

أبو عقيل أكثر حظا

أما أبو عقيل الأنيفي رضى الله عنه فقد كان أكثر حظًا من خالد بن الوليد حيث لقي الموت في ساحة القتال يقول الراوي: لما كان يوم اليمامة كان أول الناس جرح أبوعقيل الأنيفي رضى الله عنه رمى بسهم فوقع بين منكبيه وفؤاده، فشطب في غير مقتل، فأخرج السهم ووهن شقه الأيسر - لما كان فيه - وهذا أول النهار وجر إلى الرحل، فلما حمي القتال وانهزم المسلمون وجاوزوا رحالهم، وأبو عقيل واهن من جرحه سمع معن بن عدي رضى الله عنه يصيح بالأنصار: الله الله! والكرة على عدوكم واعنق معن يقدم القوم وذلك حين صاحت الأنصار: أخلصونا!أخلصونا فأخلصوا رجلاً رجلاً يميزون.

قال عبد الله بن عمر رضى الله عنه فنهض أبو عقيل يريد قومه، فقلت ما تريد يا أبا عقيل! ما فيك قتال؟ قال: قد نوه المنادي باسمي. قال ابن عمر فقلت: إنما يقول يا للأنصار لا يعني الجرحى. قال أبوعقيل: أنا رجل من الأنصار وأنا أجيبه ولو حبوا، قال ابن عمر: فتحزم أبو عقيل وأخذ السيف بيده مجردًا ثم جعل ينادي يا للأنصار كرة كيوم حنين. فاجتمعوا -

رحمهم الله - جميعًا يقدمون المسلمون دربة (أي جرأة وشجاعة) دون عدوهم حتى اقتحموا عدوهم الحديقة فاختلطوا واختلف السيوف بيننا وبينهم. قال ابن عمر فنظرت إلى أبي عقيل وقد قطعت يده المجروحة من المنكب فوقعت على الأرض وبه من الجراح أربعة عشر جرحًا كلها قد خلصت إلى مقتل وقتل عدو الله مسيلمة، قال ابن عمر: فوقعت على أبي عقيل وهو صريع في آخر رمق فقلت: يا أبا عقيل، فقال: لبيك - بلسان ملتاث - لمن الدبرة؟ قلت: أبشر، ورفعت صوتي قد قتل عدو الله فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله ومات يرحمه الله [1].

وأبو عقيل الأنيفى رجل كما شهد له عمر بن الخطاب من خيار أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم [2].

رأينا أبا عقيل رضى الله عنه وقد كان أول من أصيب يوم اليمامة، وقد أوهنته إصابته وجر إلى الرحل، ولكن ما إن سمع صوت منادي الجهاد إلا وهب منتفضًا ليجيبه ولو حبوا، وتحزم وتقدم داعيًا الأنصار للكر على جيش عدو الله مذكرًا لهم بيوم حنين عندما استعاد المسلمون قوتهم ورجعوا والتفوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاهدون معه حتى تم لهم النصر على عدوهم، ويتقدم أبو عقيل والأنصار يقاتلون، ويقاتل أبو عقيل قتالاً مرًا حتى يسقط بعضه على الأرض وتثخنه الجراح ويتقدم إلى مشارف الموت، فلا يهمه جسده المتساقط ولا الجراح التي ملأته، ولا الموت الوشيك القدوم إليه، ولكنه في آخر أنفاسه لا يقلقه إلا السؤال لمن الدبرة؟ لمن الهزيمة ومن نصيب من كان النصر؟ يقولها بلسان ملتاث أوشك أن يتوقف عن الكلام إثر ما أبلى صاحبه في الحرب، ذلك لأن الإجابة عن هذا السؤال هي الشيء الوحيد الذي أقض طمأنينة أبي عقيل، أما جسده المتساقط والجراح التي قد ملأته فتلك أشياء خارج بؤرة

---

(1) أخرجه ابن سعد في طبقاته.
(2) الرسول صلى الله عليه وسلم.

اهتمامه رضى الله عنه، وما أن عرف أن مسيلمة الكذاب عدو الله قد قتل وانهزم جيشه تمت طمأنينة أبي عقيل فرفع إصبعه إلى السماء وحمد الله سبحانه، ورحل أبو عقيل مطمئنًا سعيدًا هادئ البال.

خبيب والطمأنينة على المقصلة

وخبيب بن عدى رضى الله عنه فإن له أيضًا مع الطمأنينة ساعة الموت بالإعدام شنقًا موقفًا عظيمًا، فقد أخرج البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية عينًا، وأمّرعليهم عاصم بن ثابت رضى الله عنه وهو جد عاصم بن عمر بن الخطاب. فانطلقوا حتى إذا كان بين عسفان ومكة، ذكروا لحي من هذيل يقال له: بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، فاقتصوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة. فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم. فلما انتهى عاصم وأصحابه لجأوا إلى فد فد، وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألاَّ نقتل منكم رجلاً. فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر: اللهم، أخبر عنا نبيك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصمًا في سبعة نفر بالنبل، وبقي خبيب وزيد ورجل آخر رضى الله عنهم فأعطوهم العهد والميثاق. فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم، فلما استمكنوا منهم، حلوا أوتار قسيهم فربطوهم بها. فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجردوه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه.

وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر ابن نوفل وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر -، فمكث عندهم أسيرًا حتى إذا أجمعوا قتله، استعار موسي من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته. قالت: فغفلت عن صبي لي، فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة، عرف ذاك مني. وفى يده الموسي. فقال أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك - إن شاء الله

تعالى - وكانت تقول: ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمر ثم وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه. فقال دعوني أصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم. فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو، ثم قال: اللهم أحصهم عددًا، ثم قال:

ما إن أبالي حين أقتل مسلمًا ::: على أي شق كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ::: يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله [1].

إن أخشى ما كان يخشاه خبيب رضى الله عنه عند موته أن يظن أعداؤه أنه جزع من الموت، فهو يريد أن يثبت لهم بحق اطمئنانه به وعدم خوفه منه حتى وإن كانوا قد أعدوا له ما استطاعوا من وسائل إرهاب من سيف وسياف وقيد أوثقوه به وخشبة قربوها منه ليصلبوه عليها، وقد أروه كل ذلك رأي العين، ولكن بالرغم من كل ذلك فإن خبيبًا يبدوعلى الحقيقة ثابت الجأش مطمئن النفس ما به من جزع أو خوف، ويستأذنهم أن يصلي لله ركعتين، ولولا خوفه أن يظنوا أنه إنما يفر بهما من الموت أو يؤخره جزعًا منه لكان مطيلاً صلاته، ثم يدعو عليهم مؤكدًا لهم أنه هو الذي في موطن القوة برغم ما هو فيه، وهم في موطن الضعف برغم ما يبدونه، وينشد أبياتًا من الشعر رائعة يوضح فيها سبب طمأنينته وسر ثباته وأمنه؛ ذلك أنه مسلم وأن قتله في ذات الإله - وأنعم بهما من نعمتين - فماذا يضيرك بعد يا خبيب ومعك هاتين النعمتين؟ فمن هنا قد جاءتك الطمأنينة فرضي الله عنك.

---

(1) أخرجه البخاري.

ابن المبارك يعلم حتى الموت

ونكمل مشوار الطمأنينة لحظة الموت عند التابعين ولنختر منهم عبد الله بن المبارك رضى الله عنه، فقد ذكر أنه " لما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه: اجعل رأسي على التراب فبكى نصر، فقال له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هوذا تموت فقيرًا غريبًا! قال اسكت! فأني سألت الله تعالى أن يحييني حياة الأغنياء وأن يميتني موت الفقراء: ثم قال له: لقني ولا تعد علي ما لم أتكلم بكلام ثان " [1].

إن ابن المبارك لحظة موته يختار الوضع الأنسب له فيأمر بأن توضع رأسه على التراب، وعندئذ يبكي مولاه، فيسأله ابن المبارك عن السبب فيخبره عما أبكاه، فينكر ابن المبارك عليه إذ لا يرى ذلك سببًا للبكاء، ويوضح لمولاه سر ما هو فيه، وأن ذلك كان بدعوة منه لله سبحانه، وفى آخر رمق يعلمه كيف يلقن الميت الشهادة، وكأنه ما يزال في قاعة درسه بين طلابه، فما يزال يوضح لتلميذه ما أشكل عليه، ويعلمه درسًا جديدًا تعليمًا عمليًا، والدرس اليوم هو كيف يكون تلقين الشهادة للمحتضر، فلربما لقن ذلك التلميذ أحدًا بعد ابن المبارك فشق عليه، فهنيئًا لك طمأنينتك يابن المبارك.

طمأنينة عاصم بن أبي النجود

ومع الطمأنينة تطل علينا من بيت عاصم بن أبى النجود الكوفي الذي أخذ عنه حفص بن سليمان الأسدي القرآن الكريم نراه في لحظة وفاته وكيف حاله، فقد ذكر عنه أنه " لما حضرته الوفاة بكت أخته، قال لها ما يبكيك؟ انظري إلى تلك الزاوية فقد ختمت فيها القرآن ثمانية عشر ألف ختمة " [2].

(1) التذكرة القرطبي.
(2) ترجمة عاصم بن أبى النجود الكوفي.

فأي يقين هذا، وأي اعتزاز بعمل صالح خالص لوجه الله سبحانه، وياله من عمل يحقق الطمأنينة، ويبعث الثبات في النفس حقًا ففي تلك اللحظة{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾} [التكوير: ١٤].

هل الطمأنينة قصرا على الرعيل الأول

وإذا ما ساورتنا الشكوك في أن تلك الطمأنينة كانت من نصيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والرعيل الأول من الصحابة، والتابعين رضوان الله عليهم في قرونهم المباركة السالفة، وأزمانهم المجيدة الماضية إلا ونجد في عصرنا من اليقين ما يثبت الله سبحانه به أفئدتنا في أن تلك الطمأنينة إنما هي سنة الله في عباده الصالحين، فلا يحدها مكان ولا يحجبها زمان عن زمان وما يؤيد ذلك ما أوردناه في هذا المقام وهو قصة لعالمين فذين معاصرين من علماء المسلمين صالحين مباركين - أحسبهما كذلك والله حسيبهما ولا أزكي على الله أحدًا - وهما فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي وفضيلة الشيخ عبد الله بن باز رحمهما الله وأسكنهما فسيح جناته على ما قدماه للأمة من نفع وخير.

الشيخ الشعراوي وابن باز ولحظة الاحتضار

فقد سمع فضيلة الشيخ الشعراوي - رحمه الله - لحظة احتضاره وهو ينطق بالشهادة، فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله يقول: " وأنك رسول الله " بصيغة المخاطب، فهل رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليخاطبه ويشير إليه؟ الله أعلم، غير أن ذلك هو ما ذكره أهل الشيخ، ومن حضره ساعة موته.

أما فضيلة الشيخ ابن باز - رحمه الله - فقد روى عنه ليلة موته أنه جالس عواده من أصحابه وتلاميذه وسامرهم حتى ساعة متأخرة من الليل، وبعد أن انفض المجلس وانصرف الجلوس آوى الشيخ إلى فراشه، وما إن وضع رأسه لينام حتى اعتدل جالسًا، فظن أهله أنه إنما يريد شيئًا، فإذا به ينظر إلى أعلى ويبتسم، ثم بدأ في النزع رحمه الله.

نعم ينظر إلى أعلى بعينيه المبصرتين للحق سبحانه، وقرآنه الكريم، وسنة حبيبه صلى الله عليه وسلم، ويبتسم سعادةً ورضًا واطمئنانًا بما قدم{يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾} [النازعات: ٣٥].

وتظل الطمأنينة خلقًا من أهم أخلاق الصالحين من عباد الله، وتظل لهم على كل أحوالهم، وإنما قصرت ذكرها لهم فقط عند الموت؛ لأنها اللحظة الحرجة الشديدة التي تجزع فيها النفوس، وتشمئز عندها القلوب، وتصل إلى الحناجر نافضة عن كل إنسان كل أمن وطمأنينة إلا هؤلاء الصالحين ومن شاكلهم من خلق الله، فهكذا كانوا جميعًا الموت جاثم على رؤوسهم بكربه وغصصه وحشرجته وأرواحهم تسلب من أجسادهم وهم مطمئنون مبتسمون، وكانت لحظة الموت - برغم ما فيها - هي عندهم أسعد لحظات حياتهم.

أما وأن خلق الطمأنينة على طول الحياة بوجه عام، وعند الموت على وجه الخصوص مطلب كل نفس كان لابد لنا أن نفتش عن سرها عند هؤلاء جميعًا مادامت ليست حكرًا على أحد، ولا خاصة بعصر دون سواه فإن ذلك مدعاة لتحقيقها وتحصيلها.

سر الطمأنينة

إن سر الطمأنينة عند هؤلاء السعداء أنهم استقبلوا الدنيا الحلوة الخضرة بما ينقضها استقبلوها بالموت{ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾} [الملك: ٢] فكان في أذهانهم وخواطرهم، فلم يجترئوا على معصية الله، وأقبلوا على طاعته مستعدين للموت في كل وقت موقنين أنه غيرمرتبط بعمر أو مرض أو سبب (والموت من دون أسباب هو السبب).

عملوا بوصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام التي أوصيا بها بنيهما: {وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾} [البقرة: ١٣٢].

اعمل وأنت صحيح مطلق فـــرح ::: ما دمت ويحك يا مغرور في مهـــل

علموا أن كل نفس ذائقة الموت، فأعدوا أنفسهم وأعلموها أنها ستذوقه لا محالة، فلا مهرب منه ولا مفر.

هو الموت ما منه ملاذ ولا مهرب ::: متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب
هو الموت لا منجى من الموت والذي ::: نحاذر بعد الموت أدهـــى وأفظـــع

نزل بهم الموت فلم يهابوه ولم يفزعوا منه، ولماذا يهابونه ويفزعون منه والذي عملوا من أجله، وعاشوا حياتهم كلها في طلب رضاه سبحانه كان لحظة موتهم أقرب إليهم من حبل الوريد، فلقد رأوا لحظة الموت من لم يروا الخير إلا منه الله الكريم الرحيم سبحانه؛ لذا كان وقت الموت عندهم هو وقت اللقاء بالحبيب، ولحظة الموت هي لحظة البشرى بالروح والريحان والرضا من رب راض غير غضبان.

اطمأنوا فلم يندموا ولم يأسفوا ولم ينطق أحدهم{رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ} [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠]} [] فلقد عملوا صالحًا فيما تركوا كأفضل ما استطاعوا حتى لو أنهم أعيدوا للحياة الدنيا بعد موتهم ما استطاعوا أن يزيدوا في أعمالهم من شيء.

ما زال يلهج بالرحيـــل وذكـــره ::: حـــتى أنـــاخ ببابـــه الجمـــال
فأصـــابه متيقظـــا متشـــمرًا ::: ذا أهبـــة لم تلهـــه الآمـــال

قرءوا قوله سبحانه:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾} [الحشر: ١٨] وتدبروها وعملوا بها، فاتقوه سبحانه، ونظروا فيما قدموه لغد وضعوا أعمالهم أمامهم، وحاسبوا أنفسهم عليها قبل أن يحاسبوا، فحصوها ومحصوها، فزادوا فيما يجب أن يزاد حتى وفوه وأكملوه قدرما استطاعوا، ونفوا كل ما يجب أن ينفى.

أخلصوا أعمالهم لله تعالى، فلم يراؤوا بها أحدًا، ولم ينافقوا بأقوالهم أحدًا، فلم يؤسفهم لؤم لئيم خدموه، ولم يحزنهم نكران معروف أسدوه؛ لأنهم حينما قدموا الجميل والمعروف كانوا متيقنين أنهم إنما قدموه لأنفسهم عند

الله جل وعلا غير آبهين بما عليه نفوس الناس، غير منتظرين الجزاء إلا من رب الناس.

لم يسرفوا ولم يؤجلوا أعمالهم الصالحة فلم تغرهم الدنيا، ولم يغرهم طول العمر فكان الوقت أنفس ما عنوا بحفظه؛ لأنه رأس مالهم الذي أفنوا كل لحظة منه في رضا الله تعالى وطاعته سبحانه، فعملوا فيه أعمالاً وإن لم تنجهم من الموت لأنه سنة الله في خلقه إلا أنها أنجتهم مما بعد الموت وطمأنتهم ساعته.

ولدتك أمك باكيـــا مستصـــرخًا ::: والناس حولك يضحكون ســـرورًا
فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا ::: في يوم موتك ضـــاحكًا مســـرورًا

جاهدوا أنفسهم فلم يرضوا لها أن تكون أمارة بالسوء أو لوامة، بل سموا بها حتى بلغوا بها المطمئنة، فاطمأنت في الدنيا بالله جل وعلا ورسوله صلى الله عليه وسلم، واتبعت منهجه ودينه حتى آتاها اليقين وطمأنينتها معها لم تفارقها فرجعت بها إلى ربها راضية مرضية.

وآخر ما نقول في هؤلاء السعداء أنهم أناس عرفوا الله فأحبوه وأطاعوه واتبعوا النور الذي أنزله إليهم فاشتاقوا للقائه واطمأنوا به.

ومن هنا فعلى العبد أن يتذكر دائمًا أنه يحمل الموت، وأنه يسعى إلى الموت، وأنه ينتظر الموت صباح مساء، وما أحسن الكلمة الرائقة الرائعة التي قالها عليٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه إذ يقول: " إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، وأن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولاعمل " [(1)].

فلابد أن نرى الدنيا بحجمها الطبيعي ووجهها الحق لندرك أنها لا تبلغ أن تكون غاية في نفسها، وإنما تظل مطية للآخرة، ودار عمل فانية لدار

(1) لا تحزن.

الجزاء الباقية [1].

وما أبلغ آخر خطبة لخامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز التي قال فيها: " أما بعد... فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثًا ولم يدع شيئا من أمركم سدى.. وإن لكم معادًا ينزل الله فيه في الحكم والقضاء بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله.. وحرم الجنة التي عرضها السماوات والأرض.. واشترى قليلاً بكثير وفائتًا بباق.. وخوفًا بأمن ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيخلفها بعدكم الباقون كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين.

وفي كل يوم تودعون أيها الأحباب غاديًا ورائحًا إلى الله قد قضى نحبه وانقضى أجله، حتى تغيبوه في صدع الأرض، في بطن صدع، ثم تدعوه غير ممهد، ولا موسد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب وسكن التراب وواجه الحساب، مرتهنًا بعمله، فقيرًا إلى ما قدم، غنيًا عما ترك... فاتقوا الله قبل نزول الموت بكم ".

فليهيأ كل منا نفسه للموت قبل أن يحضره، وليتخذ عملاً ينجيه مما بعد الموت ويطمئنه ساعته وليسمع آنذاك قول الله سبحانه يقول له:{يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى} [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

ونسأل الله أن يلهمنا رشدنا ويوفقنا لاتباع أوامره واجتناب نواهيه، وأن يجعل الموت خير غائب ننتظره، وأن يختم لنا بالخير وأن يتغمدنا برحمته إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

* * *

(1) تفسير الشعراوي.

آنَـــسَ

القرآن خُلقًا

آنَسَ

قال تعالى:{فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾} [القصص: ٢٩].

التفسير:

{فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ} أي: رعيه وهو ثمان أو عشر سنين وهو المظنون به{وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ} زوجته بإذن أبيها نحو مصر{ءَانَسَ} أبصر من بعيد{مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ} اسم جبل{نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ} هنا{إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ} عن الطريق وكان قد أخطأها{أَوْ جَذْوَةٍ} بتثليث الجيم قطعة وشعلة{مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} تستدفئون والطاء بدل من تاء الافتعال من صلى بالنار بكسر اللام وفتحها [(1)].

ونقف في ذلك المبحث مع كلمة (آنس) والتي قد أوردها الله عز وجل في الآية الكريمة، وفسرها المفسرون للقرآن الكريم بمعان عدة، فلقد فسرها ابن كثير بأنها تعني " رأى نارًا تضيء له على بعد " وكذا وردت في الجلالين بنفس المعنى إذ قالا صاحبا التفسير: " إنها تعني أبصر من بعيد "، أما صاحب تفسير موجز البيان في معاني القرآن الشيخ أحمد القوصي فقد أضاف إلى معناها معنى جديدًا حين قال إنها تعني " أحس وأبصر "، وأما تفسير تاج التفاسير فقد توافق ما ذكره مع ما جاء في كتاب المفردات في غريب القرآن حين اقتصرا على تفسيرها على أنها تعني " أبصر "، أما صاحب المصحف الميسر فقد أرجع معناها إلى المصدر فقال الإيناس الشعور بما يستأنس به كما أن التوجس الشعور بما يخاف منه.

ولا تتعارض التفاسير وإن اختلفت في معنى الكلمة إذ إنها تتقارب في

---

(1) تفسير الجلالين.

الوصول لمضمون ذلك المعنى فما الإيناس إلا إبصار شيء يؤنسك أو إحساسك بوجوده.

ولقد أثبت الله جل وعلا لموسى عليه السلام بتلك الكلمة خلقًا نبيلاً من أسمى أخلاق القرآن الكريم وهو حرص ولي الأمر على كل ما ينفع به من تحت إمرته، وترقبه لكل ما يجلب لهم الخير والنفع، وتوخيه لكل ما يدرأ عنهم السوء والشر.

فذلك الملمح اللطيف من الله تعالى هو ملمح إلى كل ولي أمر، وإلى كل راع في أهله على مر الأيام وبطول مشوار الحياة أن يكون كموسى عليه السلام في شغله بأمر رعيته ومن وكل بهم مراعيًا لكل ما يصلح به حالهم، لماح مترقب لكل خير يمكن أن يصيبهم به، إذ إن إيناس موسى عليه السلام للنار ورؤيته لها من بعيد؛ دليلاً على شدة اهتمامه بأهله وحرصه على منفعتهم بكل ما يستطيع أن ينفعهم به، فهو أولاً رآها من بعيد دون أهله، وعندما رآها رغب في معرفة خبرها واستطلاع أمرها، ولماذا أوقدت في ذلك المكان، فلربما كان الأمر على غير ما يأمل، وفي هذه الحالة يكون إيناسه لتلك النار وذهابه إليها مجنباً له ولأهله شرها مبعداً لهم عن حسيسها بدلاً من أن يظلوا ليلتهم في ذلك المكان، أو تباطؤوا في الرحيل عنه فيداهمهم أهل تلك النار بما يسوؤهم{لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم}، وأما إن كانت تلك النار مصدر خير ونفع فإنه عليه السلام يأمل أن يأتيهم منها بجذوة؛ ليدفئهم بها في تلك الليلة الباردة ويذهب عنهم بردها وزمهريرها{أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ}، أو يؤنسهم بنورها ويذهب بها عنهم ظلمة الليل ووحشته، أو يستدل بها على الطريق القويم والوجهة الصحيحة؛ لأنه كان قد أضل الطريق وأخطأها كما ورد في سورة طه{أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى} [طه: ١٠].

فكلمة (آنس) في الآية الكريمة تحمل إذن معنى عميقًا ثريًا، ويدلنا الله تعالى بها على منهج قويم وخلق كريم ذكره لنا سبحانه في ملمح هو

الغايه في اللطف، وهو كيف يكون ولي الأمر لماح ألمعي كموسى عليه السلام برؤيته البعيدة، وإحساسه المرهف، ونظره الحاد الذي رأى الطريق وما يحيط به وإن بعد، ورعايته الشاملة لمن يعول، إذ إن تلك هي الرعاية المثلى التي ألمح إليها النبي صلى الله عليه وسلم حين قال:{**كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، والإمام راع، ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، فكلكم راع ومسؤول عن رعيته**} [1].

فقد حدد النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف من يقوم الرعاية، وعلى عاتق من تقع تبعتها، وبين أنها تبدأ بأكبر منصب في الدولة وهو الإمام، وعليه يقع العبء الأكبر والمسؤولية الجسيمة؛ لأنه مسؤول عن كل فرد في دولته صغيرًا أو كبيرًا رجلاً كان أو امرأةً، بل وعن كل شيء فضلاً عن كل فرد، وتنتهي المسؤولية بأصغر منصب في الدولة ألا وهو الخادم، فهو برغم صغر دوره إلا أنه لم يعف من المسؤولية إذ إن ضآلة منصبه لا تلغي مسؤوليته أو تسقطها عنه فهو مسؤول عما استؤمن عليه أأحسن فيه أم أساء، أحفظ أم ضيع؟

وبين الكبير والصغير في الدولة تقع المسؤولية المجتمعية ممثلة في الأباء والأمهات اللذين يمثلان الأسرة وحدة بناء المجتمع، فكل منهما مسؤول عن رعيته: الرجل مسؤول عمن استرعاه الله إياهم من الأهل، والمرأة راعية في موقعها ومكانها بيت زوجها ومسؤولة عما فيه من زوج وأبناء وأموال، وكل من ذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث جميعهم مشمول في الرعاية مشمول في المسؤولية عما استرعاه الله تعالى أحفظ أم ضيع كما جاء بنص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**إن الله**

(1) متفق عليه.

سائل كل راع عما استرعاه أحفظ أم ضيع؟} [1].

فهل كل راع في موقعه يمتلك عينين كعيني موسى عليه السلام اللاحظتين المبصرتين، يمتلك تلك المرائي اللامحة للطريق وجوانبه، وما فيه وما قد يعتريه؟ هل كل راع أيا كان لديه ذلك النظر الحاد البعيد المدى وتلك النظرة المتسعة الدقيقة التي لاتهمل حال نظرها كل تفاصيل الموقف؟ هل لديه الصبر على المتابعة المستمرة والشغف الدؤوب والاهتمام الشامل لكل ما يصلح رعيته؟ مترقب لكل خير يمكن أن ينيلهم إياه، موقيًا لهم كل شر أو سوء ربما يصيبهم أو عساه؟

إن تخلق موسى عليه السلام بذلك الخلق الكريم إنما يرجع لشعوره العميق بما على عاتقه من تبعة، وما عليه من مسؤولية تجاه من يعول.

هذا وإن كان من العلماء من يرى أن موسى عليه السلام رأى تلك النار دون أهله؛ لأن هذه النار هي نور في الحقيقة، ولا يصح أن يراها كل أحد، إلا أني أنسب إلى موسى عليه السلام ما نسبه الله تعالى إليه وهو الإيناس إذ لم تذكر تلك الكلمة في القرآن الكريم مبنية للمجهول ولا لمرة واحدة إقرارًا من الله عز وجل بذلك الإيناس لموسى عليه السلام، وإثباتًا لبعد نظره، ولم يرد ذلك المعنى بلفظة غير (آنس) في ذكر الله تعالى لذلك المشهد القرآني الذي تكرر في ثلاث سور كريمة من سور القرآن الكريم وهي (طه، والنمل، والقصص)، فلم يقل سبحانه أُري أو أُبصر، وإنما كان تكرار كلمة (آنس) لاغيرها ببنائها للمعلوم في القرآن الكريم في كل مرة ذكر فيها ذلك المشهد القرآني من قصة موسى عليه السلام تأكيدًا لخلق من أهم وأسمى أخلاقه عليه السلام والتي بها استحق أن يكلمه الله تعالى، وأن يريه نوره.

---

(1) رواه البخاري مسلم.

الإيناس خلق من أخلاق جميع الأنبياء

ولقد كان ذلك الإيناس بتلك النظرة البعيدة الشاملة لكل تفاصيل الحدث، وذلك الإحساس المرهف خلقًا من أهم أخلاق جميع انبياء الله عليهم السلام إذ إن الإيناس لديهم بكلا معنييه اللذين تدور حولهما جل التفاسير وهما (أحس)، و (أبصر عن بعد) متحققين في مواقف كثيرة شهدت لهم بذلك.

ولنقف مع أول معنيين لكلمة آنس في حديث للنبي صلى الله عليه وسلم مثبتًا ذلك الخلق الكريم بلفظه ومعناه لأبيه إسماعيل عليه السلام - وإن أرجعنا الحديث إلى زمنه المبارك - قال صلى الله عليه وسلم :{**فألفى ذلك أم إسماعيل، وهي تحب الأنس – فنزلوا، فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل. فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا – وفي رواية: يصيد لنا – ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق و شدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها، وتزوج منهم أخرى. فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت على الله عز وجل، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم**

والماء}. قال النبي صلى الله عليه وسلم :{ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه – قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة – وأثنت عليه –، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة أمرني أن أمسكك...} [1].

لقد وردت لفظة (آنس) في الحديث الشريف بمعنى (أحس بوجود) مثبتة لنبي الله إسماعيل عليه السلام ما أثبتته الآية الكريمة لنبي الله موسى عليه السلام وهو خلق الإيناس، فلقد أحس ذبيح الله بأن هناك شخص ما قد كان موجودًا في بيته أثناء غيابه، وبناءً على ذلك الإحساس سأل زوجتيه عمن كان موجودًا أثناء غيابه فقال عليه السلام:{هل جاءكم من أحد؟}، ولا يستطيع أحد أن يقرر هل كان ذلك الإيناس إلهام ألهمه الله تعالى لإسماعيل عليه السلام؟ أم قد استطاع أن يصل إليه عن طريق الحدس؟، أم استدل عليه من خلال براهين ودلائل أحسها بحواسه؟ وعلى كل حال فلقد أثبت رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ذاك الخلق الكريم لجده إسماعيل عليه السلام، وإن اختلفت وجهات النظر في كيفية حصول ذلك الإيناس.

وما أعظم ذاك الخلق الكريم الذي أثبته النبي صلى الله عليه وسلم لجده إسماعيل عليه السلام الذي به يمكن الراعي أن يشمل رعيته بالمتابعة في حضوره وغيابه.

---

(1) رواه البخاري.

للنبي صلى الله عليه وسلم **من الإيناس الحظ الأوفر**

وللنبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم من ذلك الخلق الحظ الأوفر، فلقد أثبت الله عز وجل له ذلك الخلق بكلا المعنيين اللذين وردا في التفاسير وهما (أحس، وأبصر من بعد)، وإذا التمسنا موقفًا من سيرته العطرة يؤيد ذا القول ويؤكد ذاك الخلق النبيل لديه صلى الله عليه وسلم، فلن نجد موقفًا إلا وهو دال على بعد نظره، وشمولية رؤيته المنبثق من عميق إحساسه بعظم مسؤولية الراعي الإنساني الأكبر صلى الله عليه وسلم، والمؤدي حتمًا إلى نتيجة واحدة وهي الاهتمام بالرعية وبكل ما من شأنه أن يصلحها.

فلقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم الطريق المستقيم وسار عليه ودعا إليه وعلمه وعلم ما به، وبما يحيط به، وبما ليس به لو كان كيف كان على قدر ما أتاه الله جل وعلا من علم وبصيرة، وأنبأ أمته بكل ما آنسه ورآه، فبشرها بكل خير يمكن لها أن تناله إذا ما أطاعت الله ورسوله، وحذرها من كل شر يمكن أن يطالها إذا ما خالفت ما أمرها الله ورسوله به.

حقًا، فلقد كان الإيناس خلقًا كريمًا للنبي صلى الله عليه وسلم تشهد بذلك له شهادة صريحة أحاديث النبوءات التي قد جمعت منها كتب لكثرتها، فلقد كانت تلك الأحاديث الشريفة إيناسًا للمكان والزمان حيث أنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها بما سيكون مستقبلاً في الزمان والمكان إلى قيام الساعة، ورغم أنه قد نقل فيها الكثير إلا إنه قليل بالقياس لما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابة رضوان الله عليهم من أحداث، فلقد روى البخاري ومسلم عن حذيفة قال: " قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامًا فما ترك شيئًا يكون من مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، وقد علمه أصحابي هؤلاء، وأنه ليكون من الشيء قد نسيته فأراه فأذكر كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا

غاب عنه ثم إذا رآه عرفه " [1].

وروى مسلم عن عمر بن أخطب الأنصاري قال: " صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة فأعلمنا أحفظنا " [2].

وللحق أن ذلك الإيناس المتمثل في تلك النبوءات كان إيناسًا خاصًا بالنبوة إذ كان لا يستطيعه - بتلك الدرجة - أحد إلا الأنبياء عليهم صلوات الله تعالى وتسليماته، فلقد أراهم الله من غيبه المستور ما أذن لهم به، ولكن حتى وإن كان رؤية ما بعد في الزمان والمكان ميزة ميز الله سبحانه بها الأنبياء عليهم السلام ومن أولهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على الناس جميعًا، فإن للنبي صلى الله عليه وسلم رؤية بعيدة المدى في ناحية أخرى من نواحي الحياة المتعددة جعلته على قمة النجباء والحكماء من البشر المتميزين، إنها الرؤية بعيدة المدى لعواقب الأمور في حالة حدوثها أو عدمه إذ لتلك الرؤية أهميتها الكبيرة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولها شواهد عديدة في السنة المطهرة، فما من موقف للنبي صلى الله عليه وسلم إلا وهو يدلك دلالة واضحة على إيناسه للبعيد من المآلات والعواقب.

ولقد اخترت من تلك المواقف موقف كان أبرزها في إثبات ذلك الخلق له صلى الله عليه وسلم وذاك الموقف كان يوم غزوة بني المصطلق يقول صاحب الرحيق المختوم فضيلة الشيخ المباركفوري عن تلك الغزوة: وهذه الغزوة وإن لم تكن طويلة الذيل، عريضة الأطراف من حيث الوجهة العسكرية؛ إلا أنها وقعت فيها وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب

---

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه مسلم.

في المجتمع الإسلامي، وتمخضت عن افتضاح المنافقين، والتشريعات التعزيزية التي أعطت المجتمع الإسلامي صورة خاصة من النبل والكرامة وطهارة النفوس، ونسرد الغزوة أولاً، ثم نذكر تلك الوقائع، كانت هذه الغزوة في شعبان سنة ست من الهجرة على أصح الأقوال، وسببها: أنه بلغه صلى الله عليه وسلم أن رئيس بني المصطلق الحارث بن أبي ضرار سار في قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبعث بريدة بن الحصيب الأسلمي لتحقق الخبر، فأتاهم، ولقي الحارث بن أبي ضرار وكلمه ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر.

وبعد أن تأكد لديه صلى الله عليه وسلم صحة الخبر ندب الصحابة، وأسرع في الخروج، وكان خروجه لليلتين خلتا من شعبان، وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قبلها واستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وقيل أبا ذر، وقيل ثميلة بن عبد الله الليثي، وكان الحارث بن ضرار قد وجه عينًا، ليأتيه بخبرالجيش الإسلامي، فألقى المسلمون عليه القبض وقتلوه. ولما بلغ الحارث بن ضرار ومن معه مسير رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتله عينه، خافوا خوفًا شديدًا، وتفرق عنهم ما كان معهم من العرب، وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المريسيع - اسم لماء من مياههم في ناحية قديد إلى الساحل - فتهيؤوا للقتال، وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه، وراية المهاجرين مع أبي بكر الصديق، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحملوا حملة رجل واحد، فكانت النصرة. وانهزم المشركون، وقتل من قتل، وسبى رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء والزراري والنعم والشاء، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد، قتله رجل من الأنصار ظنًا منه أنه من العدو.

كذا قال أهل المغازي والسير، قال ابن القيم: وهو وهم، فإنه لم يكن بينهم

قتال، وإنما أغار عليهم على الماء فسبى ذراريهم وأموالهم كما في الصحيح: أغار رسول الله صلى الله عليه وسلم على بني المصطلق وهم غارون، وذكر الحديث انتهى.

وكان من جملة السبي جويرية بنت الحارث سيد القوم، وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها، فأدى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزوجها، فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة أهل بيت من بني المصطلق قد أسلموا، وقالوا: أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم [1].

فلقد كان زواج النبي صلى الله عليه وسلم من جويرية رضى الله عنها أول إثبات لذلك الخلق عنده صلى الله عليه وسلم في حديثنا هذا إذ كان إيناسًا للخير الذي سيصيب قومها من جراء ذلك الزواج المبارك.

وأما الوقائع التي حدثت في هذه الغزوة، فلأجل أن مبعثها كان هو رأس النفاق عبد الله بن أبي وأصحابه؛ نرى أن نورد أولاً شيئًا من أفعالهم في المجتمع الإسلامي وسأركز على دور كبيرهم عبد الله بن أبي لأن له دورًا ليس بالهين في مبحثنا هذا.

كان عبد الله بن أبي يحنق على الإسلام والمسلمين، ولا سيما على رسول الله صلى الله عليه وسلم حنقًا شديدًا؛ لأن الأوس والخزرج كانوا قد اتفقوا على سيادته، وكانوا ينظمون له الخرز ليتوجوه إذ دخل فيهم الإسلام، فصرفهم عن ابن أبي، فكان يرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي استلبه ملكه.

وقد ظهر حنقه هذا وتحرقه منذ بداية الهجرة قبل أن يتظاهر بالإسلام وبعد أن تظاهر به. ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار؛ ليعود سعد بن عبادة، فمر بمجلس فيه عبد الله بن أبي، فخمر ابن أبي أنفه وقال: لا تغبروا علينا. ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم على

---

(1) الرحيق المختوم.

المجلس القرآن، قال: اجلس في بيتك ولا تغشنا في مجلسنا [1].

وهذا قبل أن يتظاهر بالإسلام، ولما تظاهر به بعد بدر، لم يزل إلا عدوًا لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يكن يفكر إلا في تشتيت المجتمع الإسلامي، وتوهين كلمة الإسلام، وكان يوالي أعداءه، وقد تدخل في أمر بني قينقاع وكذلك جاء في غزوة أحد من الشر والغدر والتفريق بين المسلمين، وإثارة الارتباك والفوضى في صفوفهم.

وكان من شدة مكر هذا المنافق وخداعه بالمؤمنين، أنه كان بعد التظاهر بالإسلام يقوم كل جمعة حين يجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم للخطبة، فيقول: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس، فيقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخطب، وكان من وقاحة هذا المنافق أنه قام في يوم الجمعة التي بعد أحد - مع ما ارتكبه من الشر والغدر الشنيع - قام ليقول ما كان يقوله من قبل، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه، وقالوا له: اجلس أي عدوالله، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت، فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بجرًا أن قمت أشدد أمره، فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد فقال: ويلك، ارجع يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: والله ما أبتغي أن يستغفر لي.

وكانت له اتصالات ببني النضير يؤامر معهم ضد المسلمين، حتى قال لهم: لئن أخرجتم لنخرجن معكم، ولئن قوتلتم لننصرنكم.

وكذلك فعل هو وأصحابه في غزوة الأحزاب من إثارة القلق والاضطراب، وإلقاء الرعب والدهشة في قلوب المؤمنين ما قد قص الله تعالى في سورة الأحزاب:{ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا

(1) انظر: الرحيق المختوم وهامشه.

ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾} [الأحزاب: ١٢] إلى قوله:{ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾} [الأحزاب: ٢٠].

كان كل ذلك بعضًا من دور الخبيث ابن أبي قبل غزوة بني المصطلق أما دوره بعد الغزوة فقد كان أشد ضراوة وخبثًا.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من الغزو مقيمًا على المريسيع، ووردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير يقال له: جهجاه الغفاري، فازدحم هو وسنان بن وبر الجهني على الماء، فاقتتلا فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار. وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها منتنة}**.

وبلغ ذلك عبد الله بن أبي ابن سلول فغضب - وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث - وقال: أو قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فأخبر زيد بن أرقم عمه بالخبر، فأخبر عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عمر، فقال عمر: مر عباد بن بشر فليقتله.

ولنتوقف مع اقتراح عمر رضي الله عنه قليلاً لنرى من خلال رد النبي صلى الله عليه وسلم عليه كيف كان إيناسه صلى الله عليه وسلم لعواقب الأمور، ورؤيته البعيدة الثاقبة التي تدلك دلالة واضحة على حكمته، فقد قال صلى الله عليه وسلم :**{فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟}** ثم انظر كيف تصرف صلى الله عليه وسلم إزاء ذلك الإيناس وتلك الرؤية البعيدة، أكمل صلى الله عليه وسلم خطابه لعمر رضي الله

عنه فقال: لا ولكن أذن بالرحيل. وذلك في ساعة لم يكن يرتحل فيها، فارتحل الناس، فلقيه أسيد بن حضير فحياه وقال: لقد رحت في ساعة منكرة؟ فقال له: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ يريد ابن أبي، فقال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال: فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه يرى أنك استلبته ملكًا.

ثم مشى النبي صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض، فوقعوا نيامًا، فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشغل الناس عن الحديث، ليكف عن المسلمين شر الفتنة التي آنس بوادرها، وذلك تصرف يحسب له صلى الله عليه وسلم داخلاً تحت خلق الإيناس الذي نحن بصدده.

أما ابن أبي فلما علم أن زيد بن أرقم بلغ الخبر جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحلف بالله ما قلت ما قال، ولا تكلمت به، وقال من حضر من الأنصار: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، فصدقه، قال زيد: فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في بيتي، فأنزل الله{إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ} [المنافقون: ١] إلى قوله:{هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ} [المنافقون: ٧] إلى قوله:{لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ} [المنافقون: ٨]، فأرسل إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليَّ، ثم قال: إن الله قد صدقك.

وكان ابن هذا المنافق - وهو عبد الله بن عبد الله بن أبي - رجلاً صالحًا من الصحابة الأخيار، فتبرأ من أبيه، ووقف على باب المدينة، واستل سيفه، فلما جاء ابن أبي قال له: والله لا تجوز من هنا حتى يأذن لك

رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم أذن له، فخلى سبيله، وكان قد قال عبد الله بن عبد الله بن أبي: يا رسول الله إن أردت قتله فمرني بذلك، فأنا والله أحمل إليك رأسه.

كان ذاك بعض دور ابن أبي الشائن القذر الذي حمل به إثمًا عظيمًا فساء له حملاً، وكان كل ذلك الإيذاء شيئًا مما وجهه الخبيث للنبي صلى الله عليه وسلم في نفسه الشريفه في دعوته المباركة، أما ما وجه للنبي صلى الله عليه وسلم في أهله رضوان الله عليهم من ذاك الخبث فقد كان أغلظ وأقسى ونورد ذكره في الحديث القادم.

تبدى خبث ونذاله ذاك الخبيث ابن أبي واضحًا من خلال اختلاقه وترويجه لحديث الإفك إذ كانت قصة الإفك في هذه الغزوة، وملخصها أن عائشة رضى الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه في هذه الغزوة بقرعة أصابتها، وكانت تلك عادته مع نسائه فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل، فخرجت عائشة لحاجتها، ففقدت عقدًا لأختها كانت أعارتها إياه، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه في وقتها، فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هودجها فظنوها فيه فحملوا الهودج، ولا ينكرون خفته؛ لأنها رضى الله عنها كانت فتية السن لم يغشاها اللحم الذي كان يثقلها، وأيضًا فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته ولو كان الذي حمله واحدًا أو اثنين لم يخف عليهما الحال، فرجعت عائشة إلى منازلهم، وقد أصابت العقد، فإذا ليس به داع ولا مجيب، فقعدت في المنزل، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها، والله غالب على أمره يدبر الأمر فوق عرشه كما يشاء، فغلبتها عيناها فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان صفوان قد عرس في أخريات الجيش لأنه كان كثير النوم، فلما

رآها عرفها، وكان يراها قبل نزول الحجاب، فاسترجع وأناخ راحلته، فقربها إليها، فركبتها، وما كلمها كلمة واحدة، ولم تسمع منه إلا استرجاعه، ثم سار بها يقودها، حتى قدم بها، وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة، فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته، وما يليق به، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبي متنفسًا، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه، فجعل يستحكي الإفك، ويستوشيه، ويشيعه، ويذيعه ويجمعه، ويفرقه، وكان أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك في الحديث، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت لا يتكلم، ثم استشار أصحابه - لما استلبث الوحي طويلاً - في فراقها، فأشار عليه عليٌّ رضى الله عنه أن يفارقها، ويأخذ غيرها، تلويحًا لا تصريحًا وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها، وأن لا يلتفت إلى كلام الأعداء [1] فقام على المنبر يستعذر من أهل الإفك يقدمهم عبد الله بن أبي قال: من يعذرني في رجل بلغني أذاه في أهلي والله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرًا وما كان يدخل على أهلي إلا معي [2].
فأظهر أسيد بن حضير سيد الأوس رغبته في قتل ابن أبي، فأخذت سعد بن عبادة - سيد الخزرج وهي قبيلة ابن أبي - الحمية القبلية، فجرى بينهما كلام تثاور له الحيان، فخفضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سكتوا وسكت.

أما عائشة، فلما رجعت مرضت شهرًا، وهي لا تعلم عن حديث الإفك شيئًا سوى أنها كانت لا تعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كانت تعرفه حين تشتكي، فلما نقهت خرجت مع أم مسطح إلى البراز ليلاً، فعثرت أم مسطح في مرطها فدعت على ابنها، فاستنكرت ذلك عائشة منها، فأخبرتها الخبر، فرجعت عائشة واستأذنت رسول الله

(1) الرحيق المختوم.
(2) زاد المعاد.

صلى الله عليه وسلم لتأتي أبويها وتستيقن الخبر، ثم أتتهما بعد الإذن حتى عرفت جلية الأمر، فجعلت تبكي، فبكت ليلتين ويومًا، ولم تكن تكتحل بنوم، ولا يرقأ لها دمع، حتى ظنت أن البكاء فالق كبدها، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، فتشهد وقال:**{أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه}**.

وحينئذ قلص دمعها، وقالت لكل من أبويها أن يجيبا، فلم يدريا ما يقولان، فقالت: والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به فلئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم إني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترف لكم بأمر - والله يعلم إني منه بريئة - لتصدقني والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف قال:{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [يوسف: ١٨] ثم تحولت واضطجعت، ونزل الوحي ساعته، فسري عن رسول الله وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها:**{يا عائشة، أما الله فقد برأك}**، فقالت لها أمها: قومي إليه... فقالت عائشة - إدلالاً ببراءة ساحتها، وثقة بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم -: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله [1].

ولما جاء الوحي ببراءة الصديقة رضى الله عنها أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن صرح بالإفك فحدوا ثمانين ثمانين، ولم يحد الخبيث عبد الله بن أبي مع أنه رأس أهل الإفك، فقيل لأن الحدود تخفيف عن أهلها وكفارة، والخبيث ليس أهلاً لذلك وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة فيكفيه ذلك عن الحد، وقيل: بل كان يستوشي الحديث ويجمعه ويحكيه ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه، وقيل: الحد لا يثبت إلا بالإقرار أو بينة وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد، فإنه إنما كان

(1) الرحيق المختوم.

يذكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه ولم يكن يذكره بين المؤمنين، وقيل: حد القذف حق الآدمي لا يستوفى إلا بمطالبته وإن قيل: إنه حق لله فلابد من مطالبة المقذوف وعائشة لم تطالب به ابن أبي، وقيل بل ترك حده لمصلحة هي أعظم من إقامته كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مرارًا؛ وهي تأليف قومه وعدم تنفيرهم عن الإسلام فإنه كان مطاعًا فيهم ورئيسًا عليهم، فلم يؤمن إثارة الفتنة في حده، ولعله ترك لهذه الوجوه كلها، فجلد مسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش وهؤلاء من المؤمنين الصادقين تطهيرًا لهم وتكفيرًا، وترك عبد الله بن أبي إذاً فليس هو من أهل ذاك [1].

وهكذا بعد شهر أقشعت سحابة الشك والارتياب والقلق والاضطراب جو المدينة، وافتضح رأس المنافقين افتضاحًا لم يستطع أن يرفع رأسه بعد ذلك، قال ابن اسحق: وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله لأرعدت له أنف، ولو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمري [2].

ذلك هو إيناس النبي صلى الله عليه وسلم وطول نظره، وبعد رؤيته التي يرى بها عواقب الأمور ومآلات الأحداث قبل أن تحدث، وكيف بذلك الإيناس أطال الحبل لابن أبي ليشنق به نفسه، وجعل ابنه وأقرب الناس إليه يقول للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله، إن أردت قتله فمرني بذلك، فأنا والله أحمل إليك رأسه.

وكيف بذا الخلق الكريم جنب النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين فتنة لا تصيب الذين ظلموا منهم خاصة، فانظر كيف آنس النبي صلى الله عليه

(1) زاد المعاد.
(2) الرحيق المختوم.

وسلم الشر فاجتنبه، وآنس الخير فجلبه وتحمل ما أصابه وأهله وصبر لما أوذي به في الله - وما أوذي أحد في الله مثله - إذا ما كان هذا الاحتمال وذلك الصبر سيكون عاقبتهما الخير والنفع لدعوته ولأمته، وما تلك هي إلا الحكمة في أبهى صورها وأسمى معانيها.

ذلك هو الإيناس حينما يكون خلقًا، وذلك هو طول النظر حينما يكون مطلوبًا، وتلك هي النظرة البعيدة التي ترى بإذن الله من شفيف الغيب ردة الفعل وتعلم أثرها حسنًا أم سيئًا قبل أن يحدث، فما أحوج الناس كل الناس إليها في كل موقف من مواقف الحياة، ولكن إذا ما بحثنا عمن هو أحرى بها من الناس عامة فلن يكون إلا الساسة وأصحاب القرار أولئك الذين جعل الله تعالى مصائر الشعوب بأيديهم، بكلمة منهم تقوم الحروب وبأخرى تجتنب، بعزم منهم يقوم المجتمع وينهض، وبخمولهم ينحل المجتمع ويفسد، بصلاحهم يصلح الله سبحانه البلاد والعباد، فإن استقاموا استقامت رعيتهم، وإن اعوجوا اعوجت، ولله در الإمام الحسن البصري حين كتب إلى الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز يوصيه ويذكره بدور الإمام فكتب يقول: " اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم ".

من أحرى الناس بالإيناس

فما أحرى القائمين بأمر الناس بذاك الخلق الكريم وما أحقهم به؛ ليكون لهم عونًا للخلاص من كثير من المتاهات السياسية، والاختلافات الدولية؛ ليجنبوا شعوبهم الكثير من المشاكل والقلاقل، حين يعلموا متى ينطقوا بنعم ومتى تكون لا، متى يؤمروا بالأمر ومتى ينهوا عنه كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما رفض قتل ابن أبي مع عظيم شره وضره، فجنب بذلك الأمة كثيرًا من شرور الانقسامات والفتن.

الإيناس لدى عمر رضي الله عنه

ولم يكن ذلك الإيناس بأي من معانيه قصرًا على أنبياء الله عليهم السلام فحسب، وإنما هو خلق لكل المتأسين المقتدين بهم إذ كان ذلك خطًا من الأخلاق الكريمة رسموه لمن خلفهم من التابعين فترسموه وساروا عليه، فاهتموا بكل شيء وأي شيء ينفع رعيتهم، وأبعدوهم عن كل ما من شأنه أن يضرهم حين قدروا لكل شيء قدره ما استطاعوا، وها هو أحد المتأسين بالنبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم حين ولي أمر أمته يقول: " لو مات جدي بطف الفرات لخشيت أن يحاسب به الله عمر " [1].

فانظر إلى اتساع النظرة وشمولها وكيف جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه منتهى بصره يصل إلى منتهى حدود مسؤوليته، وإنما كان ذلك لإحساسه بعظم ما ألقي على عاتقه من تبعة جعلته يراقبها بعين مبصرة بقدر مراقبته لله تعالى وخوفه منه.

هل الإيناس مكتسب

هذا وإن كانت تلك الرؤية البعيدة والإحساس المرهف وما يمثلان من خلق عند بعض الأصفياء من خلق الله تعالى من وحيه سبحانه وإلهامه إلا أن هناك من الأسباب التي هيأها الله لاكتساب ذلك الخلق يعد من أهمها شدة حب الراعي لرعيته، ومايتبع ذلك من عظيم اهتمامه بها وبما يصلحها.

وكم من راع يعوزه ذلك الإيناس إذ يبدو مكبًا على وجهه ناظرًا فقط تحت قدميه لا يبصر الخير البعيد فيجلبه، ولا الشر البعيد فيجتنبه، ولا يبصر نتائج أقواله ولا أفعاله فيوقع رعيته بمشاكل لا حصر لها، وخلافات لا طائل تحتها.

إن كلمة (آنس) وما توحي به من معاني، وماتمثله من خلق لهي طوق

(1) عبقرية عمر.

ملزم في عنق كل ولي أمر، إن استمسك به صار طوق نجاة له ولمن يعول ينجون به من ظلمات أمواج بحار الحياة المتلاطمة، وإن أهمله وتركه، وسار مكبًا على وجهه أعمى أو متعامي عمن ولي أمرهم، وعن كل ما من شأنه أن يصلحهم صار طوقًا من نار حبل من مسد يحرقه هو أولاً ويحرق كل من يعول.

فعليك أيها الراعي المحب لرعيته ألا تعد عيناك عنهم تنظرهم نظرًا يلم بجميع جوانب حياتهم، تبصر لهم الخيرالبعيد وتحاول جهدك أن تنيلهم إياه، وتحذرهم مما ترى من الشر البعيد وتبعده عنهم وتجنبهم إياه، وتحس إحساسًا عميقًا بما يحسون به وتعايشهم إحساسهم من غير إقحام أو تسلط.

هذا وأن بعض المتخصصين يطلقون على تلك الرؤية البعيدة الشاملة والإحساس المرهف العميق اسم الحاسة السادسة، والتي بها يستطيع الإنسان التنبؤ بشيء ما أو الإحساس بوجوده على غير اعتماد على الحواس، وقد يسميه آخرون بأسماء أخرى ولكني أصر على تسميته بلفظة أسماه الله تعالى بها ألا وهي (الإيناس) بكل ما تحمل من صفات النجابة والذكاء والحكمة.

كانت تلك وقفة مع كلمة مباركة من كلمات القرآن الكريم أوحت لنا فيها ببعض معانيها العظيمة فتمثلت أخلاقًا عظيمة لكل من يهمه الأخلاق.

* * *

إنِّى آنَسْت نَاراً

القرآن خُلقًا

إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ

قال تعالى:

{فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩)} [القصص: ٢٩].

التفسير:

قد تقدم في تفسير الآية قبلها أن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما وقد يستفاد هذا أيضًا من الآية الكريمة حيث قال تعالى:{فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ} أي الأكمل منهما والله أعلم وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد قضى عشر سنين وبعدها عشرًا أخر، وهذا القول لم أره لغيره وقد حكاه عنه ابن أبي حاتم وابن جرير فالله أعلم وقوله:{وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ} قالوا: كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئًا فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك:{ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا} أي رأى نارًا تضيء له على بعد:{قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا} أي حتى أذهب إليها:{لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ} وذلك لأنه قد أضل الطريق{أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ} أي قطعة منها:{لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} أي: تستدفئون بها من البرد [1].

---

(1) تفسير ابن كثير.

موسى عليه السلام يوضح كل شيء

كان هذا قول موسى عليه السلام لأهله وقتما كانوا منقلبين من مدين إلى مصر، ووافق ذلك إحدى ليالي الشتاء المطيرة الباردة حينها أبصر موسى عليه السلام عن بعد نارًا من جانب الطور الأيمن فقال لأهله:{ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ} وفي هذه الآية الكريمة يظهر لموسى خلقًا كريمًا واضحًا كل الوضوح - بجانب ما يظهر له من أخلاق كريمة - ذلك الخلق المقصود هو (الوضوح)، فموسى عليه السلام في الآية الكريمة يأمر أهله أن يمكثوا منتظرين أوبته ريثما يعود إليهم، ثم يعلمهم بالسبب الذي من أجله سيتركهم بعض الوقت، ويمكثهم به في ذلك المكان، فيقول:{إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا}، ثم يوضح لهم هدفه ومبتغاه من تلك النار فيكمل لهم قائلاً:{لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ}، ثم يذكر لهم هدفًا محتملاً آخر من تلك النار فيقول:{أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ}.

ويختم كلامه عليه السلام بتوضيح نفع تحقق الاحتمال الثاني في حال تحققه فيقول:{لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ}.

فلقد أوضح موسى عليه السلام لأهله الموقف كاملاً شارحًا لهم كل تفاصيله وأبعاده غير مخفي عنهم منه شيئًا، فهل رأيت وضوحًا كهذا الوضوح الشامل لكل أبعاد الموقف، إنه عليه السلام أخبر أهله بما أبصر، ثم شرح لهم خطة سيره إليه، ثم بين لهم الفائدة المرجوة من ذاك الذي أبصر، والمنفعة الخاصة بهم منه واضعًا لذلك كل الاحتمالات المرجوة من نفع لما أبصره، محددًا مدة غيابه عنهم وذلك حين قال لهم:{ءَانَسۡتُ} التي تعني أبصرعن بعد فحدد زمن غيابه عنهم ببعد مسافة ما رآه، وبكلمة امكثوا التي توحي بقصر مدة الانتظار.

كل ذلك برغم حساسية الموقف وحرجه فهو عليه السلام معه أهله في السفر في ليلة شاتية باردة مطيرة، فما الضير لو أنه قال لهم: " امكثوا

ولا يبرحن أحد منكم مكانه ريثما أعود إليكم "، ثم يمضي إلى ما رأى إلى تلك النار التي آنسها باذلاً جهده؛ ليرى خبرها أو يأتي منها بجذوة كما ارتجى وأمل؛ ليدفئ أهله ويؤنسهم بها ملتمسًا لنفسه عذرًا في ألا يخبرهم بما رأى، ولا وجهته إليه لألا يثير خوفهم وهواجسهم، أو يبعث في نفوسهم القلق من تلك النار، فالأفضل لهم إذن ألا يعرفوا وألا يخبرهم حرصًا عليهم ورأفة بهم، ولا شك في أنهم سيطيعون أمره بالمكث ريثما يعود إليهم، فما من سبيل في ذلك الليل المدلهم القارس في اللحاق به، ولا سبيل في تلك الحال الحرجة من باب أولى إلى عصيان أمره أو معارضته أوحتى مجادلته.

إلا أن موسى عليه السلام لم يفعل ولم يخف عنهم شيئًا، ولم يقل لأهله ذاك الكلام السابق وإنما قال ما ذكره الله سبحانه في القرآن الكريم على لسانه عليه السلام:{ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ}.

ثم انظر إلى وضوح موسى عليه السلام ذلك الوضوح المهذب كيف صاغ عليه السلام عبارته، وانتقى كلماتها؛ ليوصل من خلالها لأهله أن تلك النار التي آنسها هي مصدر أمن ونفع وهدى، وكيف أنه حرص ألا يوحي كلامه لهم عن النار بشيء من القلق؛ لئلا يبث في نفوسهم الخوف أو يثيرتوجسهم منها، وإنما أوضح لهم الموقف من أوله إلى آخره باثًا في نفوسهم الأمن والسكينة، مودعًا قلوبهم الأمل والرجاء:{ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ}؛ ليكون ذلك القول نبراسًا يضيء الحياة لكل الشركاء سواء أكانوا شركاء أسرة، أو عمل، أو طريق؛ ليبصروا به ما وري عنهم من دقائق الأسرار وغوامض الخفايا.

هكذا لا بد من الوضوح ما دمنا معًا فلا يعمي أحدنا على الآخر ولا يغمي عليه شيئًا، لكن لابد وأن يظهر كل منا للآخر ما يراه، ويعلمه

بما يعلم؛ لتبدوالأمور لنا جميعًا بكل وجوهها واضحة جلية لا لبس فيها ولا خفاء، بصرف النظر عن كل ما يدعونا من أسباب تغرينا أو تغوينا باتباع الخفاء والغموض والمداراة.

الوضوح خلق كريم لدى جميع أنبياء الله

وإذا ما سرنا قدمًا في نفس الطريق المستقيم قاطعين أحقاب وآماد لنصل إلى عصر النبي الخاتم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم باحثين في سنته المطهرة وسيرته العطرة عن موقف مشابه لهذا الموقف القرآني لموسى عليه السلام، فإنا والله لا نجد موقفًا من سنته وسيرته صلى الله عليه وسلم إلا وهو يدل دلالة واضحة على الوضوح، وكأنه لم يحدث إلا ليبين هذا المبدأ، ويدل على ذلك الخلق، فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينتهج الوضوح مع نفسه، وأهله وأصحابه، بل ومع كل من عرفهم وعرفوه، فسريرته صلى الله عليه وسلم وعلانيته سواء، وكيف لا يكون النبي صلى الله عليه وسلم متصفًا بالوضوح وقد أرسله الله جل وعلا لأجل أن يبين للناس كافة، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم سبل السلام والصراط المستقيم؟! أرأيت رجلاً مثله يستطيع أن يؤدي مهمته في الظلام؟! أو حتى بشيء من ظلام؟!

فالإيضاح إذن وسيلته الأولى في عمله ومهمته بل إن الإيضاح هو نفسه عمله ومهمته وعمل الأنبياء كلهم عليهم السلام من قبله كما قال صلى الله عليه وسلم :{**إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم،...**} [1].

وفي ذلك المعنى قال الله تعالى:{ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ

(1) رواه مسلم.

ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾} [إبراهيم: ٤].

ولهذا وصف الله سبحانه النبي صلى الله عليه وسلم بأنه نذير مبين{ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾} [الأعراف: ١٨٤] ووصف رسالته بأنها النور المبين{ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾} [المائدة: ١٥]. ووصف مهمته بأنها البيان والهدى:{ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾} [النحل: ٦٤]،{وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [الشورى: ٥٢].

ولقد أمر الله عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم بإيضاح كل ما لديه من قدرات وإمكانيات لقومه، فأوضح النبي صلى الله عليه وسلم ما يقدر عليه وما لا يقدر عليه حين سمع قوله تعالى:{ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ } [الأنعام: ٥٠]،{قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾} [الأعراف: ١٨٨].

فلا مكان إذن لدى الأنبياء جميعًا عليهم السلام لأي تعتيم أو إخفاء أو مداراة، وإنما كلامهم ومواقفهم كلها " الوضوح والبيان ".

أساليب النبي في الإيضاح

وإذا ما جئنا لنري أساليب النبي صلى الله عليه وسلم خاصة في البيان نجد أنها قد تعددت، فالنبي صلى الله عليه وسلم قد أوتى جوامع الكلم لذا فقد استخدم كل أساليب ووسائل البيان والإيضاح في الكلام فقد استخدم الحوار، والخطبة، وضرب المثل، وسرد القصة، وكتابة الرسالة، والوصية.. ولم يترك وسيلة من وسائل إيضاح الكلام إلا

واستخدمها منوعًا في ذلك بين الخبر والإنشاء. ولقد روى أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تفهم عنه، وإذا أتى قوم فسلم عليهم سلم ثلاثًا [1]. وعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامًا فصلاً يفهمه كل من يسمعه [2].

أما ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم فقد بين كل شيء، فدلنا على كل خير، وبين لنا مسالكه ودروبه، ونهانا عن كل شر، وبين لنا أعراضه وخطوبه، وأما الزمان فقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم الماضي منه والحاضر والمستقبل، وتركنا على المحجة البيضاء.

مواقف للوضوح من سيرة رسول الله

ومن المواقف التي أوردتها في هذا المقام والتي تدل وتؤكد على انتهاج النبي صلى الله عليه وسلم للوضوح عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**الإسلام أن تشهد إن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه! قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة. قال**

(1) رواه البخاري.
(2) رواه أبو داود.

ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان}. ثم انطلق، فلبثت مليًا، ثم قال:**{يا عمر أتدري من السائل؟}** قلت: الله ورسوله أعلم. قال:**{فإنه جبريل آتاكم يعلمكم أمر دينكم}** [1].

والحديث كله واضح جلي لا غموض فيه ولا خفاء رجل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم، ويسأله أسئلة هامة جدًا، ويجيبه النبي صلى الله عليه وسلم إجابات موفقة سديدة وافية، ويصدق السائل على إجابة النبي صلى الله عليه وسلم، فيعجب الصحابة الحاضرون من أمره، إذا كان يصدقه فهو إذن يعلم أن الإجابة صحيحة، وما دام هو يعلم الإجابة فلماذا يسأل؟ وهذا السائل هم لا يعرفونه فهو بالتأكيد غريب ليس منهم، وإذا كان غريبًا فلا بد أنه قطع الأرض ليصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف ذا وهو لا يبدوعليه أثرالسفر فثيابه ما تزال شديدة البياض وشعره شديد السواد ولا أثر لتراب السفر وغباره عليه، فمن يكون الرجل؟ ومن أين أتى؟ولماذا يسأل النبي صلى الله عليه وسلم ويصدقه؟ ولماذا أتى؟ ولكن لم ينبس أحد من الصحابة الكرام رضى الله عنهم ببنت شفة، ولم يسأل أي منهم عن أي من هاتيك الأسئلة الأربعة التي تدور برؤوسهم، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم الذي لم يكن ليذر أصحابه على ما هم عليه حتى يبين لهم ما حار فيه فكرهم وانشغلت به نفوسهم، فبعدما ينطلق الرجل يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه:**{يا عمر، أتدرى من السائل؟}** فيقول عمر رضى الله عنه: الله ورسوله أعلم، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم :**{فإنه جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم}** هكذا اتضح الأمر وجلي، فلا مكان بعد فيه لأي خفاء، فقول النبي صلى الله عليه وسلم :**{هذا جبريل}** قد أجاب عن الأسئلة الثلاثة الأولى.

---

(1) رواه مسلم.

أما قوله:{**أتاكم يعلمكم أمر دينكم**} فقد كانت إجابة السؤال الرابع والأخير.

هكذا أوضح النبي صلى الله عليه وسلم الموقف بكل جزئياته من أوله إلى آخره أيما إيضاح، وأماط عنه كل خفاء وغموض، وترك أصحابه وأتباعه منه على المحجة البيضاء.

النبي صلى الله عليه وسلم **ينشد الوضوح أيضًا**

والنبي صلى الله عليه وسلم لا يبذل الوضوح فحسب وإنما ينشده كذلك، والشواهد الدالة على ذلك كثيرة والموقف التالي كان من تلك الشواهد، فقد طلب فيه النبي صلى الله عليه وسلم الوضوح من إنسان هو مصدر أمن وموضع ثقة، إنسان يعلم النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة العلم حبه وإخلاصه وافتداءه له ولدعوته بالنفس والمال والولد: إنه أبو بكر الصديق رضى الله عنه في موقف من أحرج ما يكون إبان هجرتهما من مكة إلى المدينة، فقد ذكر الحاكم في مستدركه عن عمر قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة من خلفه حتى فطن له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله فقال له: يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد، فأمشي بين يديك فقال:{**يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني؟**} قال: نعم والذي بعثك بالحق [1].

في الحديث يستنبئ النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق عما حدا به لأن يسير أمامه تارة وخلفه أخرى - هذا برغم عميق خبرته صلى الله عليه وسلم بأبي بكر الصديق وعلمه ببالغ حبه وخالص مودته - ويبدي أبو بكر عن السبب الذي من أجله قد فعل ما فعل وهو لفرط خوفه وحرصه على النبي صلى الله عليه وسلم، فيسأله صلى الله عليه

(1) زاد المعاد.

وسلم سؤالاً آخر يستوضح فيه حقيقة إيثاره له على نفسه وتفديه له بحياته، ويجيب الصديق مقسمًا بالله تعالى الذي بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم بالحق أن نعم، وهذا ماعلمه النبي صلى الله عليه وسلم، وتيقنه مسبقًا قبل أن يسأل عنه، غير أن أمثال تلك الاستيضاحات من شأنها أن تزيد وشائج المحبة وعرى المودة توثقا واشتدادًا؛ فهي لذلك مندوبة مطلوبة.

وموقف ثان ينشد النبي صلى الله عليه وسلم فيه الوضوح كان من قلب معركة بدر الكبرى، عن أنس رضى الله عنه قال: انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه}** فدنا المشركون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض}** قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري رضى الله عنه: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال:**{نعم}**. قال: بخ بخ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{ما يحملك على قولك: بخ بخ؟}** قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال:**{فإنك من أهلها}** فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن. ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة! فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل [1].

في الحديث الشريف يحث النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على الجهاد في سبيل الله مرغبًا لهم فيه بذكر الجنة التي هي موعدهم ومآلهم وبغيتهم، فيذكر من عرضها واتساعه حتى إنه عرض السماوات والأرض، فيمتلئ قلب أحدهم إعجابًا وإكبارًا ورغبة فيها، فيعيد كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه سائلاً ومؤكدًا: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟، ويجيبه النبي صلى الله

(1) رواه مسلم.

عليه وسلم أن نعم، فيزداد حبًا لها ورغبة فيها، فينفعل بذلك وينتشي، وينطلق لسانه مرددًا بخ بخ، ولكن ماذا يعني العمير رضى الله عنه بهاتين الكلمتين القصيرتين، إذ لم يسمع منه غيرهما أما ما أحس به وفاضت به نفسه، فقد كان وقفًا عليه هو فقط ولم يكن من نصيب أحد سواه أن يعرفه، فذلك ما خصه الله سبحانه به، ولم يطلع أحد غيره عليه، ولربما فهم البعض كلمتي العمير رضى الله عنه فهمًا آخر على عكس ما أراد بهما؟!، وهنا يستوضح النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة قول العمير بن الحمام: " بخ بخ "، فينفي العمير رضى الله عنه أي شبهة أو ريبة فيما قصد بتلك الكلمة مبينًا موضحًا حقيقة ما قصده بها والذي ما هو إلا رجاء أن يكون من أهل تلك الجنة الواسعة الشاسعة التي عرضها السماوات والأرض، وعندئذ يبشره النبي صلى الله عليه وسلم بأن رجاءه محقق، وأنه رضى الله عنه من أهلها.

فهكذا لا يترك النبي صلى الله عليه وسلم شيئا غامضًا إلا واستكناه وعرف مقصوده وأوضح مبهمه؛ حتى لا يحتمل الكلام إلا معنى واحدًا واضحًا جليًا لئلا يغمى الأمر أو يلتبس على أحد حتى وإن كان الوقت حيث لا وقت للأسئلة والإيضاح - كما يتوهم البعض -، في أجواء المعركة وقت احتدام القتال.

الوضوح والعلاقات الاجتماعية

ويوم حنين ويوم أن قسم النبي صلى الله عليه وسلم غنائمها فأكثر للمؤلفة قلوبهم وأجزل، ولم يكن للأنصار منها شيء كان للإيضاح في تلك الواقعة شأن عظيم.

لقد كانت غنائم غزوة حنين عظيمة وكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطى وحظي بالأنصبة الجزلة فقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم أبا سفيان أربعين أوقية ومائة من الإبل، فقال ابني يزيد؟ فأعطاه مثلها، فقال ابني معاوية؟ فأعطاه مثلها، وأعطى حكيم بن حزام مائة من

الإبل، ثم سأله مائة أخرى، فأعطاه إياها، وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ثم مائة، ثم مائة - كذا في الشفاء - وأعطى الحارث بن الحارث بن كلده مائة من الإبل، وكذلك أعطى رجالاً من رؤساء قريش وغيرهم مائة مائة من الإبل، وأعطى آخرين خمسين خمسين وأربعين أربعين حتى شاع في الناس أن محمدًا يعطي عطاء ما يخاف الفقر، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة، فانتزعت رداءه فقال: أيها الناس ردوا عليّ ردائي، فوالذي نفسي بيده لو كان عندي شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جبانًا ولا كذابًا.

ثم قام إلى جنب بعيره فأخذ من سنامه وبرة، فجعلها بين إصبعيه، ثم رفعها، فقال: أيها الناس، والله ما لي من فيئكم، ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم.

وبعد إعطاء المؤلفة قلوبهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس، ثم فرضها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل أربعًا من الإبل وأربعين شاة، فإن كان فارسًا أخذ أثنى عشر بعيرًا وعشرين ومائة شاة.

أما الأنصار فلم يعطوا من تلك الغنائم شيئًا، وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع الرسول صلى الله عليه وسلم حتى تبدل الفرار انتصارًا، وهاهم أولاء يرون أيدي الفارين ملأى، أما هم فلم يمنحوا شيئًا قط.

روى ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت فيه القالة. حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة: فقال: يا رسول

الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت؛ قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال:{**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**} قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي. قال:{**فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة**}، فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا، وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال: لقد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى، ثم قال:{**يا معشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله؟وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم؟**} قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال:{**ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟**} قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل - قال:{**أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذبًا فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك. وأوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله** صلى الله عليه وسلم **إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا؛ لسلكت شعب الأنصار اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار**}.

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسمًا وحظًا، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتفرقوا [1].

(1) انظر الرحيق المختوم وهامشه.

يبدأ الموقف بتقسيم غنائم حنين العظيمة وإجزال النبي صلى الله عليه وسلم العطاء لرؤساء القبائل وأشراف مكة، وحرمان الأنصار منها، ووجدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنفسهم ويقول قائلهم: " لقي والله رسول الله قومه "، ويظنون أنهم لم يعد لهم بعد مكان في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فينطلق زعيمهم سعد بن عبادة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شارحًا وموضحًا حال قومه من وجدهم في أنفسهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويسأله النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه وهل يجد فيها ما يجده قومه في أنفسهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ويجيبه سعد بن عبادة بنعم إنما هو رجل من قومه يرى ما يرون، ويعي النبي صلى الله عليه وسلم الموقف وما آل إليه وعيًا تامًا، ويفطن إلى أنه لابد من خطبة من خطبه صلى الله عليه وسلم الجامعة تبين لهم جميعًا عن السبب الذي حمله على تقسيم الغنائم بتلك الطريقة، وبالفعل يطلب النبي صلى الله عليه وسلم انعقاد اجتماع طارئ بالأنصار فقط، ويجتمع القوم وزعيمهم، ويلقي فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمته بعد أن يحمد الله ويثني عليه، ويذكرهم بمنة الله ورسوله عليهم، ثم يذكر دورهم العظيم في مؤازرة دعوته صلى الله عليه وسلم ذاكرًا لهم ما بذلوه وقدموه لنصرة ذلك الدين العظيم، ثم يضع يده على لب القضية وموضع الجرح وهو وجدهم عليه في أنفسهم بسبب الغنائم، فيوضح لهم أنه إنما فعل ما فعل ليتألف بتلك الغنائم قلوب من أعطاها لهم أما الأنصار فقلوبهم مطمئنة بالإيمان، وهم أعلى وأكبر من أن يتألف قلوبهم بلعاعة من الدنيا، وأن المسألة لا تبدو كما يرون إذ هم عنده أغلى من قومه وأعز، ثم يقارن النبي صلى الله عليه وسلم بين ما حازه أولئك وبين ما حازه هؤلاء، وبتلك المقارنة التي عقدها النبي صلى الله عليه وسلم يظهر محاباة النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار في القسمة، وأنه إنما

ميزهم عن سواهم، وإلا فماذا حاز من حاز لعاعة من حطام الدنيا؟! ولكن من حاز رسول الله صلى الله عليه وسلم في رحله فقد حاز أنفس الدنيا وأبقاها، فقد حاز خيري الدنيا والآخرة، ثم لا يكتفي النبي صلى الله عليه وسلم بذا، ولكنه يكمل مبينًا ميزه الأنصار على من سواهم، ويخبرهم أنه لولا الهجرة لكان امرءًا من الأنصار، ولو أن الناس كل الناس سلكوا شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لاختار النبي صلى الله عليه وسلم شعب الأنصار ومسلكهم، ويختم خطبته صلى الله عليه وسلم بالدعاء للأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار.

وتصل رسالة النبي صلى الله عليه وسلم المفيضة الشارحة الموضحة لكل أبعاد المسألة من أولها لآخرها إلى الأنصار، فيعوها ويستوعبوها وتبلغ منهم مبلغها، فيبكوا حتى يخضلوا لحاهم، ويعلموا من الذي أوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم له الكيل وتصدق عليه، من أوفر حظًا وأجزل عطاءً، ويقولوا رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسمًا وحظًا - وأنعم به من قسم وحظ - ثم ينصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتفرقوا قريرة أعينهم راضية أنفسهم برسول الله صلى الله عليه وسلم نصيبًا وحظًا.

ومبدأ الوضوح ظاهر منذ البداية من كلا الطرفين من الطرف الأول وهم الأنصارعندما وجدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنفسهم؛ بسبب قسمته للغنائم، فصارحوه بما حاك في صدورهم وذلك على لسان زعيمهم سعد بن عبادة، ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لم ينظر إلى حكمته من القسمة دون النظر إلى نفوس القوم، فراعى الحكمة في قسمة الغنائم، وراعى دواخل نفوس الأنصار حينما أوضح لهم تلك الحكمة.

وهكذا لا يحل تلك القضية إلا الإيضاح وليبدو الأمر أمام الجميع جليًا واضحًا لا لبس فيه ولا غموض، ولتعد العلاقة بين النبي صلى الله

عليه وسلم والأنصار كأوثق مما كانت عليه، بعدما أراد الشيطان أن ينزغ بينهم، ولكن هيهات هيهات والنبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم؛ ولنتعلم من النبي صلى الله عليه وسلم كيف بالوضوح تنكشف الغوامض وتحل المشكلات، وتصلح العلاقات الاجتماعية بين الناس وتقوى عراها وتشتد وتدوم.

ولم يكن حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الوضوح مقتصرًا على الجماهير الغفيرة والجماعات ذات الأعداد الكبيرة، بل لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصًا على الوضوح حتى على مستوى الأفراد، فعن الصعب بن جثامة رضي الله عنه قال: أهديت رسول الله صلى الله عليه وسلم حمارًا وحشيًا فرده عليَّ، فلما رأى ما في وجهي قال:**{إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم}** [1].

لقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن يوضح للصعب بن جثامة رضي الله عنه سبب رده هديته عندما رأى ما في وجهه من الدهشة والتعجب لعدم معرفة السبب في رد النبي صلى الله عليه وسلم للهدية، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم كاشفًا له عن السبب، مبينًا له العلة التي من أجلها رد الهدية:**{إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم}**.

ولعظم هذا الخلق وهو الوضوح والبيان لمراعاة دواخل نفوس الناس فقد أورد الإمام النووي - رحمه الله - هذا الحديث في كتابه المبارك (رياض الصالحين) تحت باب: حسن الخلق تقديرًا من الإمام رحمه الله لما لذلك الخلق من قدر ومكانة في منظومة الأخلاق التي تتضافر مع بعضها البعض لتشكل في النهاية حسن الخلق.

(1) متفق عليه.

النبي يتخلق بالوضوح حتى في أحلك اللحظات

ومن المواقف التي تذكر للنبي صلى الله عليه وسلم والتي تثبت له ذلك الخلق وتؤكد أنه قد التزمه وتحراه على كل أحواله صلى الله عليه وسلم موقفه يوم وفاة ابنه إبراهيم، ووافق ذلك اليوم أن كسفت الشمس حتى أن المسلمين قد ظنوا أنها قد كسفت لموت إبراهيم.

وقف النبي صلى الله عليه وسلم يومها يوضح حقيقة علمية كونية ثابتة حين قال:{**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته**}.

فهذا هو النبي العظيم برغم ما هو فيه من حزن على فلذة كبده يوضح للناس ما التبس عليهم، ويرفض هذا الربط الذي وقع بين كسوف الشمس ورحيل حبيبه، وكان يمكن أن يصمت وكفى، خاصة في مقام الحزن هذا، وله كل العذر في هذا الوقت العصيب، إلا أنه - وهو الصادق الأمين، رسول الله الذي يدعو إلى العلم ونبذ الخرفات - يرفض هذه المنحة الطبيعية، ويقرر أنها غير مرتبطة - حتى ولو حدثت في هذا الوقت بالذات - بموت فلذة كبده، وحتى لو كسفت الشمس في حنايا نفسه الطاهرة صلى الله عليه وسلم [(1)].

وكيف له ألا يوضح والوضوح كما أسلفنا وسيلته ورسالته وعمله المأمور به.

مواقف للوضوح من بيته الطاهر

وإذا ما توقفنا لحظات مستأذنين على بيت النبي صلى الله عليه وسلم لنرى مواقف للوضوح من بيته الطاهر المطهر إلا ووجدنا من تلك المواقف الكثير، والتي تؤكد على انتهاج النبي صلى الله عليه وسلم لذات الخلق على كل أحواله، ومع كل من عرف صلى الله عليه وسلم،

(1) مجلة منبر الإسلام السنة (68) العدد (3) ربيع الأول 1430هـ - مارس 2009م.

فعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر خديجة أثنى عليها بأحسن الثناء، قالت فغرت يومًا فقلت: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين قد أبدلك الله خيرًا منها! قال:**{ما أبدلني الله خيرًا منها؛ قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء}** [1].

في الحديث يذكر النبي صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها ويثني عليها بأفضل الثناء أمام عائشة المحبة فتغار رضى الله عنها ، وتقول معترضة على كثرة ذكر النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وثنائه عليها: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين قد أبدلك الله خيرًا منها. وهنا يوضح النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة وغيرها بشهادة الحق أمام الله أنه سبحانه لم يبدله خيرًا من خديجة رضى الله عنها :**{ما أبدلني الله خيرًا منها}**.

ثم يوضح دورها العظيم:**{قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس}**.

ثم يوضح النبي صلى الله عليه وسلم مزية أخيرة تميزت بها خديجة رضى الله عنها عن عائشة وعن باقي نسائه رضي الله عنهن وهي:**{ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء}** - إذ لم يكن له ولد صلى الله عليه وسلم من زوجاته إلا من خديجة رضي الله عنهن أجمعين -، فالنبي صلى الله عليه وسلم رغم محبته الشديدة لعائشة، فهي أحب الناس إليه كما ذكر حينما سئل عن أحب الناس إليه، فأجاب بأنها عائشة إلا أن الحب حب والحق حق، ولا يضاد أحدهما الآخر أو يعارضه، ولا بأس في أن تقول لمن تحب ما تريد أن تقول من الحق،

---

(1) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد.

وأن تستدرك عليه، بل لا يكون الحب حبًا حتى يفضي كل طرف للآخر بما يريد، وينبئه بمكنون قلبه، ويخبره بدخيلة نفسه، ويعرفه برأيه كيفما كان هذا الرأي، ويريه ما يرى، ويعلمه بما يرضيه وبما لا يرضيه، فهكذا يتوثق الميثاق ويقوى وتزداد الروابط ارتباطًا، وهذا هو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم، فبرغم حبه الكبير لعائشة رضى الله عنها ، وصادق رغبته في مرضاتها، وبرغم أن خديجة رضى الله عنها كانت قد توفيت فهي الغائبة، وأن عائشة رضى الله عنها هي الزوجة التي كانت ما تزال عائشة شاهدة إلا أن ذلك لا يمنعه صلى الله عليه وسلم أن يوضح أمامها الصورة بأن يشهد لخديجة رضى الله عنها أمام الله سبحانه وتعالى، ثم أمام عائشة رضى الله عنها أنه لم يبدله خيرًا منها:**{ما أبدلني الله خيرًا منه}**، ثم يشرح شرحًا مستفيضًا وافيًا عظيم دورخديجة رضى الله عنها ، ونصرها له صلى الله عليه وسلم ولدعوته:**{قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس}**، ويختم النبي حديثه ذاكرًا مزية لخديجة رضى الله عنها فاقت بها كل نسائه وتميزت بها عليهن:**{ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء}**.

وبذا تتضح الأمور لدى عائشة رضى الله عنها فتسكن الغيرة، ويعرف كل قدره ومكانته فلا تعلو الأصوات مرتفعة معترضة مرة أخرى: " والله لا أعاتبك فيها بعد اليوم ".

والموقف التالي للوضوح يشهد فيه النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها - وإن لم تكن حاضرة فيه - فقد روى البيهقي عن محمد بن عبيد عن إسماعيل ابن أبي حازم قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمروبن العاص في غزوة ذات السلاسل فجاء وقد ظهر. فقال: يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال:**{عائشة}**، قال لست أسألك عن النساء.

قال صلى الله عليه وسلم :{**أبوها أبو بكر**} [1].

سؤال يستكني به الصحابي عمرو بن العاص رضى الله عنه مكنون قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ رغبة في معرفة من من الناس استطاع أن يشرف بالدخول إلى ذلك القلب الطاهر الكبير، ويحظى فيه بالمكان الأكبر والأخص الذي لم يسبقه إليه بشر، ويجيبه النبي صلى الله عليه وسلم بكل وضوح بأن ذلك المسؤول عنه والذي قد حاز الحب الكبير والمكان العظيم في قلبه صلى الله عليه وسلم من الناس هو " عائشة " رضى الله عنها زوجه إذ هي أحب الناس إليه، ولا يخفي النبي صلى الله عليه وسلم حبه الكبير لها، ولا يجانب الحياء إن هو ذكره أليس هو الحق، فكيف يستحي النبي صلى الله عليه وسلم منه، والله تعالى لا يستحي من الحق؟! وهل يجانب المرء الحياء إذا ما باح باسم من يحب إذا ما كان ذلك المحبوب هو زوجه الذي قد أحله الله تعالى له؟!

كلا بالتأكيد؛ وليتعلم الرجال والنساء على السواء من النبي صلى الله عليه وسلم كيف يكون الحب معلنًا ومضاحًا، وأن ذلك غير متعارض مع الحياء أو غيره من شعب الإيمان، وليتعلموا أيضًا بإفصاح النبي صلى الله عليه وسلم عن اسم من يحب كيف يكون الحب للزوج، وأي قدر هو قدره، وأي مكانة هي له.

النبي يأمر بأيضاح الحب

بل إن الحب لأي الناس أمرًا أمرالنبي صلى الله عليه وسلم بإيضاحه والإعلان عنه للناس من جهة وللمحبوب نفسه من جهة أخرى؛ رغبة في نشره وإذاعته مما من شأنه أن يزيد وشائج المحبة بين الناس، ويقلل فجوات التباعد والتباين، فقد قال صلى الله عليه وسلم :{**إذا أحب**

---

(1) رواه البيهقي.

الرجل أخاه، فليخبره أنه يحبه}[1].

وعن أنس رضى الله عنه، أن رجلاً كان عند النبي صلى الله عليه وسلم فمر رجل به، فقال: يا رسول الله إني لأحب هذا، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :**{أأعلمته؟}** قال: لا: قال:**{أعلمه}** فلحقه، فقال: إني أحبك في الله، فقال: أحبك الذي أحببتني له [2].

وقد مثل صلى الله عليه وسلم ما دعا إليه بسلوكه العملي أحسن تمثيل حين قال لمعاذ رضى الله عنه وقد أخذ بيده:**{يا معاذ، والله إني لأحبك..}** [3].

فإلى هذا الحد كان حرص النبي صلى الله عليه وسلم على إيضاح الحب وإشاعته والإعلان عنه.

وموقف للوضوح مع صفية رضى الله عنها أيضًا، فعن أم المؤمنين صفية رضى الله عنها قالت: " كان النبي صلى الله عليه وسلم معتكفًا، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته ثم قمت لأنقلب، فقام معي ليقلبني، فمر رجلان من الأنصار رضى الله عنه، فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا فقال صلى الله عليه وسلم :**{على رسلكما إنها صفية بنت حيي}** فقالا سبحان الله يا رسول الله! فقال:**{إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم. وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًا}** أو قال:**{شيئًا}** [4].

إن النبي صلى الله عليه وسلم يوضح الأمر للصحابيين اللذين رأياه ومعه امرأة ليلاً في الطريق، فأسرعا الخطى حتى لا يسببا حرجًا للنبي صلى الله عليه وسلم، وهنا يحثهما النبي صلى الله عليه وسلم على ألا

---

(1) رواه أبو داود والترمذي.
(2) رواه أبو داود.
(3) رواه أبو داود والنسائي.
(4) متفق عليه.

يفعلا إذ لا داعي للإسراع، فليس هناك من حرج موضحًا أن المرأة التي معه إنما هي زوجه مستخدمًا كلامًا هو غاية في التوضيح والبيان بدأه بإن التي هي حرف توكيد، ثم ذكر اسم المرأة التي معه، والذي يعينها بعينها ويميزها عن كل النساء على وجه العموم، وعن باقي نساء النبي صلى الله عليه وسلم خاصة مشيرًا منبهًا إليها بهاء التنبيه:{إنها صفية}، ويكمل النبي صلى الله عليه وسلم ذاكرًا اسم أبيها " بنت حيي "، فيزيد الأمر إيضاحًا على إيضاح، وعندما يتعجب الصحابيان من ذلك التوضيح المستفيض مؤكدين للنبي صلى الله عليه وسلم حسن ظنهما فيه، ويقينهما أنه صلى الله عليه وسلم فوق مستوى الشبهة، وخارج نطاق الاتهام، فحاشاه صلى الله عليه وسلم أن يرتابا فيه، أو يشكا في أمره، ولم يكن هناك من داع ليوضح عمن معه لهما، وهنا يبين لهما النبي صلى الله عليه وسلم، ويوضح حسن ظنه فيهما، وتأكده من حسن ظنهما فيه، وأن ما دعاه لهذا التوضيح إنما هو أمر خارج عن ذواتيهما هما على وجه الخصوص، ولكنه حقيقة ثابتة، وواقع مطبق على كل إنسان، وهو أن الشيطان يجري منهما ومن كل بني آدم مجرى الدم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم خشى عليهما منه أن يقذف ذاك اللعين في قلبيهما شرًا - أو قال شيئًا.

لقد أوضح النبي صلى الله عليه وسلم الموقف وأجلاه بما لا يدع مجالاً للشك والارتياب حتى وإن كان بطل القصة هوالنبي صلى الله عليه وسلم نفسه الذي لا يساور الناس فيه شك، ولا يخامرهم فيه ارتياب، أوضح الأمر وأجلاه بما لا يدع مجالاً أومكانًا لعمل الشيطان، وليقطع عليه النبي صلى الله عليه وسلم حبل الغموض والتعتيم الذي يتخذه مسلكًا وسبيلاً يمارس فيه أراجيفه ويتقن فيه ألاعيبه.

أوضح الأمر وأجلاه؛ ليعلمنا كيف تدرأ الاتهامات، وتجتنب الشبهات، " ورحم الله عبدًا غب المغبة عن نفسه ".

أم سلمة تبدأ النبي بالوضوح

أما أم سلمة رضى الله عنها فهي التي بدأت النبي صلى الله عليه وسلم بالوضوح عندما جاء يخطبها، فعند ابن عساكر عن أم سلمة رضى الله عنها قالت: "... جاءني النبي صلى الله عليه وسلم فخطبي فقلت: مثلي تنكح؟! أما أنا فلا ولد في، وأنا غيور ذات عيال: قال:**{أنا أكبر منك، وأما الغيرة فيذهبها الله، وأما العيال فإلى الله وإلى رسوله}** [1].

إن أم سلمة رضى الله عنها في الحديث تتعجب من إعجاب النبي صلى الله عليه وسلم بها، ورغبته في الزواج بمثلها، أرأيت امرأة يخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتتعجب من رغبته فيها، وتظهر له من نفسها من العيوب والمثالب ما تراها في نفسها كما فعلت أم سلمة رضى الله عنها ، فهي كبيرة السن حتى أنها قد وصلت لسن لا تلد فيه النساء، وشديدة الغيرة، وذات عيال فما بقي لها من مرغب فيها بعد كل ما ذكرت؟! ومن ذا سيغامر بالاقتران بمثلها؟!

إن إحدانا ليخطبها من لا يبلغ شأو ركاب النبي صلى الله عليه وسلم فلا تخبره بعدد سنوات عمرها، وتنقص أمامه منها الكثير بادعاء القول وتصنع الفعل برغم وجود أوراق موثقة تثبت وقت الميلاد وتحدد سنوات العمر، أما عيوبها فلن تخبره منها أيضًا بشيء، ولن توضح له منها شيء، و إنما ستتركها له مفاجأة بعد الزواج، فلن تقول له كما قالت أم سلمة أنها غيور، أو بخيلة، أو عصبية، أو... فالأيام كفيلة أن توقفه على كل شيء وتكشف له حجاب كل خفي ليلمسه بل ليحترق منه بنفسه، ولكن الذي ستفعله الخطيبة أيام الخطبة هوأن تظهر أمام خطيبها بأحسن صورة، وعلى أحسن خلق فمهمتها الأولى في تلك الفترة هي أن تؤكد له أنها قد حازت مكارم الأخلاق وبلغت فيها حد

(1) حياة الصحابة.

الكمال، وبعد الزواج فإنها ستتخلى عن تلك المهمة ليرى الزوج حينئذ الكوارث الأخلاقية التي لا تأتي من زوجه فرادى.

أما إذا كانت ذات عيال فإنها تعد الخاطب بأنها ستتخلى عنهم إذا ما أراد قبل أول يوم للزواج، وستلقي بهم عند أي أحد وفي أي مكان؛ وذلك طلبًا لمرضاته، واعدة إياه بالمقام الأول والمكانة العليا التي لا يطاولهما عندها أحد من الناس، ثم بعد الزواج يظهر جليًا حقيقة ما انتوت عليه.

ولا يختلف شأن الخاطب في ذلك كثيرًا عن خطيبته إذ إن كل منهما يفعل ما يفعله الآخر، ولكن أم سلمة رضى الله عنها لم تكن كهؤلاء الذين أوضحنا ممن نراهم اليوم وتسوؤنا رؤيتهم، فلقد أوضحت أم المؤمنين أم سلمة للنبي صلى الله عليه وسلم خاطبها ما رأته من نفسها عيبًا، وصارحته بذلك مصارحة أوضحت له صلى الله عليه وسلم كل أبعاد الاقتران بها؛ ولأنها رضى الله عنها على هذا القدر من الوضوح والصدق لم يكن الله سبحانه صارف عنها نبيه صلى الله عليه وسلم، أو راده عن تلك الزيجة المباركة، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم بالراغب عنها برغم كل ما ذكرت، و فيها الوضوح تلك الميزة العظيمة وذلك الخلق السامي، ولكنه صلى الله عليه وسلم داوى لها كل جرح، وحل لها كل مشكل، وجمل إليها من نفسها كل ما رأته قبيحًا، فقال صلى الله عليه وسلم :**{أنا أكبر منك}** ردًا على قولها إنها كبيرة ولا ولد فيها، فعرفت أم سلمة أن ذلك لم يعد عند النبي صلى الله عليه وسلم عيبًا، وقال صلى الله عليه وسلم ردًا على قولها أنها غيور:**{فأما الغيرة فيذهبها الله}** فأمنت أم سلمة من نفسها وعليها بهذه الدعوة وذلك الوعد، وقال صلى الله عليه وسلم :**{وأما العيال فإلى الله وإلى رسوله}** ردًا على قولها ذات عيال " فأمنت على عيالها بعد ما تكفل بهم خير الأنام وأوكل أمرهم إلى الله جل وعلا وإليه صلى الله عليه وسلم.

هكذا حل رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاكل أم سلمة الثلاث بأفضل مما كانت تحلم وتتمنى، وتزوج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونعمت بذلك الزواج مع خير الأنام، وصارت أمًا للمؤمنين، ولم يمنع وضوح أم سلمة قدرًا قدره الله لها مع نبيه صلى الله عليه وسلم؛ لتترك لنا صورة مشرقة للوضوح يتمثلها كل من أقدم على الزواج شارحًا وموضحًا ماله وما عليه للطرف الآخر؛ ليخلو الزواج من أي خداع أو تغرير، وليكن كل منهما على يقين أن تلك المصارحة وذلك الوضوح لن يمنع قدرًا قدره الله سبحانه لأحدهما مع صاحبه.

بلال يوضح أصله وفصله

وما فعلته السيدة أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها كامرأة خطيبة فعله سيدنا بلال بن رباح رضى الله عنه كرجل خاطب. فعن الشعبي قال: خطب بلال رضى الله عنه وأخوه إلى أهل بيت من اليمن، فقال: أنا بلال وهذا أخي عبدان رضى الله عنه من الحبشة كنا ضالين، فهدانا الله، وكنا عبدين، فأعتقنا الله، أن تنكحونا فالحمد لله، وإن تمنعونا فالله أكبر [1].

لقد أوضح بلال أصله وفصله أمام أهل المرأتين اللتين أراد وأخوه أن يتزوجاهما، ثم ترك للأهل حرية الاختيار بين القبول والرفض على بينة من الأمر، إنه الوضوح المهذب الذي لا يجنح إلى التشهير أوالفضح، ولا يميل إلى التغرير أوالخداع، وإنما يخطو خطوات سديدة نحو الحق والنور.

على الطرف الآخر من يعيش في الظلام

كانت تلك ومازالت وستظل صورًا مشرقة للوضوح مع صفوة ممن آمنوا به وتمثلوه خلقًا من أهم وأسمى أخلاقهم ظلت معينًا لا ينضب

(1) حياة الصحابة.

للوارد الملتمس، وكان على الطرف الآخر وما يزال وسيظل المؤمنون بنقيضه الممثلين له الذين لا يعرف لهم دين أوهوية أو انتماء أو توجه أولئك هم المنافقون الذين كان الخفاء سبيلهم والمداراة نهجهم والغموض عملهم، وكانت مشكلتهم الأولى مع أنفسهم حين لم يزكوها لترى بعين اليقين ويتضح لها طريق الله السبيل السوي الصراط المستقيم، وفي وسط تيهها في الطريق المظلم ألبست نفسها ثوبًا من الخفاء سيئًا وحسبته حسنًا إذ كان يظهر لعين الرائي بكل الألوان وهوعلى الحقيقة لا لون له، ولنقيصة في نفوسهم استحبوا العمى على الهدي، وظلوا يتخبطون في الظلام سعداء به ظانين أن لهم به القدرة على أن يقنعوا كل الناس أنهم معهم كل الوقت، وعلى يقين أنهم بتلك المداراة يستطيعون أن يكونوا مع كل الأطراف، وما هم مع أحد وإنما مذبذبين لا مع هؤلاء ولا مع هؤلاء، وتلك هي مشكلتهم الثانية، وعلى ذلك فقد كان عقابهم من الله جل وعلا من جنس عملهم إذ وضعوا في أظلم مكان في النار وأخفاه إنهم في الدرك الأسفل منها قال تعالى:{إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾} [النساء: ١٤٥] وتلك هي بلواهم الثالثة وطامتهم الكبرى.

ونعود للوضوح الذي بتنا ونحن نشبه المنافقين في افتقاده حين خلت منه بيوتنا وعلاقاتنا وتعاملاتنا، وقد أحللنا محله كثير من التكلف والمراوغة والغموض والمداراة حاولنا الاستعاضة بهم عنه، فكم من زوج لا يدري أهله أين يذهب في الليل والنهار ويتركهم وما كنه عمله إذا ما كان يعمل، وكم من زوجة لا يدري زوجها من أمرها إلا ما لا يهم، فقد غلقا الأبواب وأحكما التعليق على أمور كان أحرى أن يطلع كل منهما الآخر عليها، وكم من أبناء ربوا على المداراة والغموض حتى صار ذلك خلقًا لهم، وكم من أسر بأكملها عاش أهلها مع بعضهم البعض وكل منهم قد احتجزه صندوق زجاجي احتبس داخله لا يبرحه

ولا يريد أن يبرحه فلا يعلم الواحد منهم أخاه من أمره شيئًا، ولا يريد الآخر أن يعلمه من أمره شيئًا يكفي كل منهم الرؤية فقط إذا ما تيسرت، عاشوا جميعا في المنزل الواحد كنزلاء الفندق الواحد يشتركون فقط في البناء الذي يحتلونه، ويختلفون في ملايين الحيثيات الأخرى التي لا يشرك الواحد منهم أخاه فيها متعللاً بدافع الخصوصية غير أن الخصوصية بهذا المفهوم الخاطئ لا مكان لها في الأسرة الواحدة.

وكم من خاطب قد غرر بأهل خطيبته وخدعهم وادعى ما ليس له ولا عنده، كم من خطيبة فعلت نفس ذا الأمر بخاطبها، وكم من شركاء اتخذوا الغموض والخفاء سبيلاً فساء لهم سبيلاً إذ نزع الله سبحانه يده من فوق أيديهم وتركهم، فكانت الخيانة شريكهم الثالث الذي أفسد عليهم ما اشتركوا فيه.

لقد أصبحنا ونحن في أمس الحاجة إلى الوضوح ليصلح الله سبحانه به أمرنا كما أصلح به أمر الأولين.

وأخيرًا

لنعد للوضوح تلك الصفة الجامعة لصفات الخير، والتي ما الصدق على عظمه إلا مندرج تحت أبوابها؛ لتصبح قلوبنا منه ملأى كقلوب أولئك المباركين التي تفيض بالنور والصفاء، ولا مكان فيها لحبة خردل من ظلام أو خفاء أو مداراة، قلوب كقلوب أولئك الصالحين الذين كانت سريرتهم واضحة وضوح نفوسهم العظيمة المتجلية بأخلاق لا يغطيها الطلاء، ولا يحجبها الرياء، ولا ترى إلا في حالة واحدة في الليل والنهار، في السر والعلانية، مع الله سبحانه ومع أنفسهم ومع أهليهم ومع الناس أجمعين، أما المراوغة والخداع وما كان في معناهما فلا استعمال له عندهم إلا مع أعدائهم (أعداء الله) من غير الملة وقت الحرب فقط ذلك أن الحرب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم خدعة.

إن محمدًا صلى الله عليه وسلم وموسى عليه السلام ومن تأسى بهم من الناس في أخلاقهم لهم أناس يطيب لك السير معهم، وتحلو الحياة بقربهم، لأنهم أذكياء لماحون، بسطاء، واضحون،...

* * *

أنى لك هذا

القرآن خُلقًا

أَنَّى لكِ هَذَا

قال تعالى:

{ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)} [آل عمران: ٣٧].

التفسير:

{ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا } أي قبل مريم من أمها{بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا } أنشأها بخلق حسن فكانت تنبت في اليوم كما ينبت المولود في العام وأتت بها أمها الأحبار سَدَنة بيت المقدس فقالت: دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنها بنت إمامهم فقال زكريا: أنا أحق بها لأن خالتها عندي. فقالوا: لا حتى نقترع فانطلقوا وهم تسعة وعشرون إلى نهر الأردن، وألقوا أقلامهم على أن من ثبت قلمه في الماء وصعد أولى بها فثبت قلم زكريا فأخذها وبنى لها غرفة في المسجد بسلم لا يصعد إليها غيره وكان يأتيها بأكلها وشربها ودهنها فيجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف كما قال تعالى:{وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا } ضمها إليه وفي قراءة بالتشديد ونصب زكريا ممدودًا ومقصورًا والفاعل الله{كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ} الغرفة وهي أشرف المجالس{وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى } من أين{لَكِ هَذَا قَالَتْ} وهي صغيرة{هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ} يأتيني به من الجنة{إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} رزقًا واسعًا بلا تبعة [1]. وقد ذكر القرطبي في تفسيره: وكان زكريا إذا دخل عليها يجد عندها فاكهة الشتاء في القيظ وفاكهة القيظ في الشتاء فقال: يا مريم أنى لك هذا فقالت: هو من عند الله.

فعند ذلك طمع زكريا في الولد وقال: إن الذي يأتيها بهذا قادر أن يرزقني ولدًا. ومعنى أنى من أين، قال أبو عبيدة. قال النحاس: وهذا فيه تساهل، لأن أين سؤال عن المواضع وأنى سؤال عن المذهب والجهات. والمعنى من أي المذاهب ومن أي الجهات لك هذا [1].

إن الله سبحانه وتعالى قد وضع لنا - بسؤال زكريا عليه السلام للسيدة مريم عليها السلام عن الطعام الذي وجده عندها، ولم يكن قد أحضره لها ومما لم يكن في بيته وهو القائم على كفالتها لا غيره، فسألها عنه قائلاً:{يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا} - مبدأ إسلاميًا إلزاميا لكل من صلح أن طلق عليه لقب (راعي) - إن صح أن نطلق عليه لقبًا - ومن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم نتعلم أن كلمة راعي لا تخص شخصًا بعينه أو طبقة اجتماعية دون سواها، ولكنها كلمة تطلق على كل من يتولى أمرًا من الأمور أو يوكل إليه صغيرًا كان الأمر أو كبيرًا عظيمًا جليلاً أو بسيطًا قليلاً، فالكل مشمول في وقوع الرعاية عليه مشمول في المسؤولية عنها فعن ابن عمر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:{**كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، والإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، فكلكم راع ومسؤول عن رعيته**} [2].

والنبي صلى الله عليه وسلم يبين في حديثه الشريف أن الرعاية تبدأ بأكبر منصب في الدولة وهو الإمام (الحاكم أو الرئيس) وتنتهي بأصغر وظيفة فيها وهو الخادم، وبين أكبر وأهم رجل في الدولة ومسؤوليته الجسيمة العظيمة، وبين أقل وأصغر رجل فيها ومسؤوليته الصغيرة الضئيلة بين هذا وذاك هناك مساحة كبيرة من المسؤولية الاجتماعية ممثلة في كل

(1) تفسير القرطبي.
(2) متفق عليه.

رجل وامرأة زوج وزوجة باعتبارهما ربا كل أسرة القائمين على رعايتها.

وبما أن كل راع - أيا كانت رعيته وأينما كانت - مسؤول عما استرعاه الله إياه أحفظ أم ضيع مصداقًا لقول النبي صلى الله عليه وسلم :**{ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة}** [1].

كان{أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا} سؤالاً يمثل مبدأ أساسيًا لكل من تعهد رعيته وحفظهم بالرعاية والمتابعة والنصح خشية عليهم في الدنيا، وخوفًا من أن يسأل عنهم يوم القيامة، وهذا ما رأيناه من زكريا عليه السلام عندما وجد عند مريم عليها السلام كفيلته طعامًا لم يحضره لها، ومما لم يكن من طعام بيته، ولا يعرف من أين لها به، وهو القائم عليها لا غيره، فسألها سؤال راع يتعهد من يرعاه، ويهتم بكل أموره صغيرها وكبيرها.

النبي صلى الله عليه وسلم **و"أنى لك هذا"**

وإذا ما التمسنا ذلك المبدأ القرآني العظيم{أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا} في سنة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته العطرة إلا ووجدناه أوضح ما يكون وقد ملأ كتب السيرة شاهدًا على أن النبي صلى الله عليه وسلم انتهجه في حياته مبدأ أساسيًا هامًا، واتخذه قاعدة ثابتة راسخة سار عليها، بكل ما يمثله ذلك المبدأ العظيم من أخلاق عظيمة.

ومما يؤيد ذلك من الشواهد ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول:

آلله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر أبوبكر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل، ثم مر بي عمر فسألته عن آية من

---

(1) متفق عليه.

كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني، فمر فلم يفعل، ثم مر بي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما في وجهي ثم قال:{**أبا هر**}. قلت: لبيك يا رسول الله. قال:{**الحق**}. ومضى فتبعته، فدخل فاستأذن، فأذن لي، فدخل فوجد لبنًا في قدح فقال:{**من أين هذا اللبن؟**}. قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة. قال:{**أباهر**} قلت: لبيك يا رسول الله. قال:{**الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي**}. قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال، ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئًا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم، وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاء أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بد، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا، فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت قال:{**يا أبا هر**}. قلت: لبيك يا رسول الله. قال:{**خذ فأعطهم**}. قال: فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليّ القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليّ القدح فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليّ القدح، حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إليّ فتبسم فقال:{**أبا هر**}. قلت: لبيك يا رسول الله. قال{**بقيت أنا وأنت**}. قلت: صدقت يا رسول الله. قال:{**أقعد فاشرب**}. فقعدت فشربت. فقال:{**اشرب**} فشربت، فما زال يقول:{**اشرب**}. حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق، ما أجد له مسلكًا. قال:{**فأرني**} فأعطيته القدح فحمد الله وسمى، وشرب الفضلة [1].

وشاهدنا من الحديث في هذا المقام هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم لأهله سائلاً عن اللبن:{**من أين هذا**}، فلم ينس رسول الله صلى الله عليه

(1) أخرجه البخاري.

وسلم هذا المبدأ ما رآه وعلمه من الجوع الذي أصاب أبا هريرة، ولم ينسه شغله بأهل الصفة أضياف الإسلام وما هم فيه من جوع و فاقة أن يسأل عن مصدر اللبن، ولم يثنه صلى الله عليه وسلم أن يسأل عن مصدر اللبن اصطحابه الضيف ووجوده معه، فسأل أهله عن مصدر اللبن في وجود أبي هريرة ضيفه.

نعم فمهما تكن الظروف وكيفما تكن الأحوال لابد من:**{من أين هـذا}**، إذ كيف للنبي صلى الله عليه وسلم أن يطعم أو يطعم شيئًا من بيته وهو لا يعرف مصدره، ومن أين أتى، وهو الذي بعث بأنى لك هذا؟

ولم يكن مبدأ:**{من أين هذا}** مبدأ انتهجه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته المطهر فقط وقصره عليه، وإنما هو مبدأ لزم النبي صلى الله عليه وسلم في كل أحواله.

- **أنى لك هذا - مع أصحابه** صلى الله عليه وسلم

ولنأخذ مثالاً شاهدًا ومؤيدًا لانتهاج النبي صلى الله عليه وسلم لذات المبدأ مع أصحابه، فقد روى البخاري عن أبى سعيد الخدري رضى الله عنه قال: جاء بلال إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتمر برني فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :**{من أين هـذا؟}** قال بلال: كان عندنا تمر رديٌّ، فبعت منه صاعين بصاع، لنطعم النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك:**{أَوَّه أَوَّه عين الربا عين الربا، لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيع آخر ثم اشتر به}** [1].

وفي الحديث الشريف يجيء بلال النبي صلى الله عليه وسلم بتمر برني جيد ليطعمه، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم يمتنع أن يطعم منه قبل أن يعرف من أين هو وما مصدره، فيسأل بلالاً:**{من أين هذا}** ويخبره بلال بمصدر التمر البرني وهو أنه كان عنده تمر رديّ فباع منه صاعين

---

(1) صحيح البخاري.

بصاع من التمر البرني، معللاً ما دعاه إلى ذلك برغبته في أن يطعم النبي صلى الله عليه وسلم، ومع علم النبي صلى الله عليه وسلم بصدق بلال فيما يقول، وحسن نيته فيما فعل إلا أن ذلك الفعل لم يرق النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول لبلال ضجرًا مما فعل:**{أوَّه أوَّه عين الربا عين الربا}**، ويأمره بألا يفعل ذلك مرة أخرى، ولكن إذا أراد أن يشتري فعليه أن يبيع التمر ببيع آخر ثم يشتري به.

إن تمثل النبي صلى الله عليه وسلم لمبدأ:**{من أين هـذا}** قد أوضح لبلال رضى الله عنه وللمسلمين إلى قيام الساعة قاعدة أساسية هامة في البيوع ما كنا لنعرفها لولا تمثله صلى الله عليه وسلم لذلك المبدأ العظيم إذ فرق به النبي صلى الله عليه وسلم بين البيع الذي أحله الله تعالى والربا الذي حرمه، ولكن ما يثير الدهشة ويبعث العجب أن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف يسأل بلالاً عن مصدر هدية أهداها له ألا وهي (التمر البرني)، وما يضير النبي صلى الله عليه وسلم لو كان قد أكل منها ولم يعرف مصدرها؟!

أليست هدية، والنبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية؟! وعليه فهل يكون لزامًا علينا أن نسأل حتى عن مصدر الهدايا التي تهدى إلينا؟

يبدو أن الإجابة هي نعم فالنبي صلى الله عليه وسلم في الحديث يتأكد من مصدر ما يهدى إليه لئلا يداخله الريب فيه، وليقبله وهو مطمئن خلوه من أي شبهة وسلامته من أية ريبة، وكيف لا يسأل النبي صلى الله عليه وسلم ويتحرى، وهومن علمنا أن من أكل لقمة من حرام فالنار أولى به؟!وكيف لا يسأل وهو القائل:**{إني لأنقلب إلى أهلي، فأجد التمرة ساقطة على فراشي فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون صدقة فألفيها}** [(1)].

إن سبب امتناعه صلى الله عليه وسلم عن أكل التمرة من على فراشه بعد

---

(1) صحيح البخاري.

أن هم أن يأكلها ورفعها إلى فيه الشريف هو أنه لا يعلم من أين هي ولو أنه علم طهارة مصدرها لأكلها؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم بذلك أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا في التقوى والورع.

- أنى لك هذا - مع الولاة

والنبي صلى الله عليه وسلم مع الولاة على نفس ذا المبدأ سائر في اقتفائه وتمثله، فعن أبي حميد عبد الرحمن بن سعد الساعدي رضى الله عنه قال: استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللتبية على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أهديَّ إليّ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:{**أما بعد فإني استعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله، فيأتي فيقول: هذا لكم، وهذا هدية أهديت إليّ، أفلا جلس في بيت أبيه أو أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقًا، والله لا يأخذ أحد منكم شيئًا بغير حقه إلا لقي الله تعالى، يحمله يوم القيامة، فلا أعرفن أحدًا منكم لقي الله يحمل بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر**} ثم رفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه فقال اللهم هل بلغت " ثلاثًا [1].

وفي الحديث يظهر جليًا تمسك النبي صلى الله عليه وسلم بمبدأ:{**من أين هذا**}.

وشاهدنا من حديثه السابق مع ابن اللتبية واليه هو قول ابن اللتبية: هذا أهديَّ إليَّ. الذي هو رد على سؤال ضمني من رسول الله صلى الله عليه وسلم نصه:{**من أين لك هذا**}؟ فيجيبه ابن اللتبية بالجواب السابق، فيأتي تنبيه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك تنبيهًا شديد اللهجة إذ يقوم صلى الله عليه وسلم على المنبر خطيبًا؛ ليبين لأصحابه وقتئذ وأتباعه إلى قيام

---

(1) متفق عليه.

الساعة

خطورة ما ادعاه ابن اللتبية فيما أهديَّ إليه مبينًا أثره السيئ البغيض على صاحبه، ومبينًا مبدأ:{**من أين لك هذا**} مؤكدًا ضرورة الالتزام به وعدم الحياد عنه في الحياة كلها بوجه عام، وفي أمور الولاية بصفة خاصة، مبينًا أساس ذلك المبدأ العظيم، وهوأن يأخذ كل إنسان ما له ويترك ما ليس له.

الصديق و "أنى لك هذا"

ولما كان لهذا المبدأ من ضرورة بالغة وأهمية قصوى على مستوى الفرد والجماعة، وعلى مستوى الحاكم والمحكوم، وعلى مستوى الأسرة الصغيرة والمجتمع الكبير؛ فقد أوردت له في هذا المقام أمثلة عديدة تؤكد سير أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه على ذات المبدأ، وذلك بذكر شواهد من كتب السيرة نبدؤها بقصة لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، فقد روى البخاري عن زيد بن أرقم قال: كان لأبي بكرغلام يخرج له الخراج - أي قد كاتبه على مال - وكان يجيئه كل يوم بخراجه فيسأله: من أين أتيت بها؟ فإن رضيه أكله وإلا تركه، قال فجاءه ذات ليلة بطعم وكان أبو بكر صائمًا فأكل منه لقمة ونسي أن يسأله ثم قال له: من أين جئت بهذا؟ فقال: كنت تكهنت لأناس في الجاهلية وما كنت أحسن الكهانة إلا أني خدعتهم، فقال أبو بكر: أف لك كدت تهلكني. ثم أدخل يده في فيه فجعل يتقيأ ولا يخرج، فقيل له إنها لا تخرج إلا بالماء فدعا بماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى قاء كل شيء في بطنه فقيل له: يرحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة؟ فقال رضي الله عنه: لولم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:{**كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به**} فخشيت أن ينبت بذلك في جسدي من هذه

اللقمة [1].

إلى ذلك الحد يبلغ حرص الصديق أبي بكر رضي الله تعالى عنه على مبدأ:{من أين هذا}، فكم هو مبدأ هام غاية الأهمية عنده، فهو دائمًا ينتهجه وعادة يتمثله، وعندما ينسيه الشيطان ذلك المبدأ ولو لثوان قليلة يشاء الله سبحانه أن يذكره به، فيئوب أبو بكر إليه وبه يتدارك ما فاته من تقصير ونسيان معربًا عن سبب شدة التزامه بهذا المبدأ، وعظيم اعتصامه به، وما ذلك إلا لشدة عقوبة المخالفة.

الفاروق و " أنى لك هذا "

وإذا ما انتقلنا لثاني الصاحبين، ثاني الشيخين، ثاني الراشدين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ملتمسين ذات المبدأ عنده إلا ووجدناه عنده مبدأ من أهم المبادئ التي تمسك بها الفاروق شديد التمسك والتزمها عظيم الالتزام حتى إنه ليوحي لقارئ سيرة عمر رضى الله عنه أنه لشدة تمسكه بذلك المبدأ قد أكسبه خصائص وميزات خاصة، وذلك بأن زاد في إحساس حواسه فجعلها أرهف وأقوى، فقد أورد العقاد في عبقريته عن عمر رضى الله عنه أنه: سقاه غلامه ذات يوم لبنًا فأنكره، فسأله: ويحك! من أين هذا اللبن؟

قال الغلام: إن الناقة انفلت عليها ولدها فشرب لبنها فحلبت لك ناقة من مال الله [2].

فكيف فرق عمر بن الخطاب بين لبن ناقته ولبن غيرها؟هذه التفرقة السريعة مع أن الإبل جميعًا ترعى في مرعى متقارب وفي مناخ واحد؟.

يبدو أن عظيم تمسك عمر بن الخطاب بمبدأ " من أين لك هذا " كان سببًا من أسباب هذه التفرقة السريعة بل إن شئت قلت من أهم أسبابها.

---

(1) رواه البخاري.

(2) عبقرية عمر.

وما كان ليفوت عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يتمثل مبدأ " من أين لك هذا " في بيته مع زوجه وولده، والشواهد على ذلك كثيرة، فقد أخرج ابن سعد وابن عساكر عن ابن عمر رضى الله عنه قال: أهدى أبو موسى الأشعري رضى الله عنه لامرأة عمرعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل رضى الله عنه طنفسة أراها تكون ذراعًا وشبرًا، فدخل عليها عمر فرآها فقال: أنى لك هذه؟ قالت أهداها لي أبو موسى الأشعري فأخذها عمر فضرب بها رأسها حتى نقض رأسها ثم قال: عليَّ بأبي موسى الأشعري وأتعبوه، فأتي به قد أتعب، وهو يقول: لا تعجل عليَّ يا أمير المؤمنين، قال: ما يحملك على أن تهدي لنسائي، ثم أخذ بها عمر، فضرب بها فوق رأسه، وقال: خذها، فلا حاجة لنا فيها [(1)].

هكذا كان " مبدأ من أين لك هذا " دليلاً على غيرة الرجل، ومعينًا له في حفظ بيته، واستغنائه عن الناس.

و ما يزال في بيت عمر رضى الله عنه مواقف كثيرة مؤيدة لمبدأنا فقد أخرج الدينوري في المجالسة عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: قدم بريد الروم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاستقرضت امرأة عمر بن الخطاب دينارًا فاشترت به عطرًا وجعلته في قوارير وبعثت به مع البريد إلى امرأة ملك الروم فلما أتاها فرغتهن وملأتهن جواهر، وقالت: اذهب إلى امرأة عمر ابن الخطاب، فلما أتاها فرغتهن على البساط، فدخل عمر بن الخطاب فقال: ما هذا؟ فأخبرته بالخبر، فأخذ عمر الجواهر فباعه ودفع إلى امرأته دينارًا وجعل ما بقي من ذلك في بيت المال للمسلمين [(2)].

لقد كان مبدأ " من أين هذا " معينًا لعمر بن الخطاب رضى الله عنه أيضًا في تنقية مال الدولة من خاصة مال أهله، وعزل شؤونها عن شؤونهم.

وقصته مع زوجه والحلوى دليلاً آخر على ذلك ففي يوم من الأيام اشتهت

(1) حياة الصحابة.

(2) حياة الصحابة.

زوجة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه حلوى. فقال لها: من أين لي ثمن الحلوى فأشتريها. فقالت له: لقد ادخرت ثمنها من قوتنا. فقال لها: ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به أولى، فقومي لبيت المال رديها [1].

ولم يكن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع أولاده أقل تمسكًا بالمبدأ منه مع أزواجه، وإنما سار على نفس الحال في التحري والحرص على معرفة مصادر أرزاقهم فقد أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والبيهقي عن ابن عمر رضى الله عنه قال: اشتريت إبلاً وارتجعتها إلى الحمى، فلما سمنت قدمت بها، فدخل عمر السوق فرأى إبلاً سمانًا، فقال: لمن هذه الإبل؟ فقيل لعبد الله بن عمر، فجعل يقول: يا عبد الله بن عمر، بخ بخ ابن أمير المؤمنين، فجئت أسعى، فقلت: ما لك؟ يا أمير المؤمنين، قال: ما هذه الإبل؟ قلت: إبل اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى ابتغي ما يبتغي المسلمون، فقال: وإذا رأى المسلمون إبلك قالوا: ارعوا إبل ابن أميرالمؤمنين، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين، يا عبد الله بن عمر، اغد على رأس مالك واجعل الفضل في بيت مال المسلمين [2].

وفي تمثل ذلك المبدأ أيضًا ما ورد عنه في محاسبته ابنيه على مال اتجرا فيه وذلك حين خرج عبد الله وعبيد الله في جيش إلى العراق، فلما قفلا نزلا بالبصرة، وذهبا إلى أبي موسى الأشعري وهو أميرها، فقال لهما: لو أقدر على أمر أنفعكما به؟ ثم عرض عليهما أن يحملا إلى أبيهما مالاً من مال الله فيشتريا به متاعًا من العراق يبيعانه بالمدينة، ثم يؤديان رأس المال ويكون لهما الربح، فلما علم عمر سألهما أكل الجيش أسلفه؟! ثم أمرهما أن يؤديان المال وربحه، فسكت عبد الله وقال عبيد الله: ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا، لو نقص هذا المال أو هلك لضمنّاه!وقال رجل في المجلس: يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضًا؟ فأخذ رأس المال ونصف

(1) أنيس المؤمنين.
(2) حياة الصحابة.

ربحه، وأخذ ابناه نصف ربح المال [1].

تلك هي المتابعة للأهل والولد وبهذا المبدأ تكون محاسبتهم ووقايتهم والنفس قبلهم من نار وقودها الناس والحجارة.

وعمر مع ولاته يمضي سائرًا على سابق عهده مع نفسه وأهله وولده في تمثله لمبدأ " من أين لك هذا؟ " فقد كان عمر يحصي أموال الولاة ثم يستصفي ما زاد عليها كلما فشت لهم فاشية من النعمة لا يخبرونه بمصدرها [2].

هكذا كان عمر إذا لم يعرف من أين لهم بهذا؟ وإلا صادر تلك الزيادة التي لا يعلم من أين لهم بها إلى بيت مال المسلمين.

لقد تمثل عمر بن الخطاب رضى الله عنه المبدأ في نفسه وفي بيته مع أهله وفي حكومته مع ولاته منتهجًا ما انتهجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق لأنه كما قال ترك صاحبيه على جادة فإن ترك جادتهما لم يدركهما في المنزل.

" أنى لك هذا " في كل أمور الحياة

بيد أن مبدأ " من أين لك هذا؟ " مبدأ لا يقتصر انتهاجه والأخذ به في الرزق المادي من مطعم، وملبس، ومسكن،... فقط وإن كان ذلك من أولوياته لشديد تنبيه النبي صلى الله عليه وسلم في أكثر من مناسبة، إلا أنه مبدأ تدعوالحتمية الدينية إلى الأخذ به وانتهاجه في كافة الأمور الحياتية المادية منها والمعنوية، فلا بد أن يناقش كل إنسان ما لديه من أفكار ومبادئ وتصورات ولا يقتصر في ذلك على نفسه فقط وإنما عليه أن يبدأ معها بمن يعول ولا ينتهي بهم، فيوسع دائرة نفعه لكل من يستطيع أن ينفعه من الناس، فيناقشهم في أفكارهم ومبادئهم وتصوراتهم عارضًا

(1) عبقرية عمر.
(2) عبقرية عمر.

ما لديه ولديهم على كتاب الله وسنة نبيه، فإن وجد خلقًا ينكره، أو فكرة ينبذها عندئذ لابد وأن يسأل " من أين لك هذا؟ " فإن وجد على ذلك دليلاً من كتاب الله العزيز أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم علم أن جهله بما يجهل وإنكاره لما ينكر إنما هو من ظلام نفسه وران قلبه، وعليه صار ما ينكر أو يجهل خلقًا سائدًا سائرًا عليه وعلى من سواه، وأما إن كان الأمر خلاف ذلك مما لم ينزل الله تعالى به من سلطان كان سؤاله " من أين لك هذا؟ " تمحيصاً للصواب من الخطأ، وتمييزًا للغث من الثمين، ومثبتًا للحق مؤيدًا له مزهقًا للباطل داحرًا له.

الله سبحانه يأمر بـ " أني لك هذا "

ولقد كان اتخاذ مبدأ (أنى لك هذا) في تمحيص الأفكار وتمييز صحيحها من باطلها، جيدها من رديئها مبدأ قرآنيًا أقره الله تعالى في كتابه الكريم، وأوصى به نبيه صلى الله عليه وسلم، بل وأمره بانتهاجه في مناظراته مع أعداء الله من الكفار والمشركين.

قال تعالى:{ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾} [الأحقاف: ٤]، وقال تعالى:{سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾} [الأنعام: ١٤٨].

هكذا كان البحث عن مصدر تلك الادعاءات الباطلة للكفار والمشركين هو أساس المناظرة معهم، ومفتاح دحض كل ما يدعون، وإلا فإن كانوا حقًا صادقين في دعواهم فليثبتوا إذن على أي أساس يرتكزون، وعلى أي دليل يعتمدون، ومن أين لهم بما يعضد وجهة نظرهم، ويؤيد صدق زعمهم؟

" أنى لك هذا " حتى يوم القيامة

بل وإن مبدأ " من أين لك هذا؟ " لا يقتصركذلك على الحياة الدنيا فقط، وإنما هو من أهم المبادئ يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، إنه مبدأ أساسي ساري الصلاحية حتى يوم القيامة وفي يوم القيامة، فقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أنه:**{لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه}** [1].

هكذا يلاحقنا المبدأ حتى يوم القيامة فيومئذٍ يسأل كل منا عن ماله من أين اكتسبه؟ " من أين لك هذا؟ " سؤال يطرحه علينا الله جل وعلا الذي يعلم السر وأخفى سبحانه، يسألنا به وهو أعلم عن مصدر كل ما يطلق عليه مال صغيرًا كان أو كبيرًا، وإنه لسؤال إلزامي إجباري هام وهو مع ذلك صعب عسير إذ تمكثنا الإجابة عنه وعن ما معه من أسئلة في أرض المحشر، فلا تزول منها أقدامنا إلى جنة أو نار إلا بعد الإجابة عنه، وذلك بتقديم تقريرًا مفصلاً وافيًا صادقًا عن كل ما ورد إلينا من مال في الحياة الدنيا، تقرير لله العليم الجبار مالك يوم الدين سبحانه.

ألا يجعلنا ذلك نشعر بعظم ذلك المبدأ وأهميته القصوى وضرورة تمثله في الأمور كلها؟!

إنه مبدأ تنبني عليه الدنيا ويصلح به أمرها وتقوم عليه الآخرة إذ بالإجابة عنه يكون الذهاب إلى الجنة، أوالسحب إلى النار.

كيف نصنف " أنى لك هذا "

وإنك إذا ما أردت أن تصنف ذاك المبدأ فإنك لا تدري أين يمكنك أن تضعه في منظومة الأخلاق وتحت أي باب من أبوابها يندرج؟ ذلك أن

(1) رواه الترمذي.

خلق المتابعة الذي يمثل مبدأ أنى لك هذا هو خلق يفرض نفسه على كل الأخلاق فإن سألت أهو تحت العدل فكونك عادلاً لابد أن تسأل " أنى لك هذا؟ " ليعطى كل ذي حق حقه؟

أم تحت الرحمة فكونك رحيمًا ترحم نفسك وغيرك لابد أن تسأل " أنى لك هذا؟ "

أم تحت الفطنة فكونك فطينًا لابد وأن تقدر من أين هذا وأنى لهذا بهذا؟

أم تحت الغيرة فكونك غيورًا للحق وعليه لابد أن تسأل " أنى لك هذا؟ "

أم تحت الأمانة فكونك أمينًا لابد أن تتحرى فتسأل " أنى لك هذا؟ "

أم تحت الورع فكونك ورعًا متبرئًا من كل شبهة لابد وأن تسأل " من أين لك هذا؟ ".

أم تحت...، أم تحت...، أم تحت...

إنه مبدأ تكتنفه كل الشمائل، ويندرج تحت كل مكارم الأخلاق فلا تستطيع وإن حاولت جاهدًا أن تصنفه تحت خلق بعينه أو تضمه إليه، وإنما كل خلق آخذ منه بنصيب، وإن أبيت إلا تصنيفه فاجعله تحت المبدأ العام الذي يضبط الإيمان والأخلاق إنه " التقوى " جماع الأمر في الإسلام؛ لأنه المصل الواقي والدواء الشافي لكل أمراض المجتمع التي يندرج تحتها أخذ حق الغير بغير وجه حق.

الأخذ به لا يقتضي الشك

وقبل أن ينتهي حديثنا في هذا المقام عن المبدأ العظيم " أنى لك هذا؟ " ننوه أن الأخذ به لا يقتضي الشك أوالارتياب فيمن يوجه إليهم، والشاهد على ذلك أنه سأله نبي كريم هو زكريا عليه السلام لكفيلته الصديقة مريم سيدة نساء العالمين عليها السلام، ووجهه النبي صلى الله عليه وسلم لآل بيته الأطهار عليهم السلام ولصحابته الأبرار رضى الله عنهم، وإنما يقتضي الأخذ به الحرص على تطبيق منهج الله كما أمر سبحانه.

وأخيرًا

" أنى لك هذا؟ " مبدأ وضعه الله سبحانه وأوضحه في كتابه لعباده؛ رفقًا بهم وحبًا لهم وحرصًا عليهم، وجعله سؤالاً إلزاميًا يوم لا ينفع مال ولا بنون، واقتفاه النبي محمد صلى الله عليه وسلم والذين معه وتابعيهم من الصالحين، واتخذوه قاعدة ثابتة ساروا عليها، ومبدأ تمثلوه في كل أمورهم وأحوالهم؛ فوضح لنا كم هو مبدأ من أهم المبادئ الإسلامية وألزمها بكل مسلم على كل أحواله مع نفسه، ومع أهله، ومع رعاياه، ومع من عرفهم أيما وأينما كانوا؛ تحصنًا به في الدنيا، واستعدادًا به في الآخرة على ما ماثله من سؤال.

* * *

قالوا لا ضير
إنا إلى ربنا منقلبون

القرآن خُلقًا

قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ

قال تعالى:

{فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾} [الشعراء: ٣٨ - ٥٠].

التفسير:

ورد تفسير تلك الآيات ص25 - 27 لذا فقد رأيت أن أقتصر في هذا المبحث على إيراد تفسير الآيات موضع الشاهد القرآني فقط.

فغلب فرعون غلبًا لم يشاهد العالم مثله. وكان وقحًا جريئًا عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل فشرع يتهددهم ويتوعدهم بقطع الأيدي والأرجل والصلب. فقالوا{لَا ضَيْرَ} أي لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به{إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ} أي المرجع إلى الله عز وجل وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً ولا يخفى عليه ما فعلت بنا وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء [1].

في الآيات يبدو فرعون جادًا يجمع السحرة لإجراء مناظرة بينهم وبين موسى عليه السلام، ويبدو السحرة طامعين متطلعين إلى عطاء فرعون راغبين في أجر عظيم على عملهم، ويشترطون على فرعون قبل المناظرة وقبل أن يقدموا ما عندهم من سحر أن ينيلهن ما طلبوا إذا ما

(1) تفسير ابن كثير.

نجحوا في الانتصار على موسى عليه السلام، فيعدهم فرعون بما طلبوا وأكثر بأنهم سيكونون من خاصته المقربين، وتتم المناظرة ويجتمع السحرة ومعهم فرعون ومن اجتمع من المدائن بموسى عليه السلام، ويجتهد السحرة في تقديم ما لديهم من فنون السحر.

فيلقون ما بأيدهم مما أعدوه من حبال وعصي، ويخيلون بسحرهم للناس أنها تسعى عازمين على الغلبة مقسمين على ذلك بعزة فرعون، ويلقي موسى عليه السلام عصاه فتلقف ما يأفكون، وينقلب السحر على الساحر، ويظهر أمامهم موسى عليه السلام على حقيقته التي هو عليها، وبمهمته التي اختاره الله سبحانه لها، فيتأكد لديهم أن موسى عليه السلام ليس بساحر، وأن عمله ليس كعملهم، وإنما هو نبي كريم، وأن عمله عمل رسول مؤيد من الله جل وعلا؛ فيخرون سجدًا لله تعالى مؤمنين بموسى عليه السلام نبيًا رسولاً معلنين غلبته عليهم، ومعلنين معها صدق نبوته أمام فرعون وملئه، فلقد أنساهم مشهد الحق دورهم الذي من أجله اجتمعوا، فلم يذكروا أنهم قد أعدوا لأن يكونوا أبطال ذلك الموقف، لأن يكونوا هم الغالبين في هذا اللقاء لا ليكونوا هم المنصاعين المغلوبين، ونسوا مع ما نسوه الرجل الذي دعاهم وجمعهم لهذا الموقف، ووعدهم بجزيل العطاء وبالحظوة عنده، لقد نسوا فرعون! وها هو يقف متحيرًا مرتبكًا مما فعله السحرة، ومما وضعوه فيه من موقف محرج، ويتعجب ويستنكر عليهم فعلهم ويلومهم على ما فعلوا قائلاً: كيف لكم أن تؤمنوا به قبل أن تعلموني وتستأذنوني لقد اجترأتم عليَّ بعملكم هذا، وإني لأعد ما فعلتموه تطاول ووقاحة بل هو أعظم من ذلك، فهوعندي كبيرة من الكبائرالتي لا كفارة لها، وستنالون عقابكم عليه، الذي سيكون هو الأشد الأغلظ سأقطع أطرافكم من خلاف، ولن أترككم مكتفيًا بذلك بل سأزيدكم عذابًا فوق العذاب لأصلبنكم وأنتم على هذه الحالة المخزية المؤلمة أجمعين، فلن ينجو من عذابي أحد، ولن ارحم منكم من أحد.

ويقابل السحرة كل هذا الوعيد والتهديد بما ينقضه ويمحو أثره مفوتين على فرعون متعة التشفي ولذة الانتقام جاعلين تهديده ووعيده يتضاءل حتى تصل قيمته الصفر وأقل، قابلوه بموقف للصمود والتحدي هو أقوى من تجبره وصلفه، موقف للصمود من خلاله محوا من نفسه كل إحساس بالقدرة عليهم، ومحقوا من شعوره كل ظن بالانتصار، ونفوا من نفسه كل أثر للغلبة حينما استهانوا بتهديد عزم على إيقاعه بهم، ولم يكترثوا بكل ما تشنج وذكر.

كان ذلك الموقف حينما نطقوا بكلمات قصيرة اختزنوا فيها كل ثقة واطمئنان، وعبروا بها عما يسكن نفوسهم من أمن وسكينة وثبات، كلمات قصيرات ولكن ليست كالكلمات فلقد كانت كالرصاص المصوب إلى قلب فرعون ورأسه ليسكن فيهما الحنق والغيظ واليأس، ذلك حينما قالوا:{لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ}.

فلقد عرف السحرة الله جل وعلا، فهان عليهم في سبيله كل غال ونفيس - تهون علينا في المعالي نفوسنا -، حتى وإن كان ذلك النفيس هو (أجسادهم)، فما مآل تلك الأجساد وإن لم تلق إلا النعيم والهناء إلا إلى الرم والبلى، فما من بأس، ولا ضير بعد أن سلمت نفوسهم بمعرفة الحق، وتيقنوا أن مآل أرواحهم إلى الله سبحانه.

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت ::: بما فقدناه من مال ومن نشب

وفي تفسير الآية يقول الشيخ الشعراوي - رحمه الله - مبينًا سبب قولهم:{لَاضَيْرَ}: " قال السحرة:{لَاضَيْرَ} لأنهم حتى لو لم يقتلهم فرعون فإنهم سيموتون، ولكن حينما يقتلهم سيسعدون بلقاء ربهم في حين يشقى فرعون بذلك اللقاء، ولماذا لا يقولون:{لَاضَيْرَ} وهم راجعين لله وقد خرجوا من ألوهية باطلة إلى لقاء ألوهية حق، وقد أسدى فرعون إليهم

فضلاً حينما أسرع لهم بذلك اللقاء " [1].

ولقد قال السحرة كلمتهم:{لَاضَيْرَ} في وجه رجل من أعتى وأظلم من عرفهم التاريخ الإنساني، إنه شخص قد بلغ من الجبروت والطغيان أن ادعى الألوهية فكانت كلمتهم رمزًا للصمود، ومثالاً للتصدي لقوى الباطل وأحزابه مهما بلغت من القوة.

وإذا ما أكملنا مسيرتنا على نفس الخطى وفي نفس الطريق طريق الصمود والتحدي للطغاة الظالمين عابرين الأزمان متخطين المكان ملتمسين موقف للنبي صلى الله عليه وسلم يمثل خلق الصمود في وجه الصلف والتجبر إلا وجدنا من ذلك الكثير، فعديدة هي المواقف التي تؤيد ذلك وتدل عليه خلال حياته المباركة، فلقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم في طريق دعوته إلى الله ما لقي من عنت وصلف وعتو واستكبار عليه وعلى دعوته، فقابل كل ذا بأعظم مما قابل السحرة تهديد فرعون ووعيده، وتفوق صموده على صمودهم، وكيف لا وهو متميز عليهم، وعلى الناس أجمعين؟! فالنبي صلى الله عليه وسلم قد فاق الأولين والآخرين إذ هو خير ولد آدم، فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد الناس في دين الله، وأكثرهم به اعتصامًا واعتضادًا، غير أني لن أذكر من تلك المواقف المؤيدة لذلك الخلق للنبي صلى الله عليه وسلم واحدًا، ولا أكون متجاوزة إن أنا ذكرت وذاك لأنه صلى الله عليه وسلم قد حاز مكارم الأخلاق وتمثلها وتفوق فيها بما لا يبارى ولا يقارن، فلقد كانت الأخلاق رسالته التي قد أرسله الله بها وهذا ما ذكره صلى الله عليه وسلم :**{إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق}** [2]، ولقد التزم ما جاء به أحسن التزام، فما من خلق كريم لبشر من خلق الله تعالى مذ خلق الله آدم عليه السلام إلى قيام الساعة إلا كان للنبي صلى الله عليه وسلم منه النصيب الأكبر

---

(1) تفسير الشعراوي.

(2) رواه البخاري.

والحظ الأوفر، ولا يكون ذكري للنبي صلى الله عليه وسلم بخلق ذكر فيه قبله السحرة من قوم فرعون مقللاً من شأنه العظيم صلى الله عليه وسلم، أو منزلاً من مكانته العلياء، فإن فعلت تمثلت في ذلك خلقًا ربانيًا لله جل وعلا، فلقد ضرب الله تعالى من قبل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس.

لا تنكروا ضربي لــه مــن دونــه ::: مثلاً شرودًا في النــدى والبــاس
فالله قد ضــرب الأقــل لنــوره ::: مــثلاً مــن المشــكاة والنــبراس

ولكني مغضية الطرف عن ذكره صلى الله عليه وسلم في هذا المقام؛ لأني أردت كما ذكرت أتباع موسى عليه السلام في خلق الصمود في وجه الظلم، وتمسكهم بما عرفوا من الحق أن أذكر حال أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وكيف كان صمودهم وتمسكهم بما جاءهم به صلى الله عليه وسلم، تلك الفئة التي رأت النور على يد من أنزل عليه في حين لم يره آخرون كان بيدهم بعض مقاليد أمور هؤلاء المهتدين، فلقوا منهم عنتًا وتجبرًا وتطاولاً وهم في طريق الحق سائرين إلى الله تعالى، وهاهم صابرون صامدون ولنقف مع أحد الصحابة الكرام رضى الله عنهم؛ لنرى ما ذكرناه من الثبات والصمود في وجه التجبر والطغيان إبان تعذيب أهل مكة لهم، ولنسمع كلمات منه أشبهت في معناها:{لَاضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ}.

خبيب يقول لا ضير بقلبه ولسانه

وها هو خبيب بن عدي رضى الله عنه يأسره أعداء الله، ويخبرونه أنه عما قريب سيشنق ويصلب، ويخرجونه إلى ساحة الإعدام والصلب، ويرى بأم عينه عدة وعتاد ما قد أعدوه له، فلا يزيده ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا وثباتًا وصمودًا واعتصامًا بالله سبحانه، وينشد شعرًا في لحظة يعدها الناس حرجة مرة، ولكنه بشعره الذي كشف عن خبيئة نفسه ومكنون صدره يخبر بأنها من أسعد وأهنأ لحظات حياته، فقد أخرج الطبراني حديث عروة بن الزبير رضى الله عنه بطوله، وفيه: وقتل خبيبًا

رضى الله عنه أبناء المشركين الذين قتلوا يوم بدر. فلما وضعوا فيه السلاح وهو مصلوب نادوه وناشدوه: أيسرك أن محمدًا صلى الله عليه وسلم عندنا نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال: لا، والله ما يسرني أني في أهلي وأن محمدًا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه. وقال خبيب رضى الله عنه حين رفعوه إلى الخشبة:

لقد أجمع الأحزاب حولي وألبوا ::: قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم ::: وقربت من جذع طويل ممنع
إلى الله أشكوغربتي بعد كربتي ::: وماجمع الأحزاب لي عند مضجعي
فذا العرش صبرني على ما يرادبي ::: فقد بضعوا لحمي وقد يؤس مطمعي
وقد خيروني الكفر والموت دونه ::: فقد ذرفت عيناى من غير مدمع
وما بي حذار الموت إني لميت ::: وإن إلى ربي إيابي ومرجعي
ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ::: على أي شق كان في الله مضجعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ::: يبارك على أوصال شلو ممزع (1)

فلقد أوضح خبيب رضى الله عنه للكفار وجهه نظره فيما يفعلونه به، وذلك أن كل ما أقدموا عليه كان في الحقيقة له لا عليه{ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا } [التوبة: ٥١] فما ظنوه انتقامًا منه كان معروفًا أسدوه إليه، فحين قربوه من الخشبة ليصلبوه عليها قربوه على الحقيقة إلى الله الحبيب الغالي سبحانه، وغدا لقاؤه المنتظر وشيكًا موقوتًا فقط بانتهاء الحياه، فما أهون الحياة إذن على صاحبها، وما أشد شوقه إلى ذلك الموعد، وليرى كل من رأى أو سمع أو قرأ عن خبيب رضى الله عنه إثر ذلك اليقين متمثلاً في صورة من الصمود في أسمى معانيه.

وبتوضيح خبيب رضى الله عنه وجهة نظره فيما يفعله به الكفار أحال تهديدهم ووعيدهم وتعذيبهم إلى لا شيء، وتيقنوا أنه لا ضير يصيب خبيبًا إن كان ما يقوله حقًا - وهو حق ولا شك - إذن فليس غريبًا ألا

(1) حياة الصحابة، زاد المعاد.

تبالي يا خبيب بالموت إذ ما يضيرك وقتلك في ذات الإله وأنك إلى الله منقلب.

الصمود ليس قصرًا على الرجال

هذا ولم يكن ذلك الصمود قصرًا على الرجال من أولي العزم الأقوياء في زمن بعينه، وإنما هو خلق أصيل عند كل من عنده مبدأ يدافع عنه، ويسعد بما يلاقي في سبيله أيا كان رجلاً أو امرأة، فها هي ماشطة بنت فرعون يؤيد موقفها ما ذهبنا إليه، فعن ابن عباس رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**لما أسري بي مرت بي رائحة طيبة فقلت: ما هذه الرائحة فقالوا: ماشطة بنت فرعون وأولادها سقط مشطها من يدها فقالت: بسم الله. فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قالت ربي هو ربك ورب أبيك. قالت أولك رب غير أبي؟ قالت: نعم فدعاها فقال: ألك رب غيري؟ قالت: نعم ربي وربك الله. فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ثم أمر بها لتلقى فيها وأولادها فألقوا واحدًا واحدًا حتى بلغ رضيعًا فيهم فقال: قعي يا أم ولا تقاعسي فإنك علي الحق**} [1].

لقد كان مبدأ:{لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ} مدعاة لتلك المرأة المؤمنة للصبر، ودافعًا لها إلى الصمود، ومثبتًا لها على الطريق المستقيم، وإلا فما من أم تحتمل معشار ما احتملته الماشطة رضى الله عنها .

ويشبه الماشطة في موقفها كل النساء اللاتي تعرضن للاضطهاد والتعذيب ممن اتبعن الرسل عليهم السلام على مر العصور سواء أكان ذلك التعذيب جسدي أو نفسي، قد وقع على الحرائر منهن والإماء ضريبة دفعنها على إيمانهن بالله تعالى من دمائهن وأنفسهن{وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨} [البروج: ٨] فهذه أم المؤمنين أم سلمة وتلك سمية أول شهيدة في الإسلام وهذه زنيرة وغيرهن الكثيرات يضيق المقام

(1) رواه أحمد والبزار وابن حبان وغيرهم.

عن سرد بطولاتهن ومواقفهن المشرقة والتي تجسد صمودهن وثباتهن وتمسكهن بالحق.

للغلمان نصيب من الصمود

ولقد كان للغلمان أيضًا نصيب من الثبات والصمود ليس بالقليل فقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قصة أحدهم فعن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:{**كان ملك فيمن قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إليّ غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، وكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، وكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر. فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال: اليوم أعلم الساحرأفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره. فقال له الراهب: أي بُني، أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء. فسمع جليس للملك، كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ماهاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله تعالى، فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك، فآمن بالله تعالى فشفاه الله تعالى، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال ربي. قال: ولك رب غيري؟! قال ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله تعالى، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء**

بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم اكفينيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: أذهبوا به فاحملوه في قرقور وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام ثم ارم، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه فمات. فقال الناس: آمنا برب الغلام، فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك؛ قد آمن الناس. فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخدت وأضرم فيها النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها - أو قيل له: اقتحم - ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أماه اصبري فإنك على الحق} [1].

لقد كان بطل القصة في الحديث الشريف غلامًا نفذ مبدأ:{لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا

(1) رواه مسلم.

مُنقَلِبُونَ}. عمليًا إيمانًا به ويقينًا، وقاد به جبار من جبابرة الأرض من حيث لا يدري إلى كفر الناس به، وعلى ملأ من الناس في مشهد مهيب أثبت عدم أهلية ذاك الأرعن لأن يعبد من دون الله جل وعلا، وكان مشهد النهاية في القصة نفسها من نصيب غلام أيضًا سار على المبدأ عينه مشجعًا أمه لأن تسير هي الأخرى عليه:**{يا أماه اصبري فإنك على الحق}** دالين بذلك على أن الصمود موقف ليس وقفًا على الكبار فقط، وإنما الكبار والصغار فيه سواء، وأن بذا المبدأ العظيم والخلق العالي الرفيع يصير الصغير كبيراً.

ولكم قرأنا في الكتب عن بطولات إسلامية للأولين فاقت الخيال تمثل أصحابها الصمود والثبات خلقًا من أهم أخلاقهم، وعمودًا من أهم أعمدة إيمانهم الراسخة القوية، وما نزال نرى ولله الحمد صورًا من تلك البطولات المشرفة، ومشاهد مشرقة من ذلك الصمود الذي يملأ النفس اعتزازًا بالإسلام وأهله في بقاع مباركة من الأرض، والذي يجمع الأولين والآخرين أنهم آمنوا بربهم فزادهم الله إيمانًا، فرأوا الحق والباطل رأي العين، وأدركوا ما بينهما من هوة، وحينما رأوهما رأوا أنفسهم بجوار الحق ضئيلة صغيرة من دونه، عظيمة جليلة به، فأمسكوه بأيديهم واعتصموا به غير مبالين بما أصابهم في سبيله، فما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا حتى بلغوا ربهم، إنهم أناس وجدوا الله أكبر كل شيء، ووجدوا لقاءه أسمى غاية، والجهاد في سبيله سبيلاً موصلاً لهم لتلك الغاية السامية، فوطأوا في طريقهم الشوك والنار، وبذلوا أنفسهم للموت ذائقين في ذلك طعم السعادة واجدين فيه الحياة.

وللحق أيضًا أن الصمود والثبات هو خلق كل صاحب حق حين وجده.

* * *

غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل
يداه مبسوطتان

القرآن خُلقًا

غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء

قال تعالى:

{وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾} [المائدة: ٦٤].

التفسير:

{وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ} لما ضيق عليهم بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا أكثر الناس مالاً{يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ} مقبوضة عن إدرار الرزق علينا كنوا به عن البخل تعالى الله عن ذلك قال تعالى:{غُلَّتْ} أمسكت{أَيْدِيهِمْ} عن فعل الخيرات دعاء عليهم{وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} مبالغة في الوصف بالجود وثني اليد لإفادة الكثرة إذ غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطي بيديه{يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ} من توسيع وتضييق لا اعتراض عليه.{وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} من القرآن{طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا} لكفرهم به{وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ} فكل يوم فرقة منهم تخالف الأخرى{كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ}.

أي لحرب النبي صلى الله عليه وسلم{أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ} أي كلما أرادوه ردهم{وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا} أي مفسدين بالمعاصي{وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ} بمعنى أنه يعاقبهم [1].

{غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ} كان ردًا من الله

(1) تفسير الجلالين.

سبحانه على من سولت لهم أنفسهم من اليهود على الاجتراء على مقام العبودية العالي بقولهم:{يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ} كناية عن العجز أو البخل وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، ولما كان تطاول اليهود ووقاحتهم واصلاً إلى هذا الحد بأن لم يعد عند تطاولهم من حد يقفوا عنده كان رد الله سبحانه عليهم بقول هو أقوى مما ادعوا، ورد رادع لسخافاتهم ومضحدًا لها إذ لم يكتف الله جل وعلا في الرد عليهم بأن يورد كذب ما قالوا بأن يقول سبحانه: لا بل يده مبسوطة ولكنه يبدأ رده عليهم بقوله جل شأنه:{غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ} وهو إما أن يكون دعاء عليهم بأن تغل أيديهم، ولكن كيف يدعو الله سبحانه عليهم وهو القادر لا غيره على إنفاذ الدعوة؟ ومن الذي سيدعوه الله والله أكبر كل شيء؟! إذن فإن ذلك القول خبر بوقوع العذاب عليهم بأن الله تعالى بالفعل قد غل أيديهم [1]، وأعجزهم عن فعل الخيرات، ويشمل " أن يكون الغل في الدنيا أو في الآخرة، فإن كان في الدنيا، فيحتمل أن يراد به البخل أوغل أيديهم في الأسر، وإن كان في الآخرة، فهو جعل أيديهم في الأغلال في جهنم " [2] جزاءً على ما قالوه عنه سبحانه، ثم يذكر الله سبحانه أنهم لعنوا بما قالوا وطردوا من رحمته التي وسعت كل شيء؛ وذلك جزاء ما قالوا، ثم يذكر الله جل وعلا مبينًا مثبتًا حقيقة ما هو عليه سبحانه، والتشديد على نفي ما ادعوه فيقول عز من قائل:{بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ}، فيثني اليدين سبحانه كناية عن عظيم جوده وكرمه جل وعلا، ويدخل في المعنى أن يكون{بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ} بالثواب لقوم وبالعقاب لآخرين [3] وعليه تكون{بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ} تهديدًا لهم بواقع بسط العذاب عليهم - أي اليهود - وتنضم إلى ما سبقها من الآية الكريمة{غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ} فيكون من هذا المعنى مجتمعًا إخبارًا من الله على عاجل

---

(1) تفسير الشعراوي.
(2) التسهيل لعلوم التنزيل.
(3) تفسير الشعراوي.

وآجل وقوع العذاب بهم ردًا بالقول والفعل على اجترائهم على مقام العبودية العالي، ثم يقرر الله سبحانه حقيقة أخرى حين يقول{يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ} تكبيتًا لهم وتحسيرًا أي لو شاء الله أن يوسع بالإنفاق عليهم لفعل لكنهم لا يستحقون ولا يستأهلون، وتكمل الآيات الكريمة بإعطاء النبي صلى الله عليه وسلم وأمته مناعة إيمانية ضد كل تمرد عليه، وضد كل تأبي من المخالفين من أهل الكتاب بأن يوطن نفسه، ولتوطن أمته نفسها على أن اليهود لن يتركوه، ولن يكتفوا بهذا القدر وإنما كلما جاءته نعمة من الله سيحسدونه عليها بلددهم وعنادهم وبحقدهم ونفاقهم؛ فليجعل النبي صلى الله عليه وسلم بذلك القول وهذا الاجتراء من اليهود لنفسه مناعة لما سيقال بعد [1].

ولكن لماذا لم يرد الله سبحانه على اليهود بإيقاع العذاب بهم مباشرة دون أن يرد على قولهم عقابًا لهم على ادعائهم الكاذب وزعمهم الباطل كما عاقب سبحانه أقوام ادعوا من دونه آلهة؟ لماذا رد على قولهم بقول مصاحب للفعل؟

أما الإجابة على ذلك - والله أعلم -، فإنهم بالفعل قد وقع عليهم العذاب، وغلت أيديهم وكتب عليهم من وقتها البخل واللعنة وليعلمنا الله جل وعلا حين نسمع وصفًا لا يليق بجلال الله كيف نرد " [2].

وليظل قولهم في القرآن الكريم يتلى مسجلاً عليهم تطاولهم واجترائهم على جنابه العالي، وليظل قول الله سبحانه ردًا بالقول والفعل داحرًا لقولهم الخسيء، ومزهقًا له ورادعًا لكل من تسول له نفسه منهم ومن غيرهم التطاول على الله سبحانه، ولنتعلم كيف بقوة الحجة يزهق باطل القول، وكيف بحسن الرد تدرأ المزاعم، وتدفع الادعاءات وتخرس ألسنة السوء.

---

(1) تفسير الشعراوي.
(2) تفسير الشعراوي.

نوح عليه السلام ومواجهة المناوئين للحق

ولأنبياء الله سبحانه الكرام صلى الله عليهم وسلم الذين تخلقوا بالأخلاق الربانية أمثلة من ردود رادعة بالقول والفعل لكل متطاول مجترئ، ولنتوقف مع أول رسل الله نوح عليه السلام لنرى ونسمع كيف كانت مواجهته للمناوئين للحق من قومه المتطاولين عليه.

قال تعالى:

{وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾} [هود: ٣٦ - ٣٨].

التفسير:

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم وعذابه لهم فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبرًا عنه أنه قال:{رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا} [نوح: ٢٦]،{ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾} [القمر: ١٠] فعند ذلك أوحى الله إليه:{أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ} فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم{ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ } يعني السفينة{بِأَعْيُنِنَا} أي بمرأى منا{وَوَحْيِنَا} أي تعليمنا لك ما تصنعه{وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ } وقوله{وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ} أي يهزءون به ومكذبون بما يتوعدهم به من الغرق{قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ} الآية. وعيد شديد وتهديد أكيد [1].

كان ذلك هو موقف نوح عليه السلام من الكفار المكذبين من قومه حين أخبره الله تعالى أنه لن يؤمن منهم من أحد بعد من آمن، وعندئذ بدأت المواجهة الشديدة لكفرهم وعنادهم إذ لمَ يبقي عليهم نوح عليه السلام وقد

---

(1) تفسير ابن كثير " باختصار ".

تبين له أنهم من أصحاب الجحيم؟ ولمَ يتلطف معهم في الحديث إذا كان الكفر هو طريقهم وبغيتهم والنار هي موعدهم ومآلهم؟ إذن فلا لين معهم ولا ترفق، وإنما الكيل لهم كما يكيلون، والرد عليهم بما يقولون، ومواجهة كفرهم وعنادهم بالقول والفعل.

فيصنع عليه السلام السفينة كما أمره الله سبحانه، ولا يكتف بأن يعمل في صمت وهو على يقين بعاجل قدوم العذاب إليهم، ولكنه كما ورد في الآية الكريمة يسخر منهم كلما سخروا منه، ويعيبهم إذا عابوه، ولا يقبل نقدهم الهدام وآراءهم السلبية فيه وفي عمله، ويردع بقوله قولهم ويردهم منه على أدبارهم، وإذا ما عادوا إلى ما هم فيه عاد للردعليهم بمثل قولهم غير متيح لهم فرصة للنيل منه إذا ما كان في وسعه الرد والمواجهة{إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ }.

إن نوحًا عليه السلام حقًا من أولي العزم من الرسل إذ يرد على قوم وصفهم الله جل وعلا بأنهم أظلم وأطغى{وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾} [النجم: ٥٢] بقول مساو لقولهم وسخرية تعدل سخريتهم، هذا مع ما ذاقه منهم من التعذيب والإيذاء إذ كانوا " مع عدم إيمانهم به يؤذونه ويضربونه " [1] ويهددونه بأكبر أنواع العذاب{قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾} [الشعراء: ١١٦] غيرأن ذلك لم يمنعه أن يرد عليهم ردًا جريئًا، ويقول لهم قولاً سديدًا يميط به عن نفسه وعمله أي سخريه أو استهزاء، ويقذع فيهم وفي عقولهم، ويوقع بهم ما حاولوا أن يوقعوه به.

حقًا لقد كان قول نوح عليه السلام قولاً يقتضيه الموقف ويستدعيه، ولقد كانت مواجهته لهم بالقول والفعل مواجهة قوية موفقة سديدة استطاع بها أن يقف في وجه صلف وتجبر الكفار من قومه.

---

(1) تفسير الجلالين.

موسى عليه السلام يواجه أعتى ملوك الأرض

ولقد كان لذلك الرد الرادع وتلك المواجهة القوية أمثلة عديدة وأشباه كثيرة من كلام رسل الله عليهم السلام ومواقفهم ردًا على أقوال وأعمال أقوامهم المكذبين المعاندين الواقفين أمام الحق، أوردت منها قولاً لموسى عليه السلام إبان مناظرته لعدو الله فرعون.

قال الله تعالى:{ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا } [الإسراء: ١٠١ - ١٠٢].

التفسير:

{ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ} وهي اليد والعصا والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس والسنين ونقص الثمرات {فَسْـَٔلْ} يا محمد{بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ} عنه سؤال تقرير للمشركين على صدقك، أو فقلنا له: اسأل وفي قراءة بلفظ الماضي:{إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا } مخدوعًا مغلوبًا على عقلك{ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ } الآيات:{إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ} عبرًا، ولكنك تعاند وفي قراءة بضم التاء:{وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا } هالكًا أو مصروفًا عن الخير [(1)].

لقد كان قول فرعون لموسى عليه السلام قولاً هو الغاية في التطاول والتبجح وعدم الأدب مع رسول كريم من رسل الله عز وجل معه من الآيات ما يثبت صدق نبوته، ولكنه بطر الحق وغمط الناس هو ما دفع فرعون ليقول ما قال:{وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا }، وعليه كان رد موسى عليه السلام غاية في الردع والقمع والتهديد لفرعون والنيل منه

(1) تفسير الجلالين.

بمثل ما قال وزيادة:{لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا } لقد كان رد موسى عليه السلام على فرعون ردًا يقتضيه الموقف إذ ماذا عساه عليه السلام أن يقول له، وقد كذب من الآيات البينات ما عدده تسعة، ولم يكتف بالتكذيب، وإنما حاول القدح في عقل موسى عليه السلام أمام الملأ من قومه، وذلك بقذفه بأنه مسحور؟! فهل يرد موسى عليه السلام على ذلك الصلف والتكبر والعنجهية بالقول اللين والتلطف والرفق بأن يقول لفرعون مثلاً أصلحك الله وهداك، إني لأظنك يا فرعون مهتديًا ويومًا ما ستؤوب إلى الله جل وعلا؟! لا، لم يعد بعد لهذا القول من مكان بعدما كان من فرعون ما كان، فلقد فصل تطاوله الحكم في القضية ضده، وعليه فقد كان قول موسى عليه السلام الذي ذكره الله جل وعلا في القرآن الكريم هو القول الذي لا غيره أنفع منه، بل هو المطلوب لا سواه.

ولقد راعى موسى عليه السلام في كلمته اللفظ والمعنى: فمن حيث المدلول كانت كلمة (مثبورًا) تحمل من معاني القوة ما تحمل من التهديد والردع، ومن حيث اللفظ فقد جاءت على الوزن المماثل للكلمة التي قالها فرعون وعلى نفس الفاصلة{مَسْحُورًا }،{مَثْبُورًا }، وتلك هي المواجهة للقوة الغاشمة المدعية الألوهية كذبًا بالحق الدامغ والحجة القاطعة، ولله در موسى عليه السلام حين علمنا كيف، ومتى الشجاعة تكون، وكيف يكون الرد محرجًا للخصم مخرسًا له.

النبي صلى الله عليه وسلم **وخلق المواجهة**

وإذا ما أكملنا مسيرتنا على نفس الخطى وفي نفس الطريق طريق الصمود والتحدي للطغاة الظالمين بالرد عليهم بالفعل المخالف لفعلهم، والقول المناوئ لقولهم عابرين الأزمان متخطين

المكان ملتمسين موقفًا للنبي صلى الله عليه وسلم للصمود في وجه الصلف والتجبر إلا ووجدنا من ذلك كثيرًا، فعديدة هي المواقف التي تؤيد

ذلك وتدل عليه خلال حياته المباركة، فلقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم في طريق دعوته إلى الله ما لقي من سخرية واستهزاء واتهام ومقاطعة له ولآله ومكر به وتآمر عليه لإخراجه أو إثباته أو قتله، فقابل كل ذا بأعظم مما قابل نوح عليه السلام ظلم قومه وطغيانهم، وبأكبر مما قابل به موسى عليه السلام صلف فرعون وتكبره، وكيف لا، وهو متميز عليهما عليهم السلام وعلى الناس أجمعين بالمقام والرتبة، فالنبي محمد صلى الله عليه وسلم خير من وطئ الثرى إذ هو خير ولد آدم، والحمد لله رب العالمين.

وإذا عدنا لما نحن بصدده وهو المواقف التي تجسد خلق المواجهة للشر وأهله نذكر منها أولاً موقفًا أخرجه الإمام أحمد عن عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال: قلت له ما أكثر ما رأيت قريشًا أصابت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كانت تظهر من عداوته؟ قال: حضرتهم - وقد اجتمع أشرافهم في الحجر - فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سفه أحلامنا، وشتم آباءنا وعاب ديننا، وفرق جماعتنا وسب آلهتنا. لقد صبرنا منه على أمر عظيم - أو كما قالوا - قال فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشي حتى استقبل الركن ثم مر بهم طائفًا بالبيت. فلما مر بهم غمزوه ببعض ما يقول. قال: فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى. فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى. فلما مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فقال: أتسمعون يا معشر قريش أما والذي نفس محمد بيده! لقد جئتكم بالذبح. فأخذت القوم كلمته حتى ما فيهم رجل إلا على رأسه طائر واقع حتى أن أشدهم فيه وضاءة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن ما يجد من القول حتى أنه ليقول: انصرف أبا القاسم، انصرف راشدًا، فوالله ما كنت جهولاً، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر - وأنا معهم - فقال بعضهم لبعض ذكرتم ما

بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه.

فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فأطافوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم، قال فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{نعم، أنا الذي أقول ذلك}**. قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه وقام أبو بكر رضى الله عنه دونه يقول وهو يبكي: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشًا بلغت منه قط.

أرأيت مواجهة للغضب الهادر كتلك المواجهة؟ وهل قدر لك أن تسمع رد قوي مثل ذلك الرد؟ وهل عرفت من أحد قال كلمات رادعة مثبطة لقوى الشر في مواجهة معه وجهًا لوجه كتلك المواجهة ككلماته صلى الله عليه وسلم؟.

لقد أصر النبي صلى الله عليه وسلم على أن يرد على الكفار وسخريتهم وغمزهم بما هو أقوى مما أتوا به فكان رده عليهم تهديدًا ووعيدًا يعلمون هم مقداره من الحقيقة والصدق.

الهجرة مواجهة يقتضيها الموقف

وموقف آخر للنبي صلى الله عليه وسلم نعرضه في هذا المقام يثبت له أحقيته لأعظم مراتب القدرة على المواجهة القوية، إنه موقفه صلى الله عليه وسلم إبان الهجرة المباركة تلك الحادثة التي يطلق عليها بعض الكتاب الغربيين " هروبًا و فرارًا " وأنى لهم بتلك التسمية الخاطئة وذلك الوصف المجحف؟ فما هي من ذلك في شيء، ولو أنهم أنصفوا ما قالوا الذي قد قالوا، فلو أنها كانت فرارًا أو هروبًا لكان التسليم للمشركين أو مساومتهم حلاً أحسن منها وأيسر، فلماذا لجأ النبي صلى الله عليه وسلم للصعب إذن وبيده ألا يلجأ إليه؟!، إذ لم تكن هجرته صلى الله عليه وسلم إلا

مظهرًا من مظاهر الشجاعة والمواجهة للموقف بما يقتضيه، وإلا فكيف تواجه رجلاً مسلحًا يصوب نحوك سلاحه يريد قتلك؟ هل تفتح له صدرك وترفع يديك لتثبت أنك تواجهه؟! إنك إن فعلت ذلك أثبت حمقًا وسذاجةً لا مواجهةً وشجاعةً، وإنما مواجهته تكون بأن تحتال لتطويقه وإعجازه فإن استطعت وقدرت عليه فحينئذ تكون قد واجهته حقًا بما لا يقدر هو عليه، وبما لم يضعه في الحسبان.

وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين هاجر وانتقل بالدعوة لأرض طيبة قبلت الإيمان، وأنبتت من المؤمنين ما أقر الله به عين النبي صلى الله عليه وسلم ونصر بهم دعوته، وأعانه بهم لتطويق الشر وإخضاعه وردعه تمثل ذلك في غزوات وفتوح كان منها فتح تلكم البلدة التي آذى أهلها النبي صلى الله عليه وسلم وواجهوه بالشر والسوء فكان ذاك الفتح هو التطويق والإعجاز، وكانت تلك هي المواجهة الناجحة الموفقة، والرد المفحم الرادع.

النبي صلى الله عليه وسلم **يردع بالقول وسط أتون المعركة**

وللنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ردودُ مشابهة في القوة والردع لم تسجل لهم فقط في وقت السلم، وإنما كانت وسط آتون المعركة الملتهب بل وبعد تحقق هزيمتهم فيها كان ذلك يوم أحد بعد انتهاء المعركة فقد ذكر صاحب كتاب زاد المعاد الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - في كتابه شاهدًا مؤيدًا لذلك حين قال: " ولما انقضت الحرب أشرف أبو سفيان على الجبل فنادى أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه، ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم، فقال أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه

أن قال: يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء وقد أبقى الله لك ما يسوءك. فقال: قد كان في القوم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني، ثم قال: أعل هبل فقال النبي صلى الله عليه وسلم :**{ألا تجيبونه؟}** فقالوا فما نقول؟ قال: قولوا:**{الله أعلى وأجل}**. ثم قال لنا العزى ولا عزى لكم قال:**{ألا تجيبونه؟}** قالوا ما نقول؟ قال:**{قولوا الله مولانا ولا مولى لكم}** [1].

كان ذلك رد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على ما رماهم به عدوهم حينئذ أبو سفيان بن حرب، ولقد كان ردًا رادعًا حوله علق ابن القيم الجوزية - رحمه الله - قائلاً: " فأمرهم - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم - بجوابه عند افتخاره بآلهته وبشركه تعظيمًا للتوحيد، وإعلامًا بعزة من عبده المسلمون وقوة جانبه، وأنه لا يغلب ونحن حزبه وجنده، ولم يأمرهم بإجابته حين قال أفيكم محمد أفيكم ابن أبي قحافة أفيكم عمر بل قد روي أنه نهاهم عن إجابته، وقال لا تجيبوه لأن كلمهم لم يكن برد بعد في طلب القوم ونار غيظهم بعد متوقدة، فلما قال لأصحابه أما هؤلاء فقد كفيتموهم حمي عمر بن الخطاب واشتد غضبه وقال: كذبت يا عدوالله فكان في هذا الإعلام من الإذلال والشجاعة وعدم الجبن والتعرف إلى العدو في تلك الحال ما يؤذنهم بقوة القوم وبسالتهم، وأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا، وأنه وقومه جديرون بعدم الخوف منهم، وقد أبقي الله لهم ما يسؤهم منهم، وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثلاثة وهلة بعد في ظنه وظن قومه أنهم قد أصيبوا من المصلحة وغيظ العدو وحزبه والفت في عضده ما ليس في جوابه حين سأل عنهم واحدًا واحدًا فكان سؤاله عنهم ونعيهم لقومه آخر سهام العدو وكيده فصبر له النبي صلى الله عليه وسلم حتى استوى في كيده، ثم انتدب له عمر فرد سهام كيده عليه وكان ترك الجواب أولاً عليه أحسن وذكره ثانيًا أحسن، وأيضًا فإن في ترك إجابته

(1) زاد المعاد.

حين سأل عنهم إهانة له وتصغيرًا لشأنه فلما منته نفسه موتهم، وظن أنهم قد قتلوا وحصل له من الكبر بذلك والأشر ما حصل كان في جوابه إهانة له وتحقير وإذلال، ولم يكن هذا مخالفًا لقول النبي صلى الله عليه وسلم لا تجيبوه، فإنه إنما نهى عن إجابته حين سأل أفيكم محمد أفيكم فلان أفيكم فلان ولم ينه عن إجابته حين قال: أما هؤلاء فقد قتلوا، وبكل حال فلا أحسن من ترك إجابته أولاً ولا أحسن من إجابته ثانيًا، ثم قال أبو سفيان يوم بيوم بدر والحرب سجال.

فأجابه عمر فقال: " لا سواء قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار " [1].

ما أروعه من موقف جسد قوة الإسلام وأهله برغم ما هم فيه من هزيمة خلفت قتلاً وتمثيلاً إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم في قلب تلك الأحداث المؤلمة الحزينة لا يتخلى عن خلق المواجهة ورد باطل القول بالرد الرادع المفحم، ولا يكتفي صلى الله عليه وسلم بأن يعلم أصحابه رضى الله عنهم ما يقولون من قول يردعون به قول الكفار ويكفون به أذاهم، وإنما يعلمهم أيضًا متى يكون لقولهم الأثر الأعمق والردع الأكبر، متى يكون جزاء سيئة سيئة مثلها.

إن من شرار الناس من يحثهم حسن المعاملة وطيب الكلام على الوقاحة والتبجح، ويمنحم التأدب في الحديث معهم إحساسًا بمكانة ليست لهم؛ ولذا فهؤلاء وجب ردهم وإبطال تطاولهم وإخماد تبجحهم ووقاحتهم بالقول الرادع المفحم، والمواجهة القوية الشديدة، ولعلهم يجدون في تلك الردود وهاتيك المواجهات ما يصلح به نفوسهم الخبيثة، أوعلى أضعف الإيمان يخرس ألسنتهم ويبعد أذاهم عن عباد الله الصالحين.

---

(1) زاد المعاد.

صــــفحنا عــــن بــــني ذهــــل ::: وقلنــــا القــــوم إخــــوان
عســــى الأيــــام أن يرجعــــ ::: ــــن قومًــا كالــذي كــانوا
فلمــــا صــــرح الشــــر ::: وأمســــى وهوعريــــان
ولم يبــق ســوى العــدوان ::: دنــاهم كمــا دانــوا
شــددنا شــدة الليــث ::: غــدا والليــث غضبــان
بضــرب فيــه تــوهين ::: وتخضــيع وإقــران
وطعــن كفــم الــزق ::: غــدا والــزق مــلآن
وبعــض الحلــم عنــد الجــ ::: ــهل للذلــة إذعــان
وفي الشــر نجــاة حــين ::: لا ينجيــك إحســان

إن علماء النفس يقيسون قوة الشخصية بمدى استجابتها أو رفضها للآراء السلبية فيها، ويقدرون صلابتها وتماسكها بمدى تصديها للنقد الهدام المغرض، والرد عليه بما يفوقه، ولكم يكيل العدو اليوم للمسلمين من تهم وافتراءات، وكم يرمون الإسلام ومن جاء به صلى الله عليه وسلم بأقوال فيها من السبائب والشبهات، وكم يدبر الكفار وأشياعهم للإسلام وأهله من مكائد وكم يحيكون ضده من مؤامرات؛ يريدون ليطفئوا بها نور الله بأفواههم بإحداث زلزلة للثقة في الإسلام وبمن جاء به وبمعتنقيه، فهل من متصد لهم بمثل فعلهم أو يزيد؟

ويظل خلق مواجهة الشر وأهله خلقًا مميزًا لكل من تخلق بأخلاق الله تعالى من عباده الصالحين، ورادعًا ومحبطًا لكل من تسول له نفسه الاجتراء على الخير وأهله، بل وتظل هي سنة الحياة التي أراد الله جل وعلا أن تظل أبدًا وهي قذف الحق الظاهرعلى الباطل الزائف فإذا هو زاهق قال تعالى:{ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ} [الأنبياء: ١٨].

* * *

قالتا لا نسقي حتى يصدر
الرعاء وأبونا شيخ كبير

القرآن خُلقًا

قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ

قال تعالى:

{ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)} [القصص: ٢٣].

التفسير:

فيه أربع وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى:{ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ } مشى موسى عليه السلام حتى ورد ماء مدين أي بلغها، ومدين لا ينصرف إذ هي بلدة معروفة، والأمة: الجمع الكثير. و{يَسْقُونَ } معناه ماشيتهم. و{مِن دُونِهِمُ} معناه ناحية إلى الجهة التي جاء منها، فوصل إلى المرأتين قبل وصوله إلى الأمة، ووجدهما تذودان ومعناه تمنعان وتحبسان منه وفي بعض المصاحف: " **امرأتين حابستين تذودان** " ابن سلام: تمنعان غنمهما لئلا تختلط بغنم الناس، قال ابن عباس: يذودان غنمهما عن الماء خوفًا من السقاة الأقوياء، فلما رأى موسى عليه السلام ذلك منهما{قَالَ مَا خَطْبُكُمَا} أي شأنكما، وكان استعمال السؤال بالخطب إنما هو في مصاب، أو مضطهد، أو من يشفق عليه، أو يأتي بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة في شر، فأخبرتاه بخبرهما، وأن أباهما شيخ كبير، فالمعنى: لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه، وأنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء، وأن عادتهما التأني حتى يصدر الناس عن الماء ويخلى، وحينئذ ترِدان. والرعاء جمع راع، وقالت فرقة: كانت الآبار مكشوفة، وكان زحم الناس يمنعهما، فلما أراد موسى أن يسقي لهما زحم الناس وغلبهم على الماء حتى سقى، فعن هذا الغلب الذي كان منه وصفته إحداهما بالقوة. وقالت فرقة: إنهما كانتا تتبعان فضالتهم في الصهاريج، فإن وجدتا في الحوض بقية كان ذلك سقيهما، وإن لم يكن فيه بقية عطشت غنمهما،

فرق لهما موسى، فعمد إلى بئر كانت مغطاة والناس يسقون من غيرها، وكان حجرها لا يرفعه إلا سبعة، قاله ابن زيد. ابن جريج: عشرة. ابن عباس: ثلاثون. الزجاج: أربعون، فرفعه. وسقى للمرأتين، فعن رفع الصخرة وصفته بالقوة. وقيل: إن بئرهم كانت واحدة، وأنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السقاة، إذ كانت عادة المرأتين شرب الفضلات.

روى عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه قال: لما استقى الرعاة غطوا على البئر صخرة لا يقلعها إلا عشرة رجال، فجاء موسى فاقتلعها واستقى ذنوبًا واحدًا لم تحتج إلى غيره فسقى لهما.

الثانية: إن قيل كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب صلى الله عليه وسلم أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية؟ قيل له: ليس ذلك بمحظور والدين لا يأباه، وأما المروءة فالناس مختلفون في غير، والعادة متباينة فيه، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ومذهب أهل البدو غير مذهب الحضر، خصوصًا إذا كانت الحالة حالة ضرورة [1].

{لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} كان هذا جوابًا لسؤال سأله موسى عليه السلام لامرأتين وجدهما عندما ورد ماء مدين قد أتيتا لتسقيا أغنامهما، ولكنهما وقفتا تكفكفانها وتذودانها عن الماء مبعدتين لها من الاقتراب من الماء، حابستيها عن الشرب، فسألهما موسى عليه السلام وقد تعجب من أمرهما هذا قائلاً لهما: ما خطبكما؟! فكان ردهما وجوابهما على سؤاله بأنهما لا تسقيان حتى يسقى جميع الرعاء ويصدرون عن الماء، ثم أبدتا عذرهما في الخروج وما دفعهما لما هما فيه من مشقة الكدح والعمل مع ما تبديانه من شديد الحياء وما يظهر عليهما من رغبتهما الشديدة في التستر وعدم الاختلاط بالرعاء؛ ذلك لأن أباهما شيخ كبير لا يقدر على العمل؛ وهذا ما دفعهما إلى مزاولته

(1) تفسير القرطبي.

والخروج إليه، وهما بجملتيهما البسيطتين هاتين قد وضعتا قانونين عظيمين هامين لتقنين خروج المرأة للعمل نصيهما: -

من قوانين خروج المرأة

1 - إباحة أن تخرج المرأة للعمل والكسب إذا ما فقدت من يعولها، أو كان موجوداً ولكنه عاجز عن القيام بإعالتها لمرض أو كبر أو نحو ذلك من أعذار مقعدة معجزة لا يستطيع معها الرجل أن يقوم على أهله ومن يعولهم.

2 - عدم اختلاط المرأة بالرجال حال اضطرارها للخروج حينما تحتاج إليه أو يحتاج هو إليها [1].

إن الله سبحانه قد قنن خروج المرأة وحدده بهذين الحدين لأن المرأة إنما خلقت للقرارفي البيت لاحتواء الزوج وإسكانه إليها{ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾} [الروم: ٢١]، وخلقت لتربية الأبناء ورعايتهم وتنشئتهم التنشئة الدينية الكريمة، وإدارة شؤون بيتها والقيام به على أكمل وجه{وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ} [الأحزاب: ٣٣] ومن هنا فإن لزوم المرأة بيتها هو الأصل الذي من أجله خلقها الله، وعليه يكون خروجها منه خروج ضرورة، كما أوضحت المرأتان لموسى عليه السلام، وهذا ما يؤيده حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال:{**إنه قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتكن**} [2].

فالنبي صلى الله عليه وسلم قد قنن خروج المرأة وحدده وقصره فقط على قضاء حوائجها، لأن المرأة لم تخلق للخروج ولم تخلق لتكون عارية هكذا في الطرقات، وفي وسائل المواصلات، وفي المؤسسات المختلفة

---

(1) تفسير الشعراوي.
(2) رواه البخاري.

وان كانت كاسية من ثياب وحجاب فهي عارية من حجاب بيتها الذي هو الأصل الذي أمرها الله سبحانه ورسوله بالتزامه والاعتصام به، وهذا ما أجمعت عليه آراء العلماء استنادًا لقول الله تعالى:{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ} فقد أمر الله سبحانه في الآية الكريمة نساء النبي الأطهار، ونساء الأمة داخلات في الأمر بالتبعية والاقتداء - وذلك في أغلب قول العلماء - بأن يلزمن بيوتهن ويقرن فيها ولا يبرزن منها إلا لضرورة؛ لأنها حصونهن المنيعة اللاتي يحتمين بها وفيها، ويفسر الشيخ الشعراوي - رحمه الله - هذه الآية الكريمة مستندًا للمعنى اللغوي لكلمة (تبرجن) بأنها تعني برز من البرج أي الحصن [1]، وما ذهب إليه الشيخ الشعراوي كان أحد معنيين ذكرهما صاحب كتاب " المفردات في غريب القرآن " الشيخ أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب الأصفهاني " لتلك الكلمة إذ قال رحمه الله تعالى: " وثوب مبرج صورت عليه بروج فاعتبر حسنه فقيل تبرجت المرأة أي تشبهت به في إظهار المحاسن وقيل ظهرت من برجها أي قصرها " [2]، وقريب من هذا قول مجاهد - رحمه الله - الذي ذكر له في جل التفاسير في تفسير قوله تعالى:{وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ} حيث قال: " كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال فذلك تبرج الجاهلية "، وعليه فيكون قوله تعالى:{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ } أي: الزمن بيوتكن ولا تظهرن منها إلا لضرورة، وهذا المعنى ذكره ابن كثير وغيره في تفسير معنى الآية، وعلى ذلك المعنى يستقيم تفسير معنى الآية الكريمة، فإذا كانت كلمة تبرج تحمل المعنيين اللذين ذكرا وهما (إظهار المحاسن، أو الظهور من البرج (القصر) الذي هو البيت إذ كانوا يطلقون على البيوت التي بنيت

---

(1) تفسير الشعراوي.
(2) المفردات في غريب القرآن.

بالحجر قصورًا كما جاء في تفسير الشعراوي - رحمه الله - فإن المعنى الثاني هو الأنسب لمعنى الآية، ولا يكون معنى الآية الكريمة الزمن بيوتكن ولا تظهرن الزينة، وذلك على اعتبار أن معنى كلمة تبرجن تعني إظهار الزينة، إذ ما الضير في أن تظهر المرأة زينتها مع لزومها لبيتها؟! ولماذا ينهاها الله تعالى عن ذلك إذ أين لها أن تظهر زينتها إن لم تظهر زينتها فيه؟ وإنما الضير في عدم القرار في البيت والظهور منه بغير ضرورة على أي حال لها متزينة أم لا، ولقد ورد ذلك الأسلوب وهو الأمر بأمر والنهي عن ضده؛ لبيان ضرورة التمسك به، والتشديد على التزامه في القرآن الكريم مثل قوله تعالى:{ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ}

[آل عمران: ١٠٣] فلقد أمر الله سبحانه بالاعتصام بحبله المتين مما يقتضي الاجتماع، ونهى عن نقيض ذلك وهو ترك حبل الله وما يتبع ذلك من التفرق عنه، ومثل هذا:{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ} فلقد أمر الله سبحانه النساء في الآية الكريمة بلزوم البيوت، ونهاهن عن نقيض ذلك وهو الظهور والخروج منها بدون ضرورة، ثم بين الله سبحانه في نهاية الآية الكريمة أن الخروج من البيت بدون ضرورة ليس من التحضر والمدنية، وإنما هوعادة سيئة تشير إلى التخلف والرجعية إذ كانت عادة نساء الجاهلية الأولى{وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ} وما يزيد هذا الرأي بيانًا وتأكيدًا حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه:**{صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا}** [1].

(1) أخرجه مسلم.

من الكاسيات العاريات

وأذكر في شرح ذلك الحديث ما أورده الإمام الذهبي - رحمه الله - في كتابه الكبائر من شرح لهذا الحديث قال رحمه الله تعالى: قوله كاسيات: أي من نعم الله.

عاريات: من شكرها، وقيل هو أن تلبس المرأة ثوبًا رقيقًا يصف لون بدنها. ومعنى مائلات: قيل عن طاعة الله وما يلزمهن حفظه. مميلات: أي يعلمن غيرهن الفعل المذموم، وقيل مائلات: متبخترات مميلات لأكتافهن، وقيل: يمتشطن المشطة الميلاء وهى مشطة البغايا، ومميلات يمشطن غيرهن تلك المشطة. رؤوسهن كأسنمة البخت: أي يكبرنها ويعظمنها بلف عصابة، أو عمامة أو نحوهما. انتهى تفسير الإمام الذهبي - رحمه الله - وقريب جدًا من هذا الشرح قدم الإمام النووي - رحمه الله - شرحه لهذا الحديث الشريف، ومع احترامي الوافر وتقديري وإجلالي للإمامين الجليلين وما قدما من شرح وتفسير إلا أنى لا أعتقد أنهما - رحمهما الله - قد رأيا ذلك الصنف من النساء أو كن في زمانهما، وإنما شرحهما وتفسيرهما للحديث جاء اجتهادًا منهما رحمهما الله تعالى.

فالنبي صلى الله عليه وسلم يذكر في الحديث أنه لم ير هذين الصنفين، إذ لم يكونا قد ظهرا في زمنه المبارك صلى الله عليه وسلم بعد، وربما كان هو الحال نفسه مع الإمامين الذهبي والنووي - رحمهما الله -، وإنما هذا الصنف من النساء قد ظهر في زمننا الحالي أيما ظهور وانتشر أيما انتشار، وما منا من أحد إلا ويراه، وللشيخ ابن العثيمين - رحمه الله - في كتاب شرح الكبائر في تفسير ذلك الحديث كلام جميل أذكر منه قوله رحمه الله:{**النساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة...**} هؤلاء أيضًا النساء كاسيات عاريات، قيل كاسيات بثيابهن كسوة حسية عاريات من التقوى، لأن الله تعالى قال:{وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ} [الأعراف: ٢٦] وعلى هذا فيشمل هذا الحديث كل امرأة

فاسقة فاجرة وإن كان عليها ثياب فضفاضة، لأن المراد بالكسوة الكسوة الظاهرة كسوة الثياب... وقيل كاسيات عاريات أي عليهن كسوة حسية لكن لا تستر، إما لضيقها وإما لخفتها تكون رقيقة ما تستر، وإما لقصرها، كل هذا يقال للمرأة التي تلبس ذلك أنها كاسية عارية.. وقيل مائلات فمعناه منحرفات عن الحق وما يجب عليهن من الحياء والحشمة... مميلات أي فاتنات غيرهن لما يخرجن به من التبرج والطيب وما أشبه ذلك.

ومع عرضي لشرح الشيخ ابن العثيمين - رحمه الله - أقدم اجتهادًا متواضعًا في شرح الحديث الشريف يصور كيف أصبح ينطبق على واقعنا المعاصر انطباقًا تامًا، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى من حجاب الغيب ما أذن الله تعالى له به ما مكنه أن يصف بعض ما وقع فيه بعض نساء عصرنا صورة ومعنى - ولا حول ولا قوة إلا بالله - وأول ما يصف به النبي صلى الله عليه وسلم هؤلاء النساء هو أنهن كاسيات نعم هن نساء كاسيات كما تبدو في شوارعنا وطرقاتنا ومؤسساتنا علينا من الثياب والخمر ما يستر جميع بدننا فلا تكاد ترى من أجسامنا شيئا، قد لبسنا الجلباب والنقاب والقفاز والجورب، فأول ما نوصف به أننا كاسيات، ولكننا في الوقت نفسه عاريات من حجاب بيوتنا الذي هو الأصل في الحجاب، فنحن خارجها كل يوم في العراء لساعات طوال، فالمرأة اليوم تكاد تقضي من الوقت خارج بيتها أكثر مما تقضيه بداخله ربما بدون ضرورة.

ولنقف مع قول النبي صلى الله عليه وسلم :**{كاسيات عاريات}** إذ كيف يثبت النبي صلى الله عليه وسلم لهؤلاء النساء الصفة وينفيها عنهن في نفس الوقت وذلك بذكر نقيضها؟ وهل يكون هذا من المنطق وأولى مبادئ المنطق تقرر أنه لا يمكن إثبات الصفة ونقيضها في آن واحد إذ لا يمكن أن تقول فلان موجود غائب أو عالم جاهل؟ فكيف يصفهن النبي صلى

الله عليه وسلم إذن بأنهن كاسيات وفي نفس الوقت يصفهن بأنهن عاريات؟!

وللرد على هذا السؤال أقول: لقد فاق منطق النبي صلى الله عليه وسلم كل منطق البشر سلامة وكمالاً فهو صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى وإنما كل كلامه وحي من الله جل وعلا{ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾} [النجم: ٣ - ٤] وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء النساء إنهن:**{كاسيات عاريات}** ذلك لأن الكسوة من حجاب البيت هي أساس كسوة المرأة في الإسلام، أما حجاب الثياب فهو كسوة استثنائية مؤقتة تلجأ المرأة إليها إذا ما ساقتها إليها ضرورة الخروج من البيت، ولكن إذا ما اعتبرت المرأة تلك الكسوة هي الأصل في الحجاب، وخرجت بها بدون ضرورة للخروج، فعندئذ تكون عارية وإن اجتهدت في تغطية جميع بدنها بألوان الكساء.

وما يؤيد هذا الرأي في أن معنى كلمة (عاريات) على أنهن عاريات من حجاب بيوتهن أحاديث كثيرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حثت على لزوم المرأة بيتها: منها حديث رواه الترمذي، يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون بروحة ربها وهى في قعر بيتها}**(1).

فأقرب ما تكون المرأة من ربها جل وعلا وهى في قعر بيتها في أستر مكان ساتر لها، وعليه فان رضا الله سبحانه عن المرأة إذا ما كانت تلتمسه وترجوه فهو في عمل سهل ميسر تناله حينما تقعد في بيتها وتعبد ربها وتطيع بعلها، وهو مع سهولته ويسره من أعظم الأعمال عند الله سبحانه، وأجزلها ثوابًا.

ولقد أوردت هذا الحديث الشريف لأبين بشاهد منه معنى كلمة عاريات

(1) أخرجه الحافظ البزار والترمذي.

وهو أنهن عاريات عن حجاب بيوتهن الذي هو الأصل في الحجاب حتى إن كن يفضن على أجسادهن الصفيق الساتر من الثياب؛ لأن أول درجات الحجاب الشرعي التي دل عليها القرآن الكريم والسنة المطهرة، والتي ذكرها العلماء ومنهم الشيخ القلموني في كتابه (ففروا إلى الله) هو حجاب الأشخاص في البيوت بالجدر والخدر وأمثالها: بحيث لا يرى الرجال شيئًا من أشخاصهن ولا لباسهن ولا زينتهن الظاهرة ولا الباطنة، ولا شيئًا من جسدهن من الوجه والكفين وسائر البدن.

وقد أمر الله بهذه الدرجة من الحجاب فقال تعالى:{وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ} [الأحزاب: ٥٣] إذ إن هذا يدل على أن سؤال أي شيء منهن يكون من خلف ستر يستر الرجال عن النساء والنساء عن الرجال، وما ذكر من سبب نزول الآية يقرر هذا الأمر ويؤكده، وهذا الحكم العام قد استثني بالخروج للحاجة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**أذن لكن في الخروج لحاجتكن**} رواه البخاري، ويرشح هذه الدرجة أحاديث تحبب إلى المرأة القرار في البيت وعدم الخروج حتى إلى صلاة الجماعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن قرارها أرجى لها في الأجر عند الله تعالى. جاءت أم حميد الساعدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إني أحب الصلاة معك، قال:{**قد علمت أنك تحبين الصلاة معي وصلاتك في بيتك خير لك من صلاتك في حجرتك، وصلاتك في حجرتك خير لك من صلاتك في دارك، وصلاتك في دارك خير لك من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير لك من صلاتك في مسجدي**}. قال: فأمرت فبني لها مسجد في أقصى شيء من بيتها وأظلمه، فكانت تصلي فيه حتى لقيت الله عز وجل " رواه أحمد (1).

ومن الأحاديث التي ترشح تلك الدرجة من الحجاب أ يضًا حديث رسول

(1) من كتاب (ففروا إلى الله) باختصار.

الله صلى الله عليه وسلم :**{أيما امرأة وضعت ثيابها في غير بيت زوجها فقد هتكت ستر ما بينها وبين الله عز وجل}** [1] إذ إن هذا الحديث الشريف قد عزاه فضيلة مفتي السعودية الحالي الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ - حفظه الله - إلى الأحاديث التي تحث المرأة على لزوم بيتها والقرار فيه [2].

ومن الأحاديث التي تحث المرأة على لزوم بيتها وتبين لها قدر قرارها فيه هذا الحديث أيضًا فعن أنس رضى الله عنه قال: جئن النساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلن يا رسول الله: ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى، فما لنا من عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{من قعدت -** أو كلمة نحوها **- منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى}** [3].

ويؤيد ذلك أيضًا المنطق فإنك إذا رأيت امرأة تلبس ثياب رقاق أو ضيقة أو قصيرة، فلن يكون

أبدًا أول وصفك لها أنها كاسية، وإنما سيكون أول انطباع لك عنها أنها لا تلبس ما ينبغي أن يلبس، وأنها تبدو بتلك الثياب كالعارية.

ومائلات: أي مائلات عن طاعة الله وامتثال أمره وهو الحق ورغبتهن عن أداء دورهن المناط بهن، وهو القرار في بيوتهن ولزومها والسكن فيها، والقيام بشأنها من إسكان زوج ورعاية ولد وتدبير معيشة، و العدول عن ذلك إلى طلب أعمال الرجال وأدوارهم والخروج لطلب الرزق والذي هو ليس من شأنهن، وإنما هو من عمل الرجال حيث لا تكلف المرأة في الإسلام بشيء من الإنفاق، وإنما هي مكفية النفقة من أب وأخ

---

(1) صحيح الجامع.
(2) برنامج مع سماحة المفتي.
(3) رواه الحافظ البزار.

وزوج وابن، " وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق الذكور والإناث، وجعل لكل منهما مزية الرجال، يختلفون عن النساء في الخلقة والخلق والقوة والدين وغير ذلك، والنساء كذلك يختلفن عن الرجال، فمن حاول أن يجعل الرجال مثل النساء أو أن يجعل النساء مثل الرجال فقد حاد الله في قدره وشرعه لأن الله سبحانه وتعالى له حكمة فيما خلق وشرع؛ ولهذا جاءت النصوص بالوعيد الشديد اللعن وهو الطرد والإبعاد عن رحمة الله لتشبه الرجل بالمرأة أو تشبه المرأة بالرجل " [1] فعن ابن عباس رضى الله عنه قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال[2] و قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{لعن الله الرجلة من النساء}** [3]، وأي تشبه للنساء بالرجال هو أعظم خطرًا من تشبههن بهم في الدور المنوط بهم والوظيفة التي قد خلقهم الله تعالى من أجلها وهي الخروج لطلب الرزق قال تعالى:{وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ} [الليل: ١ - ٤].

فقد فسر الشيخ الشعراوي - رحمه الله - تلك الآيات الكريمات بقوله: إن اختلاف الليل عن النهار في الوظيفة يماثل اختلاف الرجل عن المرأة في الوظيفة الموكلة لكل منهما فكما أن النهار محل العمل والسعي والليل محل الراحة والسكن، فإن الرجل هو المسؤول عن العمل والسعي، والمرأة هي محل السكن والراحة الذي يستمد منه الرجل الطاقة للسعي والعمل؛ لذا فسعي كل منهم مختلف عن سعي الآخر [4]، وأركز على كلمة (الخروج للعمل) إذ إن الإسلام لا يعارض أن تعمل المرأة في بيتها، وقد انتبهت لشأن الكبير والصغير من أفراد أسرتها، فلا يقع منها أي تقصير في شأن أي منهم، بل إن الإسلام قد حث المرأة على مزاولة

(1) شرح الكبائر.
(2) رواه البخاري.
(3) رواه أبو داود.
(4) تفسير الشعراوي.

العمل المنزلي، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**نعم العون المغزل للمرأة على الجلوس في بيتها**} [1] وقال صلى الله عليه وسلم :{**خير لهو المرأة الغزل**} [2].

وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنسائه:{**أسرعكن لحاقًا بي أطولكن يدًا**} [3]، فحملت أمهات المؤمنين كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم على طول اليد الحقيقي المعهود، فقالت عائشة: فكن يتطاولن أيتهن أطول يدًا، وفي بعض الروايات: أنهن أخذن قصبة لقياس طول الأيدي أيها أطول، والرسول صلى الله عليه وسلم لم يقصد ذلك بل قصد طول اليد في الخير وبذل المعروف، وهذا ما صدقه الواقع، فكانت أول نسائه لحاقًا به هي زينب بنت جحش، إذ كانت تعمل بيديها في دبغ الجلود وخرزها، مع ما في العمل من مشقة، وكانت تنفق ما يدره عليها هذا العمل في سبيل الله صدقة خالصة، فكانت حقًا أم المساكين ومفزع اليتامى وملجأ الأرامل [4].

وما كان عليه حال بعض أمهات المؤمنين كان كذلك حال أزواج صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، فهذه رائطة رضى الله عنها امرأة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وأم ولده كانت صناعًا، ولم يكن لعبد الله بن مسعود مال، فكانت تنفق عليه وعلى ولده [5] وقد سألت النبي صلى الله عليه وسلم مرة فقالت: " إني امرأة ذات صنعة فأبيع وليس لي ولا لولدي ولا لزوجي شيء، ويشغلونني فلا أتصدق، فهل لي في النفقة عليهم من أجر "؟ فقال صلى الله عليه وسلم :{**لك في ذلك أجر ما أنفقت**

(1) رواه الديلمي.
(2) رواه البيهقي وابن حجر الهيثمي.
(3) رواه مسلم في فضائل الصحابة.
(4) النووي، تهذيب الأسماء واللغات.
(5) ابن حجر العسقلاني: الإصابة.

عليهم، فأنفقي عليهم} [1]، فهذا العمل المنزلي للمرأة هو المطلوب المندوب في الإسلام، والذي لا تشبه به المرأة الرجل إذ إنه لا يثنيها عن دورها الأساسي الذي خلقها الله من أجله وهو رعاية بيتها، وما فيه من ولد وزوج " لأن عبادة المرأة الأولى ضمن عبادة الهوية هي رعاية زوجها وأولادها، فعليها أن تعبد ربها بما أقامها فيه، ولا يقبل الله نافلة أدت إلى ترك واجب " [2] بل ولا تشبه المرأة الرجال إذا خرجت للعمل إن كان عملها ضرورة لها أو لمجتمعها.

مميلات: أي لغيرهن من النساء فيقلدهن ومميلات للرجال، مصداقًا لقوله صلى الله عليه وسلم :**{ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء}** [3] فهن يعرضن الرجال للفتنة بخروجهن واختلاطهن بهم ومزاحمتهم في الطرقات والمؤسسات، وفى كل مجال من مجالات الحياة مما يليق بهن ومما لا يليق هذا من جهة، وبدفع نسائهم من بنات وأخوات ليكن مثلهن من جهة أخرى، ثم يضع النبي صلى الله عليه وسلم في آخر كلمات حديثه علامة حسية ظاهرة مبينة لهن{وَلَوْنَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ} [محمد: ٣٠] تلك العلامة هي أن رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، والسنام هو كتل من الشحم محدبة على ظهر البعير والناقة، والسنام من كل شيء أعلاه والبخت: هي الإبل [4].

وقال الشيخ ابن العثيمين - رحمه الله - موضحًا معناها، البخت: نوع من الإبل لها سنام طويل ينضجع يمينًا أو شمالاً، والمرأة ترفع شعر رأسها حتى يكون مائلاً يمينًا أو يسارًا كأسنمة البخت المائلة.

وهذه العلامة فسرها الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - بما

---

(1) أورده ابن الأثيرفي أسد الغابة.
(2) برنامج الكلم الطيب حلقة للدكتور محمد راتب النابلسي.
(3) متفق عليه.
(4) المعجم الوجيز.

يرى الآن في رؤوس النساء فيما يطلقون عليه الكعكة التي تجمع الشعر خلف الرأس فتبدو في رؤوسهن كأنها سنام جمل مائل [1] تلك العلامة التي انتشرت في نساء عصرنا بصورة كبيرة فلا تكاد تخلو منها رأس امرأة، وفى آخر الحديث يبين النبي صلى الله عليه وسلم جزاء هؤلاء النسوة اللواتي يقعن في تلك المخالفة ممن تنطبق عليهن تلك الأوصاف التي حددها النبي صلى الله عليه وسلم صورة ومعنى بأنهن لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليشم من مسيرة كذا وكذا.

ويعد هذا الحديث من معجزات النبوة إذ إنه يتنبأ بنبوءتين لم تكونا موجودتين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما ظهرتا بعد قرنه المبارك بقرون كثيرة.

والحديث مما لا شك فيه بتلك الرؤية صادم لنا؛ لأنه يجسد حالاً ويصف واقعًا لم يعد لنا منه بد في زماننا، وهو مع ذلك يوضح عقوبة رادعة صارمة تستوجبها كل من تقع في هذه المخالفة، وما أشدها من عقوبة إنها الحرمان من جنة عرضها السماوات والأرض، ولكن ما يخرجنا من دائرة العري كما وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم وحددها هو شيء واحد هو الضرورة (الحاجة)، ويصبح خروج المرأة بين طرفي معادلة وكفتي ميزان بأن يصبح خروجها بين الضرورة والعري، فما كان ضرورة للمرأة فهو ليس عريًا، وأما العري فهو ما لم يكن ضرورة.

متى تخرج المرأة

ولنعد لحديث النبي صلى الله عليه وسلم :**{أذن لكن بالخروج لحاجتكن}**؛ لنحدد منه الحاجة (الضرورة) التي تستطيع بها المرأة أن تخرج من بيتها، وهى مطمئنة أنها ستشم رائحة الجنة، التي يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام بل وتدخلها ولا تحرم منها إن شاء الله تعالى؛ إذ إن الحاجة

(1) شبكة المعلومات الدولية " سؤال ما قولكم فيما يرى الآن في رؤوس النساء فيما يطلقون عليه الكعكة؟ ".

(الضرورة) ليست دعوة كل مدع ولا زعم كل زاعم، وإنما تقدر بقدرها، وذلك القدر يحدد الحاجة بحدين لا ثالث لهما: -

إما حاجة المرأة للخروج وإما حاجة الخروج إليها، فالأولى أن يكون حالها كحال فتاتي موسى عليه السلام إذ كان عائلهما غير قادرعلى إعالتهما، أو أن تكون المرأة ليس لها عائل أصلاً يكفيها ويكفها عن أن تخرج لتعمل خارج بيتها؛ لتكسب قوتها وما تقام به معيشتها، أو تكون حاجتها للخروج لكي تتعلم، وذلك في حالة فقد المعلم من الأهل، فالأولى أن يعلم الرجل أهله العلم الشرعي، ويكفهم عن الخروج لطلبه، فقد أخرج البخاري في الأدب عن مالك بن الحويرث رضى الله عنه قال: أتينا النبي صلى الله عليه وسلم ونحن شببة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظن أنا اشتهينا أهلينا، فسألنا عمن تركنا في أهلينا، فأخبرناه - وكان رفيقًا رحيمًا - فقال:**{ارجعوا إلى أهليكم، فعلموهم ومروهم، وصلوا كما رأيتموني أصلي، فإذا حضرت الصلاة، فليؤذن لكم أحدكم، وليؤمكم أكبركم}** [1].

وأخرج البخاري في الصحيح تحت باب: تعليم الرجل لأمته وأهله عن أبي موسى رضى الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد** صلى الله عليه وسلم، **والعبد المملوك إذا أدى حق الله تعالى وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة يطؤها فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران}** [2].

وأما إذا لم يوجد ذلك الزوج المعلم ومن قبله لم يوجد الأب المعلم أو الأخ المعلم جاز للنساء أن تخرج لطلب العلم، فقد أخرج البخاري في الصحيح في باب هل يجعل للنساء يوم في العلم؟

---

(1) البخاري ومسلم والنسائي والدارمي.
(2) أخرجه البخاري.

عن أبى سعيد الخدري رضى الله عنه، قالت النساء للنبي صلى الله عليه وسلم : غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك. فوعدهن يومًا لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن،... " [1].

ففي الحديث الشريف حرصت النساء على تحصيل العلم الشرعي وطلبنه وخرجن إليه.

هذا وقد جاء في كتاب (فقه السنة) للشيخ الجليل السيد سابق تحت عنوان (خروج المرأة لطلب العلم) ما يأتي: -

" إذا كان العلم الذي تطلبه المرأة مفروضًا عليها (العلم الفرض: هو العلم الذي فرضه الله لأن كل ما فرض الله عمله فرض العلم به) وجب على الزوج أن يعلمها إياه - إذا كان قادرًا على التعليم - فإذا لم يفعل وجب عليها أن تخرج حيث العلماء ومجالس العلم، لتتعلم أحكام دينها ولو من غير إذنه.. أما إذا كانت الزوجة عالمة بما فرضه الله عليها من أحكام، أو كان الزوج متفقهًا في دين الله فقام بتعليمها، فلا حق لها في الخروج إلى طلب العلم إلا بإذنه " [2].

ودور الأب المعلم قد قام به فضيلة الشيخ الشعراوي - رحمه الله - مع ابنتيه حينما بلغتا إذ كفهما عن الخروج للتعلم في المدارس وقام هو بتعليمهما فأين لنا بمثله في علمه واهتمامه؟

وأما إذا لم تجد المرأة من يعلمها من الأهل فإن عليها أن تبحث عن العلم الشرعي عند جاراتها، وعلى جاراتها أن يعلمنها، ويعلمن بعضهن البعض؛ وذلك تضييقًا لحيز الخروج وقدرًا لاتساع دائرته فقد أخرج البخاري والطبراني وابن مردويه عن أبزي الخزاعي رضى الله عنه والد عبد الرحمن قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فأثنى

---

(1) أخرجه البخاري.
(2) فقه السنة.

على طوائف من المسلمين خيرًا، ثم قال:{**ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم، ولا يعلمونهم ولا يفطنونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتفطنون؟ والله ليعلمن أقوام جيرانهم، ويفطنونهم ويفقهونهم، ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتفطنون ويتفقهون، أو لأعاجلنهم بالعقوبة في دار الدنيا**} ثم نزل فدخل بيته، فقال قوم: من تراه عنى بهؤلاء؟ فقالوا: نراه عنى الأشعريين، هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله: ذكرت قومًا بخير، وذكرتنا بشر، فما بالنا؟ فقال:{**ليعلمن قوم جيرانهم وليفقهنهم وليفطننهم وليأمرنهم ولينهينهم وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتفطنون ويتفقهون أو لأعاجلنهم بالعقوبة في دار الدنيا**} فقالوا: يا رسول الله: أبطير غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم، وأعادوا قولهم: أبطير غيرنا؟ فقال ذلك أيضًا. قالوا فأمهلنا سنة فأمهلهم سنة، ليفقهوهم ويعلموهم ويفطنوهم، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم{ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾} [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

أرأيت كيف ضيق النبي صلى الله عليه وسلم دائرة الخروج للتعلم والتعليم سواء للرجال أو للنساء مع جعل التعليم إجباريًا إلزاميًا على المعلم والمتعلم؛ فعلى الرجل أن يعلم جاره وعلى جاره أن يتعلم منه، وعلى المرأة أن تعلم جارتها وعلى جارتها أن تتعلم منها.

ما العلم الذي يتوجب طلبه؛

أما عن نوع العلم الذي يتوجب على النساء طلبه - وإن اضطرهن للخروج ولا يكون خروجهن لطلبه مدخلاً لهن في دائرة العري - وإنما يفرض أن تتعلمه النساء كفرض عين على كل مسلمة، فهو ذلك العلم

الذي كانت النساء تختلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لتعلمه وهو: الدين وعلومه إذ هو أهم العلوم وأشرفها وأعلاها قدرًا عند الله ثم عند الناس فهو العلم [1].

الذي يصلح أمر دنياهم وأخراهم، وينظم علاقاتهم ببعضهم البعض، ويعرفهم علاقتهم بالكون الفسيح وما سخر فيه لخدمتهم، ويعلمهم أولاً وقبل كل شيء كيف تكون علاقتهم بالله رب العالمين؟ ولماذا خلقهم سبحانه؟ وإلى أين مآلهم؟ فلابد أن يتعلم الرجال والنساء على السواء منه ما يقوم به دينهم وما تنصلح به دنياهم، وهذا العلم هو ما قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم :{**طلب العلم فريضة على كل مسلم**} [2] سواء أكان هذا المسلم رجلاً أو امرأةً، وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا:{**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**} [3] وفيه قال صلى الله عليه وسلم :{**العلم ثلاثة: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة؛ وما كان سوى ذلك فهو فضل**} [4].

فعلى المرأة المسلمة أن تتعلم من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة مالا يسعها الجهل به، وتقتبس من ذلك النور نورًا يضيء لها الطريق، وتتعلم منه بشيء من التفصيل ما يتعلق بالنساء من أحكام، فكم من متعلمة في زماننا إن سألتها عن أقصر سورة في القرآن، أو تفسيرها، أو عن سبب نزولها؟ لما وجدت عندها أدنى معرفة عن ذلك، وكم من متعلمة في زماننا ولربما كانت جامعية وهى لا تدري متى تبدأ حيضتها، ومتى تنتهي، ولا كيفية الاغتسال منها، فعلم الدين والعقيدة من أوجب العلوم التي يجب أن تتعلمها كل مسلمة، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم قد

---

(1) أخرجه والبخاري والطبراني وغير واحد.
(2) صحيح الجامع.
(3) متفق عليه.
(4) أخرجه أبو داود وابن ماجه.

حدد الخروج في قوله:{أذن لكن في الخروج لحاجتكن} فإن تعلم العلم الديني - إذ لم يتوفر تعلمه في البيوت - لهو حجة لنا أمام الله ورسوله في الخروج؛ لأن تعلم الدين وعلومه من أحوج حوائجنا فإن عجزت البيوت عن توفيره جاز للنساء أن تخرج لتتعلمه في مؤسسات التعليم المختلفة.

وعلى المرأة كذلك أن تتعلم ما تستقيم به حياتها المستقبلية الدنيوية، فبنات اليوم هن زوجات وأمهات المستقبل القريب فلابد لهن من أن يتعلمن كيف يؤدين دورهن بجدارة وإحسان؛ بأن يتعلمن من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة ما تقام به تلك الحياة الوشيكة القدوم إليهن، فيتعلمن حسن التبعل، وحسن معاشرة الزوج، وحقهن على الأزواج، وحق الأزواج عليهن، وتتعلم المرأة كيف تربي أولادها تربية صالحة لتخرج للإسلام رجالاً صالحين ونساءً صالحات يعتد المجتمع بوجودهم فيه وانتمائهم إليه بأن تعلمهم حال صغرهم كيف يتجنبون مزالق الانحراف ومهاوي الفساد، وكيف يغتنمون كل نافع وصالح لخدمة دينهم ومجتمعهم والارتقاء بأنفسهم.

وتتعلم المرأة أيضًا كيف تدير بيتها وتحفظه وتصونه وتدبر أمره، ولتعلم بذا كله دورها وقيمته العظيمة عند الله سبحانه ثم عند الناس، فلابد أن تتعلم المرأة ما تستقر به البيوت وتهدأ به أسرارها، فإن الناظر إلى إحصائيات الطلاق في مجتمعاتنا الإسلامية ليكظم حزنًا على حال بيوتنا، واسأل إن شئت كم بلغت أرقام هذه الإحصائيات في بلدنا الغالي مصر، وفي ما يجاوره من أقطار، أما في دول الخليج فلدينا إحصائية أجريت مؤخرًا فوجد أن نسبة الطلاق في إحدى دوله قد وصلت إلى 46% أما باقي دول الخليج فإن نسبة الطلاق تتراوح ما بين 32% إلى 40 % ومما لا شك أن هذه نسبة ليست بالقليلة إذ ما يقرب من نصف حالات الزواج تؤول إلى الطلاق [1] وأن مرد تلك المهزلة وهذه الكارثة لأسباب

(1) برنامج فضاءات.

كثيرة يعد أهمها وأولها غياب معرفة كل من الزوج والزوجة بدوره الحقيقي، وما له وما عليه من واجبات وحقوق، وكيف له أن يؤدي ذلك الدور.

ولابد للمرأة أن يضاف إلى معرفتها معرفة بوسائل التكنولوجيا الحديثة؛ لترتبط بالعالم اليوم وما يدور فيه، فتعرف ما هو الحاسوب وكيف يعمل وكيف تستفيد منه، أو تضيف إليه، وتتعلم كثيرًا عن وسائل المعرفة الإلكترونية الحديثة، ووسائل الاتصال من شبكات معلوماتية وغيرها.

هذا فضلاً عن تعلمها القراءة والكتابة والحساب وشيئًا من بعض العلوم مما لا بد لها من العلم به، وتتعلم بجانب كل هذا ما يناسب طبيعتها وفطرتها من حب الجمال من خياطة وتطريز وما إلى ذلك من فنون ومواهب فطرية في المرأة من شأن التعليم أن يصقلها وينميها، بما يفيدها وأسرتها.

ولا ضير أن تتعلم المرأة الكيمياء والفيزياء والجغرافيا وأمثال تلك العلوم التي تدرس في المدارس شريطة أن تعرف فيما تنتفع بها لا أن يكون علمًا مجردًا لا يفيد إلا في اجتياز الاختبارات.

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المقام أن ديننا الحنيف لا يمنع المرأة من أن تتعلم العلوم العالية إذا ما كانت تستطيع أن تنفع بها نفسها ومجتمعها الإسلامي، ونذكر تأييدًا لذلك فتوى للمفكر الإسلامي الكبير الأستاذ محمد فريد وجدي - رحمه الله - إذ يقول: " إن الإسلام لم يضع للنشاط العقلي للمرأة حدًا فأباح لها أن تتوسع في العلوم ما أمكنتها الفرص من ذلك وما ساعدها عليه استعدادها، ولم يمنعها أن تبث علمها في الناس، ولم يحظر على الرجال الأخذ عنها، بل روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:{**خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء**} يريد عا ئشة أم المؤمنين. وقد روت ما رأته من سنته، وما وعته ذاكرتها من كلماته، وأخذه عنها الرجال، وكانوا يقصدونها ليستزيدوها علمًا، وما كانت هي تضن عليهم

بذلك.

ورويت لغيرها من نسائه صلى الله عليه وسلم أحاديث كثيرة أخذها عنهن المسلمون وعملوا بها.

واشتهر في التابعين نساء أخذن العلم وبرعن فيه، منهن ابنة سعيد ابن المسيب، ومما روي عنها أنها تزوجت وبكر زوجها خارجًا، وسألته أين يذهب؟ فقال لها إلى حلقة أبيك سعيد. قالت له: اجلس أعلمك علم سعيد.

فالمسلمون في الصدر الأول لم يروا بأسًا من أن تتلقى المرأة العلوم العالية. فلما استبحر العلم فيهم ونبغ فيهم الأئمة أصحاب المذاهب، لم ير واحد منهم بأسًا في تلقي المرأة العلوم العالية، بل سمحوا لها أن تجتهد إن بلغت درجة الاجتهاد، وجوز بعضهم أن تلي القضاء، وأن تفتي المسلمين، وقد دل تاريخ المسلمين في جميع أدوارهم أن نساء بلغن درجات عالية في الأدب وسائر العلوم، ولم يوجد من أنكر ذلك عليهن على أي وجه من الوجوه " [1].

ولكني أنوه إلى أن تلك هي العلوم العالية كما رآها المسلمون الأول ومن تابعهم إنها علوم الدين تلك العلوم التي نبغ فيها الرجال والنساء على حد سواء، والتي لابد أن تظل هي المحور الرئيس الذي تدور حوله كل العلوم النافعة.

كان كل هذا الذي طرحناه من طرح من ناحية الكيف، وما نزال نكمل، فبنظرة ثاقبة وكلمة سريعة في مناهجنا التعليمية التي تدَّرس في المدارس والمؤسسات التعليمية اليوم، نستطيع أن نقول من ناحية الكيف فإن ما يتعلمه الطلاب في المدارس في كثير من البلدان الإسلامية لم يعد يهتم كثيرًا بالتفقه في الدين وعلومه، وإنما هوفي غالب الأمر شعث لا يلتئم وشذرات متفرقات لا تجتمع من معلومات مجردة غير مفهومة من علوم

---

(1) من معالم الإ سلام.

شتى كالجغرافيا والتاريخ والكيمياء والفيزياء والأحياء والرياضيات لا يدرك الطلاب فيما يوظفونها ولا كيف ينتفعون بها وإنما هم يحفظونها عن ظهر قلب فقط؛ ليجتازوا بها امتحان آخر العام ثم تتحول من عقولهم راحلة إلى متاهة النسيان وبؤر اللا شعور، وجرب أن تسأل أحدهم أو إحداهن عن شيء تعلمته في هذه المادة أو تلك في العام المنصرم، وأخبرك مسبقًا أنك لن تجد ما يشفي صدرك من جواب.

ويدخل في الكيف أيضًا ألا تكون المدارس مختلطة كحال كثير من مدارس بلادنا تجمع الأولاد من بنين وبنات داخل الفصل الواحد، والفناء الواحد، والمكتبة الواحدة، ولربما دورة المياه الواحدة، ولكن يجب أن يكون لكل جنس مدارسه الخاصة به والتي لا يشاركه فيها الجنس الآخر، وذلك لنفع ديني ودنيوي، أما الديني فلقد كانت النساء تختلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيجعل لهن يومًا من نفسه يخلو لهن يعظهن ويعلمهن فيه دون الرجال.

وأما من الناحية الدنيوية فقد أوضحت أحدث الإحصائيات الأمريكية أن المدارس المختلطة التي تجمع البنين والبنات يقل فيها التحصيل الدراسي، وينخفض مستوى الطلاب العلمي فيها عن مثيلاتها من المدارس المخصصة لكل جنس على حدة [1].

وأن يراعى في التعليم أن يعلم كل جنس أفراد جنسه فيعلم الرجال البنين، وتعلم النساء البنات، ويدخل في الكيف أيضًا أن تعد للبنات المتعلمات ومعلماتهن المدارس والمؤسسات التعليمية القريبة من مساكنهن؛ حتى لا يضطررن للسفر ومشاقه، كما تعد لهن مركبات خاصة حفظًا لهن، هذا مع الأخذ في الاعتبار مراعاة طبيعة المرأة الحساسة الرقيقة، فالنساء بصفة عامة كما وصفهن النبي صلى الله عليه وسلم قوارير، فيجب ألا

(1) برنامج الراصد.

يقسى على البنات أو يعنفن، وإنما يعلمن برفق وتلطف، فلقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{إن الله تعالى لم يبعثني معنفًا ولكن بعثني معلمًا ميسرًا}** (1) وإن كان هذا خلق لابد أن يكون عليه المعلم بصفة عامة سواء أكان معلم رجال أم معلم نساء إلا أن تلك الصفة مع النساء أحق وأولى.

وأن يوضع في الاعتبار في التعليم مراعاة أخلاق المعلمة التي تباشر تعليم البنات؛ لأن أعينهن معقودة بها، فالحسن عندهن ما تستحسنه، والقبيح عندهن ما تتركه كما ذكر ذلك الإمام الشافعي - رحمه الله - في إحدى وصاياه لأحد المعلمين وعلى ذلك فلتنتبه المعلمة إلى كل أقوالها وأعمالها ولتمنح ذلك مزيدًا من الاهتمام اعتبارًا لمكانة القدوة التي تمثلها.

نظرة في مناهج التعليم

وإذا ما تناولنا الموضوع من ناحية الكم فإن كم المناهج الدراسية المدرسة لأولادنا اليوم كبير كثير مما يضعهم أمام فيضان من المعلومات يجعلهم منه كالقابض على الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه، فلا يستطيعون أن يمسكوا من معلومات تلك الكتب الكثيرة في المناهج الدراسية الطويلة إلا بأقل القليل.

وقديمًا أوصى الإمام الشافعي - رحمه الله - أحد المعلمين بتلاميذه قائلاً: " لا تخرجنهم من علم إلى غيره حتى يحكموه فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم ".

و ما حذر منه الشافعي رحمه الله هو بالضبط ما يحدث الآن، فهم طلاب العلم اليوم لم يعد الفهم والوعي لما يتعلمونه، وإنما صار الحفظ والاستظهار للمعلومات ليتمكنوا بذلك من اجتياز الاختبارات الشهرية والنهائية.

ويدخل في الكم البعد الزمني وأقصد به عدد السنين التي يقضيها طالب

---

(1) أخرجه مسلم والنسائي.

العلم - سواء أكان ذكر أم أنثى - في التعليم فهي سنوات كثيرة جدًا ما بين ابتدائي، وإعدادي (متوسط)، وثانوي وجامعي بما يقرب من ستة عشر إلى تسعة عشر عامًا، وكل تلك السنوات ونحن نزج بأولادنا في مراحل التعليم المختلفة، وما أن ينهوا مرحلة حتى يبدأوا في التي تليها، ونحن ما بين مرحلة وأخرى في ضيق مادي ومعنوي وخوف وقلق عليهم ومعهم، أما الأولاد فليسوا بأحسن منا حالاً، ولأجل كل هذا ألا من حل يريحهم ويريحنا؟! وهل أصبح التعليم محددًا بتلك المدة الطويلة؟! ألا يمكن أن تختصر كل تلك السنوات المهدرة من أعمارهم ومن أعصابنا وأرزاقنا؟

فلقد أخرج أبو يعلى وابن عساكر عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال: أُتى بي النبي صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة، فقالوا: يا رسول الله، هذا غلام من بني النجار، وقد قرأ مما أنزل عليك سبع عشرة سورة، فقرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعجبه ذلك فقال:{**يا زيد تعلم لي كتاب يهود، فإني والله ما آمن يهود على كتابي!**} فتعلمته فما مضى لي نصف شهر حتى حذقته، فكنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كتب إليهم، وأقرأ كتابهم إذا كتبوا إليه(1). وعندهما أيضًا وابن أبي داود عن زيد، قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم :{**أتحسن السريانية فإنها تأتيني كتب؟**} قلت: لا. قال:{**فتعلمها!**} فتعلمتها في سبعة عشر يومًا (2).

فقد ذكرفي الحديث أن زيد بن ثابت رضى الله عنه قد تعلم السريانية في سبعة عشر يومًا تعلمها قراءةً؛ ليقرأ كتب اليهود وبريدهم الوافد للنبي صلى الله عليه وسلم ويعلمه بما فيه، وتعلمها كتابةً؛ ليكتب للنبي صلى الله عليه وسلم كتبًا ورسائل إليهم، أي تعلمها تعلم إتقان وحذق كما شهد هو بذلك لنفسه، وكان ممتحنه في تلك المادة العلمية الله تعالى ورسوله فكم

(1) أخرجه أبو يعلى وابن عساكر.
(2) وأخرجه أحمد.

تكون درجة التمكن منها إذن؟ كل هذا وهو ما يزال غلامًا كما ورد في الحديث، فما بالنا لا نستطيع أن نكون كزيد رضي الله عنه فنتعلم بعض علومنا في سبعة عشر يومًا، بل وحتى في سبعة عشر شهرًا، ولكنا نصر على تعلمها فيما يقرب من سبعة عشر عامًا - وليتها تكفي للتعلم حقًا - هذا وإن تقصير سنوات التعلم لهو ضرورة ماسة لطلبة العلم بوجه عام، وللنساء بوجه خاص.

كان ذلك الطرح فيما يخص التعليم الذي هو فرض عين، أما عن التعليم الذي هو فرض كفاية والذي متى قامت به بعض النساء سقط عن الباقيات، فعلى النساء اللواتي يقع عليهن ذلك الفرض أن يتعلمن ما يصلح به شأن ما سيؤدينه من أعمال، فعلى النساء المتعلمات لتلك العلوم أن يكملن تعليمهن فيما سيتخصصن فيه، وذلك بعد ما ينلنه من حظ من التعليم الذي هو فرض عين، بما يؤهلهن للقيام بعملهن على أتم وجه وأحسنه ناظرات إلى ما تقدمنه للأمة من دور لا يمكن أن يقوم به عنهن غيرهن، لا لاهثات وراء دريهمات يعدن بها إلى بيوتهن، على ألا يكون عملهن خارج البيت يوميًا وبصفة مستمرة؛ حتى لا تتعرض أسرهن وبيوتهن للإهمال، وإنما يكون حضور الواحدة منهن للعمل سويعات محدودة في الأسبوع، وبتناوب بعضهن مع بعض يتحقق المطلوب من شيوع النفع، وعموم الفائدة؛ وذلك مراعاة لظروفهن العائلية.

ويأخذ في الاعتبار أن تقدر حاجة المجتمع منهن كفرض كفاية فتخرج لتكمل تعليمها فقط من رزقها الله ذكاءً وحبًا للعلم وتحصيله، ورغبة صادقة في نفع المجتمع المسلم، ولا يكون باب هذا التعليم مفتوحًا لكل راغبة ممن يمكنها أن تقوم بذلك الدور ومن لا يمكنها.

أما إذا ما قارنا الناتج (المخرج) التعليمي الذي سنحصل عليه من كلا النوعين من التعليم على المستوى العام من الجنسين بوجه عام، وبالنسبة للنساء بوجه خاص سنجد التباين بين النوعين

من التعليم شاسعًا والفرق كبير، وكان الحكم بالتأكيد لصالح التعليم المقترح الذي ستكون نتيجته امرأة متفقهة في الدين تعلم من الدين ما يصلح لها شأن حياتها الدنيوية والآخروية، وهي في الوقت ذاته امرأة تعرف واجبها من صيانة لنفسها وحفظ، وتعرف حقها من نفقة عليها واهتمام بها وتقدير وحب من الجميع لها، و أيضًا هي تعرف واجبها من رعاية زوج وأبناء، وحسن إدارة بيت، وتعلم قيمة ما حباها الله به من نعمة وفضل متمثل في زوجها وأبنائها وبيتها، وملمة بقدر لا بأس به من العلوم المختلفة، وعلى علم بالثقافة الحالية وعلوم العصر ومستحدثات التكنولوجيا، هذا بالإضافة لما تمتلكه من حس جمالي يمكنها من إضافة لمسات الجمال والفن إلى كل ما تمتد إليه يدها.

وهذا بالطبع هو ثمرة ما يرجى من التعليم، وهو ولا شك عظيم جليل وخير مما يدرس الآن من مناهج ومقررات قاتلة للطموح ومحطمة للآمال تغتال عقول أبنائنا من بنين وبنات وتسحق قدراتهم، ولا تعطينا إلا أنصاف متعلمين لا يعلمون مما يجب أن يعلم إلا القليل، وقليل قليل من المتعلمين والمثقفين، وأذكر في هذا المقام كلمة للكاتب الكبير يوسف إدريس يتكلم فيها عن التعليم الذي كان سائدًا، والذي ما يزال قائمًا حتى اليوم وبنفس الحال تقريبًا يقول: " فأولاً طريقة التعليم عندنا قديمة ومستهلكة لا تمتحن في الطالب إلا قدرته على الحفظ؛ أي هو في مجمله اختبار للذاكرة، والذاكرة ما هي إلا خاصية واحدة من خواص العقل الكثيرة جدًا، وثانيًا نحن نسير على نظم امتحانية إرهابية تركها العالم الحديث كله، وأصبحت فيه مدارس جديدة وتطور هائل وتغير التعليم من وسيلة لملء عقل الولد - طالب العلم - بأكبر كم من المعلومات والأرقام إلى نظام يعلم الإنسان وينمي فيه القدرة على الخلق والابتكار؛ أي القدرة على استعمال المعلومات الموجودة في الكتب وفي أرشيف العقول الإلكترونية والميكرو أفلام الإنسان المتعلم، كما يجب أن يكون الإنسان

المتعلم، أصبح هو القادر على ابتكار الحلول للمشاكل، ونظم التعليم في معظم أنحاء العالم تغير هدفها من تخريج آلات حفظ صماء، إلى تخريج مبتكرين ومخترعين، وباختصار أناس يقومون بأشياء غير الوظائف التي يمكن أن يقوم بها أي إنسان آلي وأي ماكينة حاسبة [1].

كان هذا رأي يوسف إدريس والذي يوافقه فيه كثير من الناظرين المهتمين بالتعليم في بلداننا الإسلامية العربية.

وبنفس بصيرة يوسف إدريس ينظر علماء الغرب للتعليم فيقول أحدهم وهو إل. رون هابرد متحدثًاعن التعلم وأساليبه مطالبًا بتطبيق التعلم فعليًا أو بعبارة أخرى تعلم ما يطبق فعلاً في الواقع، وما ينتفع به في الحياة فيقول: " أسلوب التعلم لا يكمن فقط في تراكم المعلومات والبيانات. إنه إحدى الوسائل التي تساعد الإنسان في الحصول على مفاهيم جديدة وطرق أفضل للقيام بإنجاز الأشياء ".

ويضيف قائلا: " إن المدرسة ليست مكانًا يتخلص فيه الأهل من أطفالهم أثناء النهار. فلو كانت هذه هي الغاية من وجود المدارس، لكان الأمر أغلى من اللازم. والمدرسة ليست مكانًا لصنع الببغاوات المقلدة، بل إنها المكان الذي يجب على الإنسان أن يتعلم كيف يدرس فيها. وهي المكان الذي يتعلم فيه الأطفال كيف يتشبثون بالواقع، وكيف يعالجونه بكفاءة، وكيف يهيئون أنفسهم لاحتلال مكانتهم في عالم الغد، هذا العالم الذي سيقضي فيه رجال اليوم حياة الشيخوخة "

ويكمل حديثه فيقول " إن التعلم لا يعطي ثماره إلا بعد تطبيقه. صحيح أنه يمكننا السعي وراء الحكمة لذاتها لأن هناك شيئًا من الجمال في هذا البحث. على أن الحقيقة تقول إن الإنسان لن يعرف أبدًا ما إذا كان حكيمًا

(1) خلو البال (مجموعة نصوص أدبية).

أم لا إلا حين يرى نتائج محاولاته التطبيقية " [1].

وما قاله يوسف إدريس وإل. رون هابرد وغيرهم ممن اهتموا بالعلم والتعليم ونادوا به عرفه النبي صلى الله عليه وسلم قبلهم قبل مئات السنين ونادى به حين عرَّف الغاية من التعليم بأنها النفع في الحياتين الدنيا والآخرة، وعلى ذلك سأل ربه تعالى العلم النافع فقال صلى الله عليه وسلم :{اللهم إني أسألك علمًا نافعًا} [2].

ونعود لما نحن أساسًا بصدده لنجمل القول فنقول: إن كل ما سبق من حديث عن المرأة كان تحت ما إذا كانت المرأة في حاجة للخروج بالحديث عن أكبر مجالين يضطرا المرأة للخروج وهما التعليم والعمل، أما إذا كان الخروج هو الذي يحتاج إليها وكان خروجها ضرورة لغيرها ففيه الحديث القادم.

حاجة الخارج للمرأة

إحقاقًا للحق فإن حاجتنا للمرأة في الخارج لا يقل عن حاجتنا لها في داخل البيوت فعملها كطبيبة نساء، أو قابلة، أومعلمة بنات، أو إعلامية تهتم بقضايا النساء، أوأديبة تنقل عنهن ما يحسونه، أو نائبة في البرلمان تستطيع أن تلمس حاجاتهن، وتوصل أصواتهن لأصحاب القرار، أومفتشة نساء في الحرم، أو في المطار، أو ما شابه ذلك من أعمال تقتضي مباشرة المرأة للمرأة في وقت السلم، أو ممرضات وطبيبات وساقيات في أوقات الحرب، أو حتى أدوارًا تتميز فيها المرأة على غيرها من النساء والرجال - مع حفاظها على حجابها وحشمتها - لا يقل قداسة وأهمية كثيرًا عن دورها الأساسي داخل حصنها الحصين (البيت) فقد أخرج البخاري عن الربيع بنت معوذ رضى الله عنه قالت: كنا نغزو مع النبي صلى الله عليه وسلم فنسقي القوم ونخدمهم ونرد القتلى والجرحى

(1) الطريق إلى السعادة.
(2) صحيح الزوائد.

إلى المدينة [1].

وأخرج الإمام أحمد، ومسلم وابن ماجه عن أم عطية الأنصارية رضى الله عنها قالت: غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أخلفهم في رحالهم، وأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على الزمنى [2].

وأخرج البخاري عن أنس رضى الله عنه قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر رضى الله عنه وأم سليم رضى الله عنها وإنهما لمشمرتان، أرى خدم سوقهما تنقزان القرب. وقال غيره تنقلان القرب على متونهما، ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم [3].

بل وقد تشترك المرأة في القتال كما أخرج الواقدي عن عمر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:**{ما التفت يوم أحد يمينًا ولا شمالاً إلا وأراها تقاتل دوني}** [4] ويقصد النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحابية أم عمارة (نسيبة بنت كعب) رضى الله عنها .

النبي صلى الله عليه وسلم **يرفض خروج المرأة - رغم الضرورة -**

ولكن ذلك الخروج إنما كان لضرورة الحرب، وأن هؤلاء النساء – رضي الله عنهن - اللاتي خرجن لهذه الضرورة قد خرجن كفروض كفاية متى قمن بها سقطت عن البعض الآخر، وبالفعل لم تخرج كل نساء المسلمين للحرب وقتئذ، ولم يقمن بذلك الدور مع ضرورته وفضله، فقد روي أن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه لم تحضر مع النبي صلى الله

(1) أخرجه الإمامان البخاري وأحمد.
(2) أخرجه الإمام أحمد ومسلم وابن ماجه.
(3) رواه البخاري ومسلم والبيهقي.
(4) أخرجه الواقدي.

عليه وسلم إلا غزوة تبوك؛ وذلك لانشغالها برعاية أولادها، بل إن منهن من استأذنت النبي صلى الله عليه وسلم في الخروج للجهاد فرفض أن يأذن لها رغم الضرورة. فقد أخرج الطبراني عن أم كبشة رضى الله عنها ، امرأة من عذرة - عذرة بني قضاعة - أنها قالت: يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم، أتأذن أن أخرج في جيش كذا وكذا. قال:**{لا}**. قالت: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه ليس أريد أن أقاتل، إنما أريد أن أداوي الجرحى، والمرضى أو أسقي المرضى. قال:**{لولا أن تكون سنة ويقال: فلانة خرجت لأذنت لك ، ولكن اجلسي}** [1].

فبرغم ضرورة الحرب وإدراك النبي صلى الله عليه وسلم لدور المرأة العظيم الهام جدًا فيها إلا إنه يمنعها من الخروج مخافة أن تألف النساء الخروج ويتخذنه سنة وعادة لهن، ويجدن في إذن النبي صلى الله عليه وسلم لهذه المرأة مسوغ لهن في الخروج.

ما وقعن فيه

كل ذلك التقنين والتحديد لخروج المرأة حتى لا يتحول الخروج من خروج حاجة وضرورة لخروج إلف واعتياد، وذلك هو ما وقع فيه نساء زماننا من مدعية التحضر وممن لم تدعه، ومن المتعلمة والأمية على حد سواء.

فلم تعد إحداهن تستطيع لزوم البيت يومين متتابعين، وإن حاول الزوج إقرارها فيه وإلزامها به كشفت له عن وجه قبيح ملؤه الشكوى بالضيق والاختناق وعدم الاحتمال، وهي في ذلك معذورة لقد خرجت في السادسة بدعوى التعليم خروجًا يكاد يكون يوميًا، وانتوت هي وأسرتها ألا تدخل البيت إلا بعد الستين، وبين السادسة والستين عاشت سنوات طفولتها ومرت أيام مراهقتها وزهى شبابها وهي خارج البيت، ثم بعد أن تتزوجها

(1) رواه الطبراني.

أيها الواهم تظن أن القرار في البيت غدا قرارًا سهلاً عليها أوعليك، لا شك أنك مخطئ، لقد ألفت الخروج وصار عندها عادة، بل والأخطر من ذلك لقد أصبح الخروج أيدلوجية فكرية ربيت عليها فأصبح من العسير اقتلاعها من نفسها، وأصبح القرارفي البيت تخلف ورجعية هذا بالإضافة إلى أنه شيئًا لم تعتده ولم تجربه؛ لذا فهو تجربة قاسية عليها ولا شك.

ونحن على كل حال لا نرفض خروج المرأة على الإطلاق، ولكن نقيده بالضرورة إذ بقدر تلك الضرورة ينتفي الحرج.

وإذا عدنا لأمر الله سبحانه نساء نبيه صلى الله عليه وسلم، ونساء الأمة بالتبعية والاقتداء بالقرار في البيت، وحث النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، وترغيبه فيه، نستشف من وراء ذلك الأمر وهذا الحث تقديرًا من الله سبحانه ورسوله لدورهن العظيم داخل بيوتهن وحاجة بيوتهن الماسة إليهن، فلقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الدور وأعظمه عندما سألته إحدى النساء وكان جالسًا بين أصحابه فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله - إني وافدة النساء إليك - واعلم نفسي لك الفداء، أما إنه ما من امرأة كائنة في شرق ولا غرب سمعت بمخرجي هذا أو لم تسمع إلا وهي على مثل رأيي، إن الله بعثك بالحق إلى الرجال والنساء، فأمنا بك، وبإلهك الذي أرسلك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم، ومقضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمعة والجماعات، وشهود الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله، وإن الرجل منكم إذا خرج حاجًا أو معتمرًا أو مرابطًا حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم فما نشارككم في الأجر يا رسول الله؟

فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال:**{هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه؟}** قالوا: يا رسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدي لمثل هذا، فالتفت النبي صلى

الله عليه وسلم إليها ثم قال لها:{**انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها مرضاته واتباعهـا موافقتـه تعدل ذلك كله**} قال: فأدبرت المرأة وهي تهلل وتكبر استبشارًا [1].

لقد قدر النبي صلى الله عليه وسلم دور المرأة كما شرحته هذه الصحابية رضى الله عنها والتي أوضحت فيه مكان المرأة ومكانتها ودورها الأول المنوط بها، فمكانها محصورات: أي متواريات في بيوتهن وما نحوها. مقصورات: المقصورة من النساء المنعمة في بيت لا تتركه لتعمل وهي المصونة المخدرة. قواعد بيوت: أي لازمات البيوت الجالسات فيها المقيمات، أما دورهن الأساسي فهن مواضع شهوات الرجال حاملات أولادهم، وهناك دور استثنائي إضافي في حالة جهاد الرجال أو غيابهن فإذا خرج الرجال للجهاد حفظن أموالهم، وغزلن أثوابهم وربين أولادهم، وقد أعجب النبي صلى الله عليه وسلم بمقالتها رضى الله عنها من توضيحها لدورها وحرصها على دينها وسؤالها عنه، وأخبرها صلى الله عليه وسلم أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته يعدل فضل الجماعات وشهود الجنائز بل، وذكر في رواية أخرى للحديث أنه يعدل الجهاد في سبيل الله والذي هو ذروة سنام الأمر في الإسلام.

هذا هو مكان المرأة الأول كما حدده الشارع جل في علاه، وها هو دورها الأساسي في الإسلام، وإنه لجليل ثقيل، ولتقدير النبي صلى الله عليه وسلم لعظمه وثقله؛ كان يعين أهله فيما يمكنه أن يعينهم فيه، فكان كما قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : " كان النبي في مهنة أهله " [2].

وكان صلى الله عليه وسلم " يخيط ثوبه ويخصف نعله " [3] فما كان

(1) رواه البيهقي في (شعب الإيمان) والحديث له شواهد كثيرة.
(2) رواه البخاري.
(3) رواه ابن حبان في صحيحه.

يستنكف النبي صلى الله عليه وسلم داخل بيته أن يقوم بحاجته وأن يخدم نفسه، فيخصف نعله ويخيط ثوبه بل إنه كان يقوم أحيانًا بحاجة أهلة، يساعدهن في مهنتهن وهن رضي الله عنهن لم يكن لهن أولاد يشغلونهن، وبيوتهن الطاهرة رضي الله عنهن كانت حجرات بسيطة قليلة الأثاث والمتاع، فما بالنا اليوم بالنساء اللاتي يخرجن من بيوتهن بدعوى أن القرار فيها ملل وسأم، وأنهن لا يجدن فيها ما يملأن به فراغ أوقاتهن، ولا يجدن ما يفعلنه إذا ما لزمن بيوتهن، برغم ما فيها من أزواج أولاد، وما بها من كظيظ المتاع والأثاث، وبرغم ما أصبح فيها من وسائل اتصال، ووسائل ترفيه ومسليات وملهيات.

ونعود فنكرر أن مرد تلك الكارثة أن المرأة قد خرجت أو أخرجت من البيت في سن السادسة بدعوى التعليم، وقضت سنوات طوال خارج البيت متنقلة من مرحلة تعليمية إلى أخرى ليس بالأحرى لطلب العلم وإنما لتحقيق الضمان الاجتماعي الذي باتت المرأة تفتقده في مجتمعاتنا المسلمة بعدما حرمت من أهم رافدين له وهما المهر والإرث، وبذلك الخروج المستمر المتكرر بدعوى التعليم ألفت الخروج، وإذا ما جاء أحد بعد ذلك ليقرها في البيت يكون قد وقف وجهًا لوجه محاربًا ما ألفته واعتادت عليه وأحبته وآمنت به، ويكون بفعلته تلك قد سجنها وقيد حركتها وقلص حريتها حتى وإن حفظها وأكرمها، أغرقها بما تحلم به كل امرأة من متاع الدنيا فإن الخروج يظل أمنية عزيزة لديها.

إن البيـــوت وســـترها قـــد ::: أصبحت عنـــد النســـاء ســـجونًا

وأصبحت النساء يلتمسن كل فرصه للهرب من سجونهن بما في ذلك المتعلمات والمقلدات لهن من غير المتعلمات وإن بدت تلك الظاهرة لدى المتعلمات أوضح، ولم يعد هناك فرق في ذلك بين الريف الحضر، ففي الريف وفرت التكنولوجيا الحديثة الوقت لدى النساء الريفيات فعرفن في أي شيء ينفقن أوقاتهن، ولم يجدن أحسن من هجرة البيوت والجلوس

خارجها متلذذات بمجالس اتخذنها أمام البيوت عرضة للمارة في الطرقات، وأصبح الأمر عاديًا مألوفًا لديهن، بل ولدى أوليائهن من الرجال، فلم يجدن من ينهاهن عن ذلك.

ألم يعلم هؤلاء النسوة وأولياؤهن أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أصحابه الرجال عن أن يتخذوا الطرقات مجالس لهم حينما قال لهم:{**إياكم والجلوس في الطرقات...**} [1].

فما باله صلى الله عليه وسلم لو رأى نساءنا اليوم وقد جلسن يتحدثن خارج البيوت على جوانب الطرق، وكأن البيوت قد لفظتهن، وقد غفلن عن أمر الله سبحانه لهن بالقرار في بيوتهن لا خارجها، ولم يكترثن بنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الجلوس في الطرقات، وللأسف لا يكاد يخلو شارع من الشوارع ولا درب من الدروب من تلك الظاهرة السيئة.

أما في المدينة فالصورة تبدو أوضح وأقبح، فالمرأة هناك تراها تتحين الفرصة التي ينتهي فيها عملها خارج البيت إذا ما كانت عاملة خارج البيت، أو عملها داخل البيت إذا ما كانت ربة بيت؛ لتخرج إلى النوادي والمتنزهات، وأمام حوانيت المثلجات في الطرق العامة وعلى مقاعد تلك الطرق ترى النساء، وقد جلسن متكئات يشربن العصائر والمياه الغازية في أيام الصيف، أو يحتسين أكواب الشاي والكاكاو في الشتاء تراهن هكذا - إذا أردت - طوال أيام الأسبوع بدعوى الضيق والملل والفراغ، فهل هذا حال يرضي الله تعالى ورسوله.

وفي الختام نقول: إن تقنين خروج المرأة وتقييده بالضرورة هو في الحقيقة حكم لصالح المرأة ومجتمعها لاعليهما؛ إذ بذلك التقنين والتقييد يكون خروج المرأة أكثر فاعليةً وعطاءً، ولكي لا أعطل من النساء كوادر يستطعن أن يقدمن للأمة الكثير لهن أقول: إنكن لكي يكون

---

(1) متفق عليه.

خروجكن مباحًا جدن أولاً عملاً بحق نافعًا للأمة وثانيًا مناسبًا لكن لا يستطيع أن يقوم به عنكن الرجال إما بنوع العمل وإما بتميزكن فيه، واسعين مجاهدات قدر الطاقة في بيوتكن وخارجها محاولات أن توفين كلاً حقه مع التزامكن بما أمر الله تعالى به من حجاب وحشمة، واعلمن أنكن إن استطعتن أن تقدمن أفضل ما لديكن في بيوتكن وخارجها، وبززتن الأقران أنكن إن شاء الله مأجورات مشكورات، على ألا تخرج لتلك المهمة كل النساء ولا الأغلبية منهن.

ونعود لنؤكد أنه لابد من إعادة قطاع كبير من النساء لبيوتهن من أولئك اللواتي يشكلن عبئًا على الشعوب والحكومات ممن يمثلن البطالة المقنعة أحسن تمثيل، ولتعرف المرأة أن البيت هو مكانها الحقيقي فتقر فيه وتأنس به، وفيه تنتج وتبدع ولتمنح جميع أفراد الأسرة الحب والدفء والحنان، وليجد فيه الجميع الراحة والسكن، وليستمدوا منه كل طاقة وليستعيدوا فيه كل قوة ونشاط، ولتعلم المرأة، وليعلم جميع أفراد الأسرة أن خروج المرأة من بيتها خروج ضرورة فإذا ما انتفت الضرورة انتفى الخروج، وعلى كل من تسوقها الضرورة أيا كانت تلك الضرورة - لها أو لمجتمعها - للخروج من البيت أن ترفع شعار{لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ} [القصص: ٢٣] ليمثل عندها خلقًا من أهم أخلاق المرأة المسلمة ومبدأ من أهم مبادئها محيية به أخلاقًا نعتز بها أهمها الحياء، ورافضة بذا المبدأ الاختلاط قولاً وعملا.

لكي يحدث ذلك

ولكي يحدث كل ذلك فلابد من إحياء قيم باتت مفقودة في حياتنا من أوئلها الحياء والقناعة والبركة، ولابد أن تحيا معها مهارات الصناعات والحرف المنزلية إذ بتلك الصناعات وهاتيك الحرف تثار الطاقات المعطلة لدى النساء، ويعرفن أنهن بإمكانهن وهن بمكانهن في البيوت أن ينفعن أنفسهن وأسرهن ومجتمعهن، وبدلاً من حديث طويل ثقيل عن إن

كان الإسلام يسمح بخروج المرأة للعمل أم لا، وبين مؤيد ومعارض دعونا نُدخِل العمل للمرأة بتلك الحرف والصناعات وما يمكن أن يدخل من الوظائف إلى البيوت، ولكي يحقق مثل هذا الأمل الغالي؛ لابد أولاً من دعم الحكومات له إعلاميًا واجتماعيًا وماديًا، ولتدخر بعد ملايين تعطى لموظفات فقط لأنهن يوقعن في دفاتر الحضور والانصراف دون أن يؤدين أدنىعمل فهل إلى ذلك من سبيل؟

هل من سبيل وقد سمعنا عن ربات بيوت في الصين تحولت بيوتهن لمصانع للصناعات الصغيرة غزون بها أسواق العالم، وأصبحت بلادهن بعملهن هذا بلدًا رائدًا في الصناعة له مكانة عظمى بين دول العالم المتقدم؟

هل من سبيل وقد رأينا جدات لنا كن ينتجن وهن في بيوتهن أكثر مما ينتج أزواجهن خارج البيوت؟

هل من سبيل وقد قرأنا عن إحصائيات دولية تنبئ بالتأثير السلبي لخروج النساء بتلك الأعداد الكبيرة وهذه النسب العالية إلى العمل في الاقتصاد بنسب ليست بالقليلة؟

هل من سبيل وقد سمعنا عن تعليم من بعد عبر الشبكات وعبر الإنترنت لا تحتاج المرأة لتناله أن تخرج من بيتها؟.

هل من سبيل لإقرار المرأة في البيت وقد فقدت الضمان الاجتماعي بأعراف بالية أجحفت حقها حينما حرمتها من الإرث ومن المهر فبات العمل لدى قطاع كبير من النساء هو الملجأ لهن من الفقر والعوز؟

هل من سبيل وقد قرأنا عن فرض كان يفرضه الخليفة الراشد عمر ابن الخطاب لكل مولود يولد في الإسلام؛ فتطمئن أمه على رزقها ورزق ولدها، فلا تخرج لجلب دريهمات مضحية بنفسها وبقرارها في بيتها وباستقرار أسرتها؟

هل من سبيل وقد سمعنا عن أبناء موظفات إن لزمت أمهاتهم البيوت جاعوا، وإن خرجن للعمل ضاعوا؟

هل من سبيل وقد رأينا موظفات خرجن من بيوتهن بطرًا ورئاءً (للعمل ولاعمل) لأنهن وجدن فرصة للوظيفة في زمن قلت فيه الوظائف، مرددات أنهن مستمسكات بوظائفهن وإن لم يكن يؤدين فيها شيئًا سوى تبادل الكلام فيما لا يفيد، فاحتللن قطاعًا عريضًا من البطالة المقنعة، ومثل أبناؤهن نماذج حقيقية للطفولة المشردة، وبتن عبئًا على الشعوب والحكومات؟

هل من سبيل وقد سمعنا عن أمهات عظيمات في دول أوربية وغربية تركن العمل خارج البيت في شركات ومؤسسات عملاقة مع ما يتقاضينه من راتب عظيم فيها؛ لإدراكهن حاجة بيوتهن وأولادهن إليهن، وحاجتهن إلى لزوم البيت والقرار فيه والاستمتاع بالدفء الأسرى مع الزوج والأولاد رغم أنهن غير مسلمات ولم يقرأن{وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ} ولم يسمعن حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن النساء الكاسيات العاريات؟

هل من سبيل وقد سمعنا من نداءات ودعوات غربية تطالب برد المرأة إلى البيت وإعادتها لمكانها الطبيعي وإعطائها أجرًا ماديًا مقابل ذلك؛ لأنهم وجدوا في قرارها في البيت حلاً لكثير من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كالبطالة والتطرف والمخدرات و...؟

هل من سبيل وقد قرأنا آيات من كتاب الله سبحانه يأمر الله جل علاه فيها المرأة بلزوم البيت وعدم البروز منه إلا لضرورة، وقد أوجد لها عملاً هو خير من إنفاق الذهب والفضة، وخير من ضرب أعناق العدو، إذ هو أرفع الأعمال وأحسنها وأزكاها، وهو خير من الإنفاق والبذل والجهاد في سبيل الله إنه ذكر الله سبحانه وتعالى:{ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾} [الأحزاب: ٣٤] ذكر

الله الذي يملأ البيوت بركة ورضًا وإيمانًا، وأوجد لها مع ذلك دورًا يناسب طبيعتها كأنثى من حمل وإرضاع وتربية للأبناء الذين هم عدة كل وطن وعتاده؟

هل من سبيل وقد رأينا بنات في سن حرجة قد خرجن في أوقات غير مناسبة طلبًا للدروس الخصوصية في علم ما، أو للعمل مما عرضهن لمخاطر وأضرار لا يتسع المقام لسردها؟

هل من سبيل وقد رأينا آباء على درجة عالية من التعليم قد أخرجن بناتهم من المدارس وحرمنهن من التعليم حينما بلغن؛ حرصًا عليهن من أخطار طريق التعليم الطويل دون أن يقوم هؤلاء الآباء بتعليمهن ما يجب لهن أن يعلمنه، فصرن تجسيدًا للجهل والظلم؟

هل من سبيل وقد سمعنا عن مؤسسة تعليمية عظيمة في دبي البلد العربي المسلم الشقيق تخرج متعلمين في سن السادسة عشر على مستوى علمي وعملي ينافس جميع خريجي جامعات العالم وقد قرأنا من قبل ذلك عن الصحابي الجليل زيد بن ثابت رضى الله عنه عندما أجاد السريانية وحذقها في سبعة عشر يومًا؟

هل من سبيل وقد سمعنا وصية للإمام الشافعي يوصي فيها بما يشبه الدورات التعليمية [1]، وقد لمسنا نجاح ما أوصى به الإمام في حياتنا التعليمية المعاصرة من دورات في تحفيظ القرآن الكريم، والسنة المطهرة، ودورات في تعليم الحاسوب، و...؟

هل من سبيل وقد رأينا أعمالاً تقوم بها المرأة اليوم لم يعد يجدي معها رفع شعار لا نسقي حتى يصدر الرعاء ولا تمثله خلقًا؛ إذ لابد مع تلك الأعمال من اختلاط المرأة بالرجال فهذه طبيبة وما شابهها يقتضي عملها اليومي أن ترفع ثياب هذا، وترى عورة هذا، وتتحسس جسد هذا، وتلك

---

(1) تقدمت الوصية قبل ذلك.

معلمة في مدارس مختلطة تقف مع ذا وذاك من الزملاء، وتعلم طلابًا تفوق قامتهم قامتها تقف أمامهم بالساعات، وتنحني عليهم لترى واجباتهم وتضاحكهم وتعاقبهم وتجالسهم كل ذلك بشكل يومي على مدار العام وغيرهن وغيرهن الكثير فأين من ذلك{لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ} [القصص: ٢٣].

هل من سبيل لهؤلاء الطبيبات والمعلمات ومن شابههن أن يجدن عملاً مناسبًا لهن في بلاد ترفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله.

سمعنا كثيرًا... وقرأنا كثيرًا... ورأينا كثيرًا... ولكن ولبالغ الأسف لم نتعد تلك الثلاث... والله المستعان.

* * *

فسقى لهما

القرآن خُلقًا

فَسَقَى لَهُمَا

قال تعالى:

{فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24)} [القصص: ٢١ - ٢٤].

التفسير:

{فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21)} لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره خرج من مصر وحده، ولم يألف ذلك قبله، بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة{فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ} أي يتلفت{قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} أي من فرعون وملئه.

فذكروا أن الله سبحانه وتعالى بعث إليه ملكًا على فرس فأرشده إلى الطريق، والله أعلم.{وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ} أي: أخذ طريقًا سالكًا مهيعًا فرح بذلك{قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ} أي: الطريق الأقوم، ففعل الله به ذلك، وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة فجعله هاديًا مهديًا.{وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ} أي: لما وصل إلى مدين، وورد ماءها، وكان لها بئر يرده رعاء الشاء{وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ} أي: جماعة يسقون{وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ} أي تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا، فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما{قَالَ مَا خَطْبُكُمَا} أي: ما خبركما لا تردان مع هؤلاء؟{قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ} أي: لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء{وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} أي: فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى.

قال الله تعالى:{فَسَقَىٰ لَهُمَا} وروى ابن أبى شيبة عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال: فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ فحدثتاه فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذنوبًا واحدًا حتى رويت الغنم. إسناده صحيح. وقوله:{ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}.

قال ابن عباس: صار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر وكان حافيًا، فلما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل، وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة. وقوله:{إِلَى ٱلظِّلِّ} أي جلس تحت شجرة [1].

تروي الآيات الكريمات قصة شائقة ممتعة فيها من العظة والعبرة ما فيها حيث يخبرنا الله سبحانه من أمر موسى عليه السلام أنه قتل نفسًا بغير عمد، حينما كان ناصرًا لرجل من شيعته (بني إسرائيل) كان قد حدثت بينه وبين رجل من القبط مشادة وصلت إلى حد الاقتتال، فاستغاث بموسى عليه السلام الذي من شيعته، فوكز موسى ذلك القبطي فقضى عليه، فأصبح خائفًا يترقب من البطش به، وقد أخبره أحد الرجال المخلصين له بما عزم عليه فرعون ودولته من التهيؤ والاستعداد لقتله عليه السلام، ونصحه ذلك الرجل بأن يخرج من مصر لئلا يصيبه آذاهم فخرج عليه السلام من مصر خائفًا يترقب يخشى سطوة الملأ عليه والثأر منه لذاك الرجل الذي قتله، فخرج عليه السلام فارًا بنفسه مهدرًا دمه طريدًا شريدًا تاركًا آله وصحبه فقيرًا منهم ومن المال همه النجاة بنفسه من هلاك بات محققًا، ولما ورد عليه السلام ماء مدين وجد عليه أمة من

(1) مختصر تفسير ابن كثير.

النـاس يسقون أنعـامهم ودوابهـم، ووجـد مـن دون هـؤلاء النـاس امـرأتين تذودان أي تمنعان أغنامهما من أن تشرب أوحتى تقرب المـاء، فتعجب عليـه السـلام مـن أمـر هـاتين المـرأتين، فـإن كانتـا لا تريـدان أن تسقيا أغنامهما فلماذا أوردتاها المـاء؟ وإن كانتـا قد جاءتـا بأغنامهمـا لتسقياها فلماذا إذن تمنعانها وتذودانها عن أن تشرب؟!

فيسـألهما عليـه السـلام عـن سـبب فعلهمـا{مَا خَطْبُكُمَا} فيخبرانـه بالسـبب قـائلتين:{لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ}. وهنـا يـدرك عليـه السلام عذرهما، ويسقي لهما أغنامهما، ثم يتولى إلى الظل راجعًا لهمه ومعاناته، مناجيًا الله أن ينفس كربه ويفرج همه قـائلاً:{رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}.

وإذا ما نظرنا لأمر موسى عليه السلام في هذا الموقف لانتابنا العجب، واعترتنا الدهشة، رجل في موقفه وفي مثل حاله من الخوف والحذر والترقب والاغتراب والجوع الفقر والمعاناة الشديدة أتراه يلتفت إلى هاتين المرأتين وما هما فيه من مشقة وتعب؟ أو يعيرهما انتباهًا؟! أم سيذهله ما هو فيه من هم و كرب عن رؤيتهما، أو الانتباه لوجودهما؟!

وإذا ما لفت ذلك المشهد نظره وأعاره انتباهًا، ورأى الفتاتين وهما تذودان أغنامهما، وأدرك ما هما فيه من مشقة وعناء في منع أغنامهما عن الماء مع اندفاع الأغنام نحوها، فهل تراه سائلهما عن فعلهما هذا؟! وإذا ما سألهما هل تراه أخيرًا يقدم على تقديم العون لهما، ودفع ما هما فيه من مشقة ومعاناة، وهو على هذا الحال من الخوف والاضطراب والتشتت؟.

وبكم تقدر معاناة هاتين الفتاتين إذا ما قيست بمعاناته؟! وكم تبلغ مشكلتهما إذا ما قورنت بمشكلته؟!

إن شخصًا في مكان موسى عليه السلام وبنفس حاله ربما لا يرى الفتاتين أصلاً، وإذا ما رآهما فلن يدرك ما هما فيه، ولن يشعر به، ولن يسألهما عما يفعلانه، فما له ولهما، وربما إذا سألهما

سيسألهما من باب الفضول أوالاستئناس بالحديث معهما، أما أن يدرك أو يقدر سبب ما هما فيه فبعيد جدًا؛ لذا فالنتيجة النهائية فستكون عدم التحرك للمساعدة أو تقديم العون، وعذره في ذلك كربه الذي هو فيه، وهمه الذي استحوذ عليه، وشغله بالتفكير في بلواه عن الاهتمام بهما، وتقديم العون لهما.

ولكن موسى عليه السلام لم يفعل كذلك الشخص الذي افترضنا وجوده مكانه، فبرغم ما كان موسى عليه السلام فيه من معاناة الهروب والغربة والخوف والترقب والفقر وإهدار الدم والنصب والجوع - وهو الذي لم يعتد ذلك إذ إنه ربيب القصور المنعم المرفه - لم يمنعه كل ذلك عن أن يرى المرأتين ويدرك ما هما فيه ليقدم لهما المساعدة، وليدفع عنهما ما يجدانه من مشقة وعنت، ويحل لهما مشكلتهما، على الرغم من أنهما غريبتان عنه لا يعرفهما ولا يعرفانه، فقد عرض عليه موقف للمروءة فكان أولى الناس به، وسأل موسى عليه السلام المرأتين: لماذا لا تتقدمان وتسقيان أغنامكما مع الرعاء؟ ولماذا تذودانها وتكفكفانها عن الماء مع أنكما أوردتاها لتشرب؟ فيجيبانه بأنهما لا تسقيان حتى يصدر الرعاء وينتهوا من سقي أغنامهم ودوابهم، وتبين المرأتان لموسى عليه السلام وتعربان له عن سبب مباشرتهما العمل، وخروجهما لمزاولته؛ ذلك أن أباهما شيخ كبير لا يستطيع العمل.

فيقدر الكليم وجهة نظرهما، ويقدر الخلق الذي دفعهما للابتعاد بأغنامهما عن الماء، والذي هو خلق الحياء، ويشفق عليهما شفقة أخ في الإنسانية، ويقدم لهما قصارى ما يمكن أن يقدمه من عون ومساعدة؛ لتنصرفا عزيزتين كريمتين ما دام أن هناك رجال مثله عليه السلام، وينصرف عليه السلام إلى الظل مفكرًا في همه الثقيل الذي ألح عليه داعيًا الله أن يفرج عنه ما هو فيه{رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} تلك هي المروءة التي تفرض نفسها على صاحبها على كل أحواله.

مروءة النبي صلى الله عليه وسلم

وللنبي محمد صلى الله عليه وسلم مواقف كثيرة عديدة للمروءة، والقيام على النساء على كل حال كان فيه صلى الله عليه وسلم عرضتها السنة النبوية المشرفة، كموقف موسى عليه السلام الذي عرضه كتاب الله، اخترت من تلك المواقف التي تسجل للنبي صلى الله عليه وسلم وتشهد له بذلك الخلق الشواهد التالية:

فقد روى البخاري عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنه قالت: تزوجني الزبير، وما له في الأرض من مال، ولا مملوك، ولا شيء غير ناضح، وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه واستقى الماء وأخرز غربه وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جارات لي من الأنصار وكن نسوة صدق، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسي، وهي مني على ثلثي فرسخ، فجئت يومًا والنوى على رأسي فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من الأنصار فدعاني ثم قال:{إخ إخ}، ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، وكان أغير الناس، فعرف رسول الله أني قد استحييت فمضى، فجئت الزبير فقلت: لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رأسي النوى، ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب، فاستحييت منه وعرفت غيرتك. فقال: والله لحملك النوى كان أشد عليَّ من ركوبك معه. قالت: حتى أرسل إلىَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم يكفيني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني [1].

وشاهدنا من حديثنا هذا الطويل كثير الفائدة هو شغل النبي صلى الله عليه وسلم بأسماء رضى الله عنها ، وهو من شغل بأعظم مما شغل به موسى عليه السلام، وحمل همًا أثقل من همه إذ إنه لم يحمل هم نفسه فقط

(1) أخرجه البخاري.

كموسى عليه السلام في الآيات السابقات، وإنما حمل هم أمة بأكملها دينًا ينشر، ودولةً تقام، وجيوشًا تجهز، وبعوثًا تبعث، ومراسلات ترسل، ووفودًا تستقبل، ومنازعات تفض، وقلوبًا تستقطب، وأفكارًا تصحح، وأخلاقًا تغرس، وأخرى تقتلع، وأمورًا عظيمة تدبر، ومع كل ذلك يرى النبي صلى الله عليه وسلم أسماء رضى الله عنها ويهمه أمرها وقد قدمت من حقلها البعيد حاملة النوى فوق رأسها، فلا يطيق احتمال رؤية معاناتها، فينيخ لها ناقته صلى الله عليه وسلم؛ لتركب، ولكنها تمتنع أن تقبل عونه لها، وترد خدمته لأسباب شخصية لديها لا يمكنها الإفصاح له عنها، فهي تستحي أن تسير مع الرجال، وتذكر زوجها الزبير وغيرته الشديدة، فلا تستطيع أن تركب. ويعرف النبي صلى الله عليه وسلم الذكي اللماح الألمعي أسباب عدم ركوبها، فما يكون منه إلا أن يحترم وجهة نظرها في رؤيتها لتلك الأسباب، ويقيم ناقته ويمضي صلى الله عليه وسلم هو وصحبه في طريقهم.

وتذكر الروايات وتؤكد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينس مشهد رؤيتة أسماء رضى الله عنها حاملة النوى فوق رأسها، وأن ذلك الخادم الذي أرسله إليها أبوها الصديق رضى الله عنه كان قد أرسل له النبي صلى الله عليه وسلم من سبي قد أتاه من إحدى الغزوات ليرسله إلى أسماء رضى الله عنها .

وإن شئت أن تجد مبررًا أصيلاً لموقفه صلى الله عليه وسلم مع أسماء رضى الله عنها ، فلن تجد مبررًا هو أقوى من حبه للنساء، ورفقه بهن، ورحمته وتقديره لهن، فإن تعذرت خدمته لهن في موقف بعينه بطريقة ما بحث عن طريقة أخرى يعينهن بها.

انشغال النبي صلى الله عليه وسلم **برفع العبء النفسي عن المرأة**

هذا وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينشغل برفع العبء المادي فقط عن المرأة، بل اهتم كذلك برفع العبء النفسي والعناء المعنوي عنها يشهد له بذلك المواقف التالية فعن أم المؤمنين صفية رضى الله عنها قالت: " كان النبي صلى الله عليه وسلم معتكفًا، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته ثم قمت لأنقلب، فقام معي ليقلبني... " [1].

في الحديث تزور السيدة صفية بنت حيي أم المؤمنين النبي صلى الله عليه وسلم وهو في معتكفه في العشر الأواخرمن رمضان، فتمكث معه قدر ما قدره الله لها من مكث، ثم تقوم لترجع لبيتها بعد أن انتهت زيارتها له صلى الله عليه وسلم، فلا يتركها النبي صلى الله عليه وسلم ترجع كما أتت بمفردها، وإنما يقوم معها ليقلبها إلى بيتها برغم أنه معتكف كريمة مكرمة.

إنه الاهتمام بالمرأة والقيام عليها حتى وإن كان في معتكفه في أيام معدودات يخلو فيهن لربه بعيداً عن كل شواغل الدنيا، فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم مع نسائه مثلاً يحتذى في المروءة والإكرام لهن والقيام بأمرهن كلهن كأحسن ما يكون القيام، برغم ما هو فيه من الانشغال بأمور جسام، والاضطلاع بشؤون عظام حتى أن القارئ لسيرته صلى الله عليه وسلم يخيل إليه لشدة اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بنسائه وقيامه عليهن أنه قد تفرغ لذلك الجانب تفرغًا كاملاً.

حتى في الحرب مهتم بها

غير أن اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالمرأة سواء أكانت من نسائه أو من غيرهن أمر قطعي مشهود له به لم يقتصر فقط في الأوضاع السلمية والأحوال المستتبة - وإن كان ذلك يحسب له لما يجد من تبعات

(1) متفق عليه. انظر: الحديث ص 97.

ثقال وما يشغله من أمور جسام - وإنما كان اهتمامه بالمرأة يشغله حتى في الأوقات العصيبة والأزمات الشديدة وقت الحروب والمعارك بل وفي أحلك حالاتهما وسط الهزيمة وقتل الأحباب من الأهل والأصحاب، والشاهد على ذلك من غزوة أحد وبالتحديد بعد انتهائها وتحقق وقوع هزيمة المسلمين فيها، وفرار بعضهم من ساحة القتال، وتخليهم عن رسول الله، ومصابه صلى الله عليه وسلم فيها في نفسه من حزن على مخالفة الرماة له، وفي جسده الشريف فقد كسرت رباعيته وشج رأسه، وقتل أحبابه من أهل وأصحاب فقد قتل منهم سبعون رجلاً، ولم يكتف المشركون بذا، ولكنهم أبوا إلا أن يشوهوا قتلى المسلمين فمثلوا بمن أرادوا منهم فقطعوا الآذان والأنوف والفروج، وبقروا البطون، وكان ممن قتل يوم أحد حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وأخوه من الرضاعة وقد مثل به إذ بقرت هند بنت عتبة بطنه ولاكت كبده، ولم تستطع أن تسيغها فلفظتها [1]، ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما بحمزة - عمه وأخيه من الرضاعة - اشتد حزنه. قال ابن مسعود: ما رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم باكيًا قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب، وضعه في القبلة، ثم وقف على جنازته، وانتحب حتى نشع من البكاء [2] والنشع: الشهيق.

ووسط تلك الأحداث الدامية، وفي قلب ساحة المعركة التي امتلأت بدماء الأحباب وأشلائهم مثلت شواهد لهزيمة نكراء يشغل النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الكارثة، وذلك الرزء العظيم ألا ترى صفية بنت عبد المطلب أخاها، وقد قتل ومثل به؛ رأفة بحالها، ومراعاة لضعفها، وجبرًا لخاطرها. قال ابن إسحاق: " وقد أقبلت فيما بلغني، صفية بنت عبد المطلب؛ لتنظر إليه وكان أخاها لأبيها وأمها، قال رسول الله صلى الله

(1) انظر الرحيق المختوم وهامشه.
(2) انظر الرحيق المختوم وهامشه.

عليه وسلم لابنها الزبير بن العوام: ألقها فأرجعها لا ترى ما بأخيها، فقال لها: يا أمه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن ترجعي، قالت ولم؟ وقد بلغني أن قد مثل بأخي، وذلك في الله فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله. فلما جاء الزبير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك قال خل سبيلها، فأتته فنظرت إليه فصلت عليه واسترجعت واستغفرت ثم أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفن [1].

أرأيت كيف يشغل النبي صلى الله عليه وسلم في وسط حزنه وآلامه ألا ترى عمته صفية رضى الله عنها ما بأخيها من المثلة، فيتخير لها من يردها عن رؤية ذلك المنظر ابنها الزبير رضى الله عنه أرأف الناس بها وأقربهم إلى قلبها - بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم - تلك هي عين النبي صلى الله عليه وسلم التي لا تغيب عنها المرأة أيما وأينما كانت، وتلك هي حفاوته واهتمامه بها وبكل ما من شأنه أن يخفف عنها ويريحها ويكرمها ويسعدها على كل حال وأي حال كان فيه صلى الله عليه وسلم، وكيف لايفعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وهو القائل:{**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**} [2]... **وخياركم خياركم لنسائهم**} [3] وكيف لا وهو المنادي بإكرام النساء والإحسان إليهن:{**ألا واستوصوا بالنساء خيرًا**} [4]، وهو الحاث صلى الله عليه وسلم على مرعاة كل حقوق المرأة، المحرج المحذر الزاجرعن تضييع أي منها زجرًا شديدًا: فقد قال صلى الله عليه وسلم :{**اللهم إني أحرج حق الضعيفين اليتيم والمرأة**} [5].

وكيف لا والنبي صلى الله عليه وسلم هو أول وأفضل المطبقين لما دعا

---

(1) سيرة ابن هشام.
(2) أخرجه الطبراني.
(3) رواه الترمذي.
(4) متفق عليه.
(5) رواه النسائي.

إليه فلقد استوصى بالنساء كل النساء كل خير فمنحهن حقوقًا لهن كانت ضائعة ومضيعة في كل قوانين الأرض، وأكرمهن وأحسن إليهن وأعزهن، وأوصى الرجال بهن، فجزاه الله عنا أفضل وأجزل الجزاء، وصلى الله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم صلاة تبلغه المقام المحمود الذي رامه وابتغاه ووعده الله سبحانه وتعالى إياه.

صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم **وخلق المروءة**

وإذا ما تتبعنا المبدأ عينه في سيرة صحابته الكرام إلا ووجدناه مبدأ جلي الصورة واضح القسمات، اخترنا من شواهده الكثيرة هذين الشاهدين: أما أولهما فكان من نصيب خليفة رسول الله وثاني اثنين إذ هما في الغار أبو بكر الصديق رضى الله عنه، فقد أخرج الخطيب عن أبي صالح الغفاري أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يتعاهد عجوزًا كبيرة عمياء في حواشي المدينة من الليل، فيستسقي لها ويقوم بأمرها وكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ما أرادت. فجاءها غير مرة فلا يسبق إليها فرصده عمر فإذا هو بأبي بكر الصديق رضى الله عنه الذي يأتيها وهو خليفة. فقال عمر: أنت لعمري [1].

شاهدنا من الموقف السابق أن أبا بكر الصديق لا تنسيه مهام الخلافة الثقال أن يتفقد امرأة كبيرة عمياء في أطراف المدينة تحتاج إلى العون، فيدخر لها بعضًا من وقته الثمين؛ لينفقه في قضاء حوائجها بما لا يسبقه إليها سابق.

وأما الشاهد الثاني فهو للخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، إذ للفاروق مواقف كثيرة للمروءة والقيام بشأن المرأة على أكمل وجه، فقد أخرج ابن أبي حاتم والدارمي والبيهقي عن أبي يزيد، قال: لقي عمر بن الخطاب رضى الله عنه امرأة يقال لها: خولة رضى الله عنها وهى تسير

(1) حياة الصحابة.

مع الناس، فاستوقفته، فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها رأسه ووضع يديه على منكبيها، حتى قضت حاجتها وانصرفت. فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، حبست رجالات قريش على هذه العجوز؟ قال ويحك، أتدري من هذه؟ قال: لا قال: هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله، لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها [1].

هكذا اهتم عمر بشأن المرأة واحتفى بها ووقف يستمع لما تقول مصغيًا واعيًا لمقالتها، حابسًا رجالات قريش حتى تنتهي المرأة من مقالتها، وعندما عاتبه أحدهم على فرط اهتمامه بها، نهره عمر رضى الله عنه ذاكرًا له فضل المرأة، وإصراره على أن يقضي لها حاجتها مهما كلفه ذلك.

فهذا هو عمر رضى الله عنه، وهكذا كان اهتمامه بالمرأة وقيامه عليها، وحفاوته بها، وهكذا كان شأن ساداتنا الأنبياء صلى الله عليهم وسلم، وشأن من اتبعهم بإحسان من الصحابة الأبرار، فيما جبلوا عليه من كريم الأخلاق وعظيم السجايا، ومما غرسه الإسلام فيهم من المروءة والرحمة وسائر مكارم الأخلاق.

المروءة من سجايا النفوس

وإن شئت لقلت ولصدقت أن خلق المروءة والقيام بأمر النساء أيما وأينما كن، وعلى كل حال كان الرجل فيه لهو خلق من سجايا النفوس وطبائع الفطرة، التي فطر الله سبحانه الناس عليها وذلك بعيدًا عن أي عقيدة، أو انتماء، والشاهد الذي يشهد بذلك قصة لرجل لم يكن مسلمًا وقتما قام بأمر امرأة مسلمة، وقدم لها العون غير ناظر لأي مقابل ماديًا كان أومعنويًا، أو ملتفت لما تدين وما

(1) حياة الصحابة.

يـدين إنــه عثمــان بــن طلحــة. فقـد أخـرج ابـن إسـحاق عـن أم سـلمة رضـى الله عنهـا قالـت: لمـا أجمـع أبـو سـلمة رضـى الله عنـه الخـروج إلـى المدينـة رحّـل لـي بعيـره، ثـم حملنـي عليـه وجعـل معـي ابنـي سـلمة بـن أبـي سلمة فـي حجـري، ثـم خـرج يقـود بـي بعيـره. فلمـا رأتـه رجـال بنــي المغيــرة قــاموا إليــه فقــالوا: هــذه نفسـك غلبتنــا عليهــا، أرأيــت صــاحبتنا هــذه، عــلام نتركـك تسـير بهــا فــي الـبلاد؟ قالـت: فنزعـوا خطـام البعيـر مـن يـده وأخـذوني منـه. قالـت، وغضـب عنـد ذلـك ابـن عبـد الأسـد رهـط أبـي سـلمة وقــالوا: والله، لا نتـرك ابننــا عنـدها إذ نزعتموهــا مــن صــاحبنا. قالــت: فتجــاذبوا ابنــي ســلمة بيــنهم حتــى خلعـوا يـده وانطلـق بـه بنـو عبـد الأسـد وحبسـني بنـو المغيـرة عنـدهم وانطلـق زوجـي أبـو سـلمة إلـى المدينـة، قالـت: ففـرق بينـي وبـين ابنـي وبـين زوجـي. قالـت: فكنـت أخـرج كـل غـداة فـأجلس فـي الأبطـح، فمـا أزال أبكـي حتـى أمسـي سـنةً أو قريبًـا منهـا، حتـى مـر بـي رجـل مـن بنــي عمــي أحــد بنــي المغيــرة فــرأى مــا بــي فرحمنــي فقــال لبنــي المغيـرة: ألا تخرجـون مـن هـذه المسـكينة، فـرقتم بينهـا وبـين زوجهـا وبـين ولـدها؟ قالـت: فقـالوا لـي: الحقـي بزوجـك إن شـئت. قالـت: فـرد بنـو عبـد الأسـد إلـى عنـد ذلـك ابنـي. قالـت: فارتحلـت بعيـري، ثـم أخـذت ابنـي ووضـعته فـي حجـري، ثـم خرجـت أريـد زوجـي بالمدينـة. قالــت: ومــا معــي أحــد مــن خلــق الله حتــى إذا كنــت بــالتنعيم لقيــت عثمـان ابـن طلحـة ابـن أبـي طلحـة أخـا بنـي عبـد الـدار. فقـال: إلـى أيـن يابنـة أبـي أميـة؟ قلـت: أريـد زوجـي بالمدينـة. قـال: أو مـا معـك أحـد؟ قلـت مـا معـي أحـد إلا الله وبنـي هـذا. فقـال: والله، مـا لـك مـن متـرك فأخـذ بخطــام البعيـر فــانطلق معــي يهـوي بــي، فـوالله، مــا صــحبت رجـلاً مـن العـرب قـط أرى أنـه كـان أكـرم منـه. كـان إذا بلـغ المنـزل أنـاخ بـي ثـم اسـتأخر عنـي حتـى إذا نزلـت اسـتأخر ببعيـري فحـط عنـه،

ثـم قيـده فـي الشـجر ثـم تنحـى إلـى شـجرة فاضـطجع تحتهـا. فـإذا دنـا الـرواح قـام إلـى بعيـري فقدمـه فرحلـه، ثـم استأخرعني وقـال: اركبـي، فـإذا ركبـت فاسـتويت علـى بعيـري أتـى فأخـذ بخطامـه فقـادني حتـى ينـزل بـي، فلـم يـزل يصـنع ذلـك بـي حتـى أقـدمني المدينـة. فلمـا نظـر إلـى قريـة بنـي عمـرو بـن عـوف بقبـاء قـال: زوجـك فـي هـذه القريـة - وكـان أبـو سـلمة بهـا نـازلاً - فادخليهـا علـى بركـة الله. ثـم انصـرف راجعًا إلـى مكـة. فكانت تقول: مـا أعلـم أهل بيت فـي الإسلام أصـابهم مـا أصـاب آل أبـي سلمة، ومـا رأيت صـاحبًا قط كـان أكـرم مـن عثمـان بـن أبـي طلحـة. أسلم عثمـان بـن طلحـة بـن أبـي طلحـة العبـدري رضـى الله عنـه هـذا بعـد الحديبيـة، وهـاجر هـو وخالـد بـن الوليـد رضـى الله عنه معًا [1].

لقد رأينـا فـي الحـديث كيـف قـام عثمـان بـن طلحـة بـأمر أم سلمة، وهـى الغريبـة عنـه فـي الـدم والقرابـة، والمخالفـة لـه فـي الـدين والمعتقد، فهـي المسلمة وهوعلي غير الإسلام وقتما قدم لها رضى الله عنه هذه الخدمـة، ومع ذلك فقد أوجب للمرأة حقًا على نفسه، ولم يتركها ترتحل وليس معها مـن خلـق الله مـن أحد، وقـام بأمرهـا حتـى أوصـلها إلـى البلـدة التـي فيهـا زوجها عزيزة مكرمة دون انتظار لأي مقابل.

إن ما قام به عثمان بن طلحة مع أم سلمة من إكرام وقيام عليهـا هو خلـق كريم أثبته لنفسه من قبل إسلامه، وذكرته له أم المؤمنين أم سلمة رضـى الله عنها ما حييت، وحفظه له التاريخ جميلاً يذكر له كلما ذكر تأكيدًا لما جبلت عليه الطبائع البشرية من الفطرة الحسنة التي فطر الله الناس عليها، والتـي مـا جـاء النبـي صـلى الله عليـه وسـلم إلا ليتممهـا ويرسـخها فـي النفوس:{**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**} [2].

(1) حياة الصحابة.

(2) صحيح البخاري.

صورة للمروءة من عصرنا

ويروي فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمه الله - قصة طريفة من العصر الحديث توافق ما قام به هؤلاء الصفوة من إكرام المرأة والقيام بحقها متى كانت وأينما كانت، فيذكر رحمه الله إنه في سنة خمسين في المملكة العربية السعودية، وكان يعمل حينئذ معلمًا فيها، وبينما هو ذاهب لعمله في أحد الأيام بصحبة سائق السيارة إذ توقف السائق فجأة ونزل ليأخذ لوح من خشب قد وضع عليه أقراصًا من عجين كان قد وضع أمام أحد البيوت ويحمله معهما في السيارة، فسأله الشيخ رحمه الله عن أمر لوح العجين، فأجابه السائق: بأن وجود لوح عجين أمام البيت يعني أنه لا رجل في البيت، فتعجن نساء البيت العجين وتضعه أمام البيت ليمر أحد الرجال فيأخذه للمخبز، ثم يعود به خبزًا يضعه لأهل ذاك البيت أمام بيتهم [1].

وعرضي لهذه القصة الشائقة؛ إنما لأبين أن الخير ما زال في مجتمعاتنا إلى وقت قريب بل وسيظل إلى قيام الساعة كما بين النبي صلى الله عليه وسلم :{**الخير فيّ وفي أمتي إلى يوم القيامة**}، وتأكيدًا على أن هناك ملايين القصص المماثلة التي تشهد بذلك الخلق القرآني السامي، وأن هناك من الرجال من يتمثل أخلاق الأنبياء ويسير على خطاهم رغم تتابع الزمان، واختلاف المكان مثبتين أنه ما يزال للمروءة والقوامة على النساء مكان في نفوس بعض الناس ممن زكى الله نفوسهم.

إن نفوسًا تتمثل ذلك الخلق الكريم لهي نفوس أبية تأبى أن ترى نفسها فقط، أو تنشغل بذواتها فحسب، ولكنها تعلو وترتفع عن الاقتصار على نفسها لترى الآخرين وتنشغل بما شغلهم وتهتم بما أهمهم، بل وتنسى أحزانها في أحزانهم، وتجد سعادتها في

---

(1) تفسير الشعراوي.

معونتهم والتخفيف عنهم، وحمل أعبائهم.

وإن الشعور بالآخرين وتقدير ما هم فيه لهو من أهم أخلاق النبوة الدمثة تلك التي ترى في الشعور بالآخرين وتقديم العون لهم واجبًا أخلاقيًا مفروضًا عليها بل تراه من أهم شرائط الإيمان:**{لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه}** [1].

إذا اشتكى مسلم في الهند أرقني ::: وإن بكى مسلم في الصين أبكاني

أما إذا كان ذلك الآخر هو ذلك المخلوق الضعيف المهيض (المرأة) كان تقديره عندهم أعظم، وحفاوتهم به أشد، واهتمامهم به أكبر، وقيامهم عليه أوجب؛ ليتركوا للرجال بتلك المشاهد صورًا وضيئةً واضحةَ القسمات لأخلاق أهمها المروءة والشهامة والقوامة.

* * *

(1) متفق عليه.

قالت إحداهما
يـا أبـت استأجـره

القرآن خُلقًا

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ

قال تعالى:{ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥) قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ (٢٦)} [القصص: ٢٣ - ٢٦].

التفسير: سبق تفسير بعض هذه الآيات في مبحث سابق، وسأقتصر بإذن الله في هذا المبحث على إيراد تفسير الآيتين موضوع هذا المبحث.

لما رجعت المرأتان سريعا بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعًا فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها قال الله تعالى{فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ} أي مشي الحرائر. كما روي عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أنه قال: جاءت مستترة بكم درعها، وروي عنه أنه قال: جاءت تمشي على استحياء قائله بثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء دلاجة ولاجة خراجة.

{قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا} وهذا تأدب في العادة لم تطلبه طلبًا مطلقًا لئلا يوهم ريبة بل{قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا} يعني ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا{فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ} أي ذكر له ما كان من أمره وما جرى له من السبب الذي خرج من أجله من بلده{قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ} يقول: طب نفسًا وقر عينًا فقد خرجت من مملكتهم فلا حكم لهم في بلدنا، ولهذا قال:{نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ} وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من

هو؟ على أقوال أحدها أنه شعيب عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء، والله أعلم.

وقوله تعالى:{ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾} أي قالت إحدى ابنتي هذا الرجل قيل هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت لأبيها:{يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ } أي لرعية هذه الغنم. قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك قتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد لما قالت{إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ} قال لها أبوها وما علمك بذلك؟ قالت له إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي كوني من ورائي، فإذا اختلف عليّ الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه. وقال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله هو ابن مسعود قال: أفرس الناس ثلاثة: أبو بكر حين تفرس في عمر، وصاحب يوسف حين قال: أكرمي مثواه وصاحبة موسى حين قالت:{يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ} [1].

لقد ألمح الشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية الكريمة{يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ} إلى أن المرأة إنما قالت ذلك؛ لأنها وجدت من يكفيها الخروج ويكفها عنه، وأنها لم تستمرئ الخروج للعمل ولم تستحسنه إذا ما وجدت من يقوم به عنها؛ لذا قالت لأبيها ما قالت [2]. وأقول مطابقة لرأي الشيخ الشعراوي - رحمه الله - ومتفقة معه: إن ابنة شعيب عليه السلام لم تستمرئ الكدح ولم ترتح للخروج للعمل، وإنما كانت مترقبة لمن يقوم بالعمل خارج البيت ويحمل تبعته عنها، وما أن وجدت موسى عليه السلام ألقت ذاك الحمل عن كاهلها طالبة من أبيها أن يوكل العمل إليه، إذ لم يعد

(1) تفسير ابن كثير.
(2) تفسير الشعراوي.

لخروجها من البيت للعمل ضرورة إذا كان هناك أجيرًا قويًا أمينًا يستطيع أن يقوم بما تقوم به ويكفيها مؤنته.

كفاني سياسة الفرس

وهذا الموقف من ابنة الرجل الصالح شعيب هو نفسه موقف أسماء بنت أبى بكر الصديق التي كانت تخرج لحقلها البعيد الذي يبعد عن المدينة ثلثي فرسخ لتجمع النوى ثم تحمله فوق رأسها عائدة به إلى البيت لتعلف به فرس زوجها الزبير بن العوام، وما أن أرسل أبوها الرجل الصالح أبو بكر الصديق رضى الله عنه إليها بهدية، وتلك الهدية كانت خادم يقوم عنها بهذا العمل قالت أسماء ممتنة شاكرة لفضل أبيها عليها، معبرة عما قدمه لها من خدمة، واصفة مدى إراحته لها بهذا الخادم: " كفاني سياسة الفرس " أي حمل عني أبي بهذا الخادم ما كنت أقوم به من عمل، وتكمل رضى الله عنها قائلة " فكأنما أعتقني " أي كأن أبا بكر رضى الله عنه أعتقها وفك قيد أسرها حينما أرسل لها من يقوم بما كانت تقوم به، وكفاها به عن الخروج وامتهان تلك المهنة.

لقد كانت أسماء رضى الله عنها ترى الخروج للعمل خارج البيت رقًا واستعبادًا، وأنها به تكون في غير مكانها المناسب والمأمورة به وهو البيت، وترى حين تمتهن عملاً خارج البيت.

إنها في عمل ليس لها، وإنما هو عمل فرضته الضرورة عليها أما وقد كفيت مؤنة ذلك العمل خارج البيت فقد أصبحت حرة من الحرائر اللائي لا يبرحن بيوتهن إلا لضرورة غير ضرورة الكسب والارتزاق التي هي عمل الرجال.

لسنا مثلهن

ولكننا معشر النساء اليوم فقد اختلفت أيديولوجيتنا الفكرية بل قد انتكست إذ أصبحنا نرى أن لزوم إحدانا بيتها وقرارها فيه هو الذي يجعلها كالأمة المسترقة تخدم الكبير والصغير ولا حيلة لها في الرزق، أما

العمل خارج البيت فهو اليوم عند الكثيرات من النساء هو الحرية والانطلاق، وهو الذي يمنحهن الثقة بالنفس والإحساس بأن لهن قيمة، وبأنهن يؤدين دورًا مهمًا في المجتمع، وكلام طويل ثقيل يلوونه بألسنتهن، ويديرونه بأفواههن عن تحقيق الذات والمساواة بالرجال في كل شيء وغيرها من تلك القضايا التافهة اللاتي يتشدقن بهن في كل محفل وفى كل مكان إذا ما وجه إليهن سؤال، لماذا يخرجن للعمل؟

نعم: إن ذلك وراءه تغيير الأيديولوجية الفكرية واختلاف التفكيرعما قبل؛ لذا فليس عجيبًا أن تستمرئ النساء اليوم الخروج وتستحسنه وتحبه بل وتفضله على القرار في البيت.

لقد رأت ابنة الرجل الصالح في موسى عليه السلام أجيرًا يحمل عنها مشقة الكفح والكدح خارج البيت، ويكفيها مؤنته وتبعته، ورأت أسماء بنت أبى بكر في خادم أرسله لها أبوها سائسًا كفاها سياسة فرس زوجها، وكفاها تبعة الخروج من البيت، فغدت بذلك حرة طليقة داخل بيتها حصنها الحصين تتمتع فيه بكل ما من شأنه أن يسعدها، واتسع وقتها لتعمل فيه ما تشاء من عمل، وتديره كما تهوى، وتسعد بحياتها الزوجية كزوجة، وتنعم بأمومتها مع أطفالها كأم، طالما أن هناك من يستطيع أن يحمل عنها عبء الخروج الذي به كانت أشبه بالأمة المسترقة.

لكننا اليوم نصر على أن نعمل عمل الأجراء والأرقاء، نصر على أن نتخلى عن بيوتنا وما فيها ومن فيها من أزواج وأبناء، نصر على أن نخرج صباح مساء للعمل ربما من السابعة صباحًا إلى الثالثة عصرًا، وربما في ورديات في عمل ليلي، كل ذلك ونحن نرى أن ذا العمل لا يشبهنا بالأجراء أو الأرقاء، وإنما يشبهنا بالأحرار الطلقاء المنتظمين في عقد الحضارة، بل يجعلنا والرجال على قدم سواء لا فرق بيننا وبينهم، وذاك كان حلم غال عزيز بعيد المنال قد غدا في أيدينا، فلطالما تمنت

النساء أن يكن كالرجال " ليتنا الرجال نجاهد كما يجاهدون " [1]، ولطالما تمنت النساء أن يتشبهن بالرجال في الارتزاق، وهاهو الحلم قد تحقق.

إذ لم يعد كثير من النساء في مجتمعاتنا العربية المسلمة يطقن القرار في البيوت، ولم تعد إحداهن تتمنى أن تربي أولادها، وتقضي معهم الساعات الطوال وهى تلبي طلب هذا، وتسمع ذاك وتهتم بتلك، وتعلمهم ما يجب أن يتعلمونه من مبادئ وقيم، بقدر ما تتمنى أن تخرج للعمل تاركتهم عند أي جهة وفى أي مكان مستقلة دور الزوجة مستهينة بدور الأم في التربية غير مكترثة به، فالأبناء في نظرها سيكبرون عند المربية، أو عند إحدى الجارات، أوعند الجدة العجوز، أو في دار الحضانة... كما كبر الآلاف غيرهم من أبناء النساء العاملات، وما دام أنهم سيكبرون كما تتمنى الأم، فلماذا إذن تقيد هي نفسها بهم؟ فليكبروا بعيدًا عنها في أي مكان، أو عند أي جهة، وبأي طريقة علموا القيم أم لم يعلموا، غرست فيهم المبادئ أم لم تغرس، لا مشكلة، ولا ضير، أما هي (الأم) فلن تضيع سنوات من عمرها حبيسة البيت مترقبة لذلك النمو البطيء، وذاك التعليم المضني غير المجزيء ماديًا في كثير من الأحيان، بل يكفيها من أبنائها ما أتاح لها الوقت والظرف لتراه دونما احتفاء به، أو باحتفاء تصطنعه أحيانًا لتشعر نفسها بأنها ما تزال أمًا لبعض الوقت.

حلان كلاهما مر

أو ربما قد تلجأ المرأة الأم العاملة خارج البيت لحل هو أفضل من هذا الحل وهو أن تأخذ أطفالها معها للعمل لتكون مطمئنة عليهم، وليكبروا وهم تحت بصرها وملء سمعها، ليصبح تقصيرها بدلاً أن يكون في جانب واحد في الجانبين معًا!

(1) تفسير ابن كثير.

في جانب الأطفال الذين حملتهم معها للعمل، ووضعتهم في بيئة تخالف البيئة التي يجب أن يربوا فيها؛ فحرمتهم الإحساس بالاستقرار والأمن والسكينة في أحضان بيت اعتادوا أن يأويهم ويحتمون فيه من البرد القارس والحر القائظ؛ فكان لذلك أكبر الأثر عليهم نفسيًا وعقليًا ووجدانيًا، وفى جانب العمل الذي أخلت بمطلوبه وهدفه وقانونه حينما انشغلت فيه وعنه بما ليس منه.

وعلى كل حال فإن المرأة لن تقر في بيتها، وعليها أن تختار بين أحد الحلين اللذين كلاهما مر، ولماذا تقر المرأة حبيسة البيت يأكلها الملل والسأم، وتعصف برأسها الأوهام الجارفة، والأفكار المنحرفة، وتضيع سنوات شبابها الغض الغالي في عمل تستطيع أن تقوم به المربيات والخادمات، وتترك عملاً جليلاً عظيمًا ينتظرها خارج البيت؟!

ولماذا تترك عملاً خارج البيت يدرعليها كثيرًا أو قليلاً من المال؛ لتتفرغ لعمل في البيت ليس من شأنه المال في شيء؟!

ولماذا تترك العمل الذي من شأنه المال أو ليست ستعود بذاك المال على أسرتها توسع به عليهم، وتشتري لهم به ما يرغبون فيه؟! بينما مع قرارها في البيت لا مال، ولا كل ما يشتريه المال، فهي تعمل إذن لهم ومن أجلهم، وليس ذلك فحسب إذ هي لا تسعد حاضرهم فقط، وإنما مستقبلهم أيضًا كما تدعي بعضهن أنها براتبها ستساهم في شراء مسكن لأحد الأبناء، أو ستدفع مهرًا لعروس الابن الآخر، أو تقوم بكل ما كلف الأسرة به خاطب الابنة.

بيد أنها تبني مستقبلها هي أيضًا فهي تخطط لحياتها بعد أكثر من عشرين عامًا حينما يكبر أولادها وينشغل كل منهم بحياته الخاصة، ولربما تركها الزوج لأسباب هي لا تعلمها. حينئذ يكن لها كاف من عمل يشغلها ويكفلها، وتستطيع أن تعيش به مع أمراضها ما تبقى لها من أيام.

وإذا ما نظرنا إلى كل ما سبق من طرح خاص بعمل المرأة خارج البيت

نجد جله تظهر سذاجته بداهة، وبدون أدنى استدلال إذ إنه يعد من سقط الكلام فهو كلام أجوف فارغ تردده إحداهن بدون وعي وإدراك لحقيقته، وربما هي سمعت أناس يقولونه فقالته بدون بحث فيه عن حجة، أو عرضه على عقل.

فالأمر لا يكون هكذا في كل الأحوال، غير أننا نسمع ذا الكلام من النساء أو ما يشبهه في كل الأحوال، والحقيقة أنها تفسد دنياها ودنياهم (أعني أسرتها (زوجها وأبناءها)، وربما أخراها وأخراهم.

العقاد وعمل المرأة

لأن جل عمل المرأة خارج البيت في أغلب الأحوال التي نراها اليوم لا يدلك على حجة لها وجاهتها - وإن بدت - معضدين رأينا هذا برأي شيخ الأدباء عباس محمود العقاد - رحمه الله - في كتابه (المرأة في القرآن) معبرًا عن رأيه في هذا الموضوع إذ يقول:

" بيد أننا نستطيع بغير تردد أن نفهم أن المجتمع الأمثل ليس هو المجتمع الذي تضطر فيه المرأة إلى الكدح لقوتها وقوت أطفالها، وليس هو المجتمع الذي تعطل فيه أمومتها، وتنقطع لذاتها، وتنصرف إلى مطالبها وأهوائها..

وليس هو المجتمع الذي ينشأ فيه النسل بغير أمومة، وبغير أبوة، وبغير أسرة، كأنه محصول من محاصيل الزراعة التي تتولاها الدولة عن الجماعة البشرية..

وإذا اتخذنا حالة المرأة النافعة لنفسها ولنوعها مقياسًا للمجتمع الأمثل، فخير ما يكون عليه هذا المجتمع - إذن - أن تكون المرأة فيه مكفولة المؤنة في أمومتها، وأن تكون لها كفاية الأم التي تؤهلها لتزويد الأمة بجيلها المقبل، على أصلح ما يرجى من سلامة البدن وسلامة الفكر والطوية..

وفى مثل هذا المجتمع تجري العلاقة بين الجنسين على سنة توزيع العمل وتقسيم الحقوق بالقسطاس؛ كل جنس يتكفل بما هو أوفق لـه وأقدر عليـه ويملك من الحقوق ما يحتاج إليه، ويتخلى عن العمل الذي لا يناسبه ولا يلجأ إليه إلا على اضطرار..

ومركز المرأة حيث أقامها القرآن الكريم، كفيل لها بكل ما يعوزها لتحقيق رسالتها الفطرية في هذا المجتمع المثالي على الوجه الأمثل.

ويحدث في المجتمعات الحاضرة أن تحول العوارض الكثيرة دون انتظام المجتمع على هذه السنة القويمة من توزيع الأعمال وتقسيم الحقوق، لاختلال أوضاعه السياسية والاقتصادية والنفسية، فيما يعم الرجال من جميع الطبقات ولا يخص المرأة وحدها بين حياة الأسرة والحياة العامة، فتضطر المرأة إلى الكدح لقوتها وقوت صغارها، وتعجز عن تكاليف الأمومة، وتدبير البيت، والمشاركة بحصتها من الحياة الزوجية.

وهذه حالة خلل تتضافر الجهود لإصلاحها وتبديلها، ولا يصح أن تتضافر لإبقائها واستدامتها وإقامة الشرائع والقوانين لتثبيتها، وعلى هذا النحو تضافرت الجهود من قبل على إصلاح الخلل الذي يدفع بالأطفال إلى العمل لمعاونة الآباء والأمهات في تحصيل أقواتهم وضروررات معيشتهم، فعولج هذا الخلل بتحريم تشغيلهم، وعولج الخلل من قبيله بالحظر العاجل تارة وبالحظر المتراخي مع الزمن تارة أخرى، ولم تكن علة من علل هذا الخلل وأشباهه حجة على صلاحه وإقامته مقام الحق الذي يصان ولا يتبدل..

وقد تمضي السنون، بل تمضي القرون، قبل أن يستقر المجتمع الإنساني على الوجه الأمثل في حقوق المرأة خاصة، وفي حقوق أبنائه وبناته من الرجال والنساء على التعميم، وقد تلجأ المرأة غدًا كما تلجأ اليوم إلى كسب الرزق ودفع الحاجة، والاعتصام بالعمل من الضنك والتبذل، فإذا سيقت المرأة إلى هذا المآزق فليس في أحكام الإسلام حائل بينها وبين

عمل شريف تزاوله المرأة [1].

لمحمد فريد وجدي قول يعتد به

و للمفكر الإسلامي الكبير محمد فريد وجدي - رحمه الله - كلام جد جميل ماتع نافع إذ إنه قول جامع مانع في تلك القضية يقول فيه: أما مشاركتها - المرأة - للرجل في أعماله الخارجية، فإن الفطرة المجردة والعلوم العصرية نفسها تنافيها، وترى فيها خطرًا عظيمًا على المجتمع.

فأما الفطرة فإنها تأبى أن ترى المرأة، التي اختصها الخالق بمهمة تكثير النوع الإنساني وتربيته، تتكلف فوق ما تعانيه من المشاق، مشاطرة الرجال أعمالهم المرهقة، وأن تهجر دارها ساعات طويلة، وأن تترك أولادها يهيمون على وجوههم في الشوارع والأزقة وهم في أشد الحاجة إلى حمايتها ورعايتها هذا أمر يأباه مجرد الفطرة، لذلك ألهم الناس من قدم عهودهم أن يضنوا بنسائهم عن الأعمال الخارجية، وأن يقصروهن على الحياة الداخلية، اللهم إلا همجًا متوحشين يعيشون بجوار الغابات الأفريقية والاسترالية وهؤلاء لا يقام لهم وزن ولا يعبأ بهم في استدلال.

وأما العلم فقد قال كلمته الأخيرة، ولا يزال أقطابه يرددونها في كل مناسبة، وإنا نؤتي القارئ خلاصة من ذلك مستخرجة من كتاب النظام السياسي على مقتضى الفلسفة الوضعية للفيلسوف الكبير أجوست كومت الفرنسي واضع تلك الفلسفة ومؤسس علم العمران، قال: " ينبغي أن تكون حياة المرأة بيتية، وأن لا تكلف بأعمال الرجال، لأن ذلك يقطعهاعن وظيفتها الطبيعية، ويفسد مواهبها الفطرية. وعليه فيجب على الرجال أن ينفقوا على النساء دون أن ينتظروا منهن عملاً ماديًا، كما ينفقون على الكتاب والشعراء والفلاسفة، فإذا كان هؤلاء يحتاجون لساعات كثيرة من الفراغ لإنتاج ثمرات قرائحهم، كذلك تحتاج النساء

(1) المرأة في القرآن.

لمثل تلك الأوقات ليتفرغن فيها لأداء وظيفتهن الاجتماعية: من حمل ووضع وتربية. ومن جهة أخري لو سمح للنساء، على ضعفهن، أن يشتغلن خارج بيوتهن، تعرضن لمنافسة قوية من جانب الرجال فلا ينلن بجانبهم إلا الحثالة التي لا يعفون عنها، فيقعن في الفاقة ولا يجدن القوت إلا تبلغًا. بله الضرر الفادح الذي يحيق بمجتمعاتهن من جراء خروجهن على نظام الطبيعة، وعصيانهن لنواميس الحياة الصحيحة ".

هذا رأي العلم الحق، أما ما يكتب ضده وينقله عنهم المفتونون بالمظاهر منا، فهو رأي جمهرة من قصصيين وكتاب إباحيين يسوغون للمرأة أن تخرج على مقتضى الفطرة، ويخدعون السطحيين من القراء عن الحقائق العلمية، وغرضهم من ذلك ترويج كتاباتهم بدعوى تجديد الحياة الاجتماعية، والخروج مما رث وبلي من التقاليد الوراثية.

ويكمل الأستاذ فريد وجدي - رحمه الله - رادًا على مزاعم المعارضين مفندًا لها قائلاً: فأما ما يشنعون عليه من سجن المرأة وإذلالها، وسلبها استقلالها، فتلك صيحات يقصد بها التهويل، وطمس معالم الحقائق، وإلا فكيف يتخيل الناس أن قصر المرأة على مملكتها البيتية سجن وإذلال لها؟ وهل يطالبها المصلحون المعاصرون بغير ذلك؟ وإذا كان يفهم أن اشتغال الإنسان بما خلق له سجن له، فكلنا إذًا مسجونون، من أول المؤلف في مكتبه إلى المعدن في منجمه. وإذا كان هذا يستقيم في الفهم فلتعتبر المرأة مسجونة كجميع أبناء نوعها، إذ لا وجه لاستثنائها منهم.

أما استقلال المرأة فلا يعني في علم الاجتماع شيئًا غير الشذوذ عن الربط الاجتماعية، فإن المرأة خلقت لتكون زوجة، والزوجية تفرض على كلا الزوجين التزامات متبادلة، فلا معنى للاستقلال هنا مع وجود هذا الترابط الوثيق بين الاثنين.

ولكن لما كان القصصيون الذين لا شغل لهم إلا في الكلام عن الحب والمحاولات الغرامية والخيانات الزوجية، فهم يلوحون بهذا الاستقلال

للمرأة ليسوغوا لها الخروج على الالتزامات الزوجية، بل وعلى نظم الطبيعة نفسها. وإذا كان مملي النظم الاجتماعية هم الأدباء والقصصيون، فعلى الاجتماع البشري العفاء وسوء المنقلب.

ويقولون: أتريدون أن تجردوا المرأة من كل عمل تكسب به قوتها؟ ونقول نحن: لا، فإننا نريد أن تكسب المرأة قوتها من طريق الزوجية، لأن الله خلق النساء على عدد الرجال مع تفاوت لا يعتد به هنا تارة وهناك تارة أخرى. ولكنكم أنتم بتسويلاتكم لها الخروج والتبرج والاختلاط بالرجال، قد عملتم من طريق غير مباشر على إشاعة العزوبة وشيوع العزوبة يفضي إلى وجود جيوش من النسوة لا يجدن القوت، فيضطررن للعمل مع الرجال، والعمل مع الرجال يزيدهم إغراقًا في العزوبة للأسباب التي لا تخفى على أحد.

فأنتم الذين قضيتم على المرأة بأن تذل في العمل الخارجي. نعم هو إذلال لها أي إذلال، فإنها لم تخلق لتمتهن كبائعة أوكاتبة أوسائقة أتوموبيل أو سمسارة أو حوذية إلخ إلخ، ولكنها خلقت لتكون ربة بيت، وأن هذا البيت لو كان كوخًا حقيرًا فهو أكرم لها، وأحفظ لمميزاتها من أن تكون بائعة أو كاتبة أو سكرتيرة [1].

انتهى كلام المفكرين العظيمين - رحمهما الله - وقد أوردته كاملاً؛ لأنه يشرح قضيتنا شرحًا وافيًا مستفيضًا.

السيد سابق وعمل المرأة

نختم تلك القبسات المباركات من آراء العلماء والمفكرين والمشايخ برأي فضيلة الشيخ السيد سابق عن رأيه في عمل المرأة من كتابه (فقه السنة) تحت عنوان (منع الزوجة من العمل) يقول: فرق العلماء بين عمل الزوجة الذي يؤدي إلى تنقيص حق الزوج، أو ضرره، أو خروجها من

(1) من معالم الإسلام.

بيته، وبين العمل الذي لا ضرر فيه - فمنعوا الأول، وأجازوا الثاني. قال ابن عابدين، من فقهاء الأحناف: " والذي ينبغي تحريره أن يكون منعها من كل عمل يؤدي إلى تنقيص حقه، أو ضرره، أو إلى خروجها من بيته أما العمل الذي لا ضرر فيه فلا وجه لمنعها منه، كذلك ليس له منعها من الخروج إذا كانت تحترف عملاً هو من فروض الكفاية الخاصة بالمرأة مثل عمل القابلة ".

وأتساءل أين هو ذاك العمل - لا أقصد الأعمال التي هي من فروض الكفاية - الذي تستطيع معه المرأة اليوم ألا تنقص الزوج والأولاد حقهم؟ إذ متى تكون المرأة زوجة وأمًا عاملة خارج البيت لساعات طوال بشكل يومي دائم وهي في ذات الوقت غير منقصة من دورها تجاه زوجها وأولادها، وقد أغلقت مؤسسة أمر الله أن تفتح ويذكر فيها اسمه، أغلقتها لساعات طوال من الليل أو النهار طاردة كل من فيها أو متغافلة عنهم؟ فكيف يتسنى لها ألا تقصر أو تنقصهم حقًا؟ إن الحوادث المؤلمة التي نسمعها ونراها ونقرأ عنها تكشف كل يوم عن أثر مؤلم جديد عن ترك الزوجات والأمهات لبيوتهن وأولادهن، وتنفي عنهن زعم أنهن قادرات على أن يدرن دفتين في ذات الوقت، وتثبت لهن العجز والإخفاق، وما على المكذب قولي إلا مطالعة أنباء الحوادث بسمع واع ونظر ثاقب.

لا أرفض... ولا أؤيد

وأقول قولي هذا وأنا لست رافضة عمل المرأة على إطلاقه إذ كيف أرفضه وأنا إحدى النساء العاملات، وأرى بالبصر والبصيرة حاجة الخارج للمرأة المتميزة كحاجة الداخل إليها، وغير مؤيدته على إطلاقه كذلك، ولا يعد هذا مسكًا للعصا من المنتصف، ولكن قصدت ألا ترى المرأة أن لها حقًا في العمل خارج البيت كالرجل تمامًا بتمام، وإنما يظل عملها في الإسلام ضرورة كلما سيقت إليها كابنتي الرجل الصالح شعيب عليه السلام، وكابنة أبي بكر الصديق رضى الله عنه، أو ضرورة فرض

كفاية لمجتمعها عليها أن تقوم بها في أضيق حدود بما لا يؤثر على مؤسستها الخاصة أقصد أسرتها.

أما أن تدعي إحداهن حقها في العمل خارج البيت كالرجل سواء بسواء بدعوى المساواة فهذا مالا يكون حتى وإن أكثرت إحداهن من الحديث عن أنها قد استطاعت أن تنظم وقتها، ووفقت بين عملها في البيت وعملها خارجه بما لا يجحف أحدًا من الأسرة حقًا، فإن كانت المرأة العاملة خارج بيتها استطاعت حقًا أن تفعل فلتجب عن الأسئلة التالية: -

هل استطاعت أن توفق حينما أيقظت أطفالها الصغار في حوالي السادسة صباحًا ليتناولوا طعامًا على غير رغبة منهم؛ لأنهم عما قليل سيركلون خارج البيت مطرودين إلى بيت الجدة، أو إلى بيت الجيران، أو إلى دار الحضانة، أو إلى العمل مع أبيهم أو أمهم ليكونوا عبءً على العمل ويكون العمل عبئًا عليهم؟!

هل استطاعت أن توفق حينما تركتهم مع امرأة غيرها (المربية أوالخادمة)، ولم تترك لهم قلب أم حان، ويدين رحيمتين وعينين رقيبتين محبتين؟!

هل استطاعت أن توفق حينما انتزعت نفسها منهم انتزاعًا وهى تودعهم غيرها، وهم يبكون ويصطرخون كل يوم منددين بذلك الوضع مطالبين بحقهم في أمهم ومطالبة هي بحقها في الخروج للعمل؟!

هل استطاعت أن توفق إن كانت ما تزال أمًا لأطفال في الرضاع أن تمنع لبنهم من أن ينضح في ملابسها حينما منعته منهم وهى غائبة عنهم؟!

هل استطاعت أن توفق وتوقف لاعج أشواق أطفالها وحنينهم إليها حينما أطالت البعد عنهم في ساعات العمل الطوال المتواصلة المستمرة، وتمسح دموعهم، وتوقف صراخهم وتشفي حزن صدورهم الصغيرة من طول بعدها عنهم وتكراره؟!

هل استطاعت أن توفق حينما تركت أولادها صغارًا لعطلة أحدهم أو مرضه فتركته في البيت ومعه النار والكهرباء و...؟!

هل استطاعت أن توفق حينما تركتهم مراهقين في البيت بمفردهم، وقد غلقت عليهم الأبواب ومعهم قنوات فضائية إباحية، ومواقع مدمرة على شبكة المعلومات العنكبوتية؟!

هل استطاعت أن توفق في حساب ما حملوا وحملوها وأباهم من وزر في تلك الساعات الطوال وهم لا يجدون جليسًا أو مؤنسًا في البيت سوى تلك القنوات وهاتيك المواقع التي لم يجدوا مانعًا لهم منها، أو زاجرًا لهم عنها؟!

هل استطاعت أن توفق حينما عادت إلى البيت وهي متعبة مرهقة رافضة أن يكلفها أحد الأبناء بأدنى عمل؟!

هل استطاعت أن توفق حينما عادت إلى البيت حاملة للزوج والأبناء أعباء العمل وهمومه ومشكلاته بدلاً من أن تكون هي محط رحال مشكلاتهم وهمومهم وأعبائهم، فتسكن إليها هذا، وتحنو على هذا، وتحتوي تلك؟!

هل استطاعت أن توفق في العثور على وقت تمنحه لأسرتها المفككة بدلاً من الجري للعمل خارج البيت طلبًا للرزق الذي هوعمل للرجال، وبين ما هو عمل تستطيع أن تقوم به الخادمة داخل البيت، وبين هذا وذاك ضاعت أمومتها وفقدت أنوثتها؟!

هل استطاعت أن توفق حينما أعدت لهم مسبقًا طعام أسبوع أو أكثر وحنطته لهم في الثلاجة حتى اعتادوا على طعام بلا طعم ولا فائدة؟!

هل استطاعت أن توفق حينما جعلت الأبناء كنزلاء الفندق الواحد لا تجمعهم المائدة الواحدة، ولا الجلسة الواحدة وإنما كل منهم لا شغل له إلا نفسه؟!

هل استطاعت أن توفق حينما نظرت إلى أبنائها على أنهم فقط أفواه تملأ، وبطون تحشى بأصناف الطعام، وأجساد تزين بألوان الثياب، دون النظر إلى أن لهم عقولاً تموج بالأفكار المختلفة التي تحتاج لتمييز الخبيث من الطيب، ونفوسًا تجتاحها رياح عاتية من الوجدانات والعواطف المتضاربة التي تحتاج لمن يتصدى لها بالتشذيب والتهذيب؟!

ألا تنظر الأم إلى تلك الوجوه التي تنتظر منها النظرة، والابتسامة، والقبلة، والكلمة الطيبة الناصحة المشجعة والتوجيه الحازم؟!

ألا تنظر الأم إلى تلك الأجسام التي وإن كبرت تحتاج منها إلى اللمسة الحانية، والحضن الدافئ؟!

إن امرأة تخرج للعمل بدافع من اكتساب المكانة الاجتماعية لهي امرأة خاطئة، ضالة إذ أي مكانة للمرأة هي أسمى من مكانة بوأها الله إياها؟!

وإن امرأة تختار على بيتها مكانًا آخر تلتمس فيه تحقيق الذات والثقة بالنفس لهى امرأة مضطربة الذات مدسوسة النفس، إذ أي مكان أفضل من مكان اختاره الله لها وأمرها به﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

إن أمًا تترك أبناءها لاهثة وراء دراهم وقروش لهي امرأة قد أضلت الطريق حينما تركت كنزًا ثمينًا باقيًا لأجل سقط متاع زائل، قد أضاعت سنوات دافئة ملؤها الحب والاستقرار داخل جدران حصن حصين لتكتوي خارجه بوهج الشمس وبرد الزمهرير.

إن أما تخرج للعمل بدافع ضمان مستقبلها ومستقبل أولادها لهي امرأة قد نفت التوكل على الله سبحانه حينما وثقت بما في يدها ولم تثق بما في يد الله جل وعلا، وإن رجالاً يزجون بنسائهم في أعمال خارج البيوت مع عدم ضرورة العمل لنسائهم، وعدم ضرورة نسائهم للعمل لهم أشخاص قد انعدمت فيهم القوامة ونفيت من دمائهم المروءة والشهامة، وخلت قلوبهم من الرحمة عندما استعانوا بأضعف خلق الله إنسانًا وهو (المرأة)، وأخرجوها من قرارها ومستقرها، وأبعدوها عن عملها الذي خلقها الله

له، ليبوئوها عملاً ليس عملها ولم تخلق له، هم أشخاص كما وصفهم الشيخ الشعراوي رحمه الله لديهم خور في الرجولة، فهل المرأة التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم وجنسها بالقوارير تستطيع أن تكفل أسرة؟ أو يستعان بها فيما لم يخلقها الله له وهو الارتزاق؟

لابد من تغيير النظرة الخاطئة وتصحيح الأيديولوجية الفكرية المنعكسة السائدة لدى قطاع كبير من النساء والرجال اليوم، ومن قبلها تغيير تلك القوانين الاقتصادية التي ظلمت المرأة حينما تجاهلتها وأجحفت حقها إذ لم تبق لها من حق مالي يمنحها الشعور بالأمان على كل أحوالها، ويطمئنها على نفسها وأولادها مما ألجأها إلى الاعتصام بالعمل مخافة العوز والحاجة، ولتغير مع تلك القوانين أعراف اجتماعية خاطئة، وعادات موروثة سيئة منعت المرأة من حقها في مهر كان يضمن لها الحياة الكريمة بالزوج وبدونه، ومن ميراث فرضه الله لها ليحقق لها الضمان والأمان على كل أحوالها، فلابد أن تتغير تلك القوانين الظالمة المجحفة والأعراف الرثة البالية، وإن لم يحدث فلن يتغير حال المرأة.

ولكي تكتمل الصورة لابد أن نذكر أنه للحق هناك من النساء من يقولن لولي الأمر أيا كان عندما يجدن من يقوم بالعمل عنهن{ٱسْتَـْٔجِرْهُ} ولا يخرجهن للعمل إلا فقدان الضمان الاجتماعي.

وأخيرًا ليبق عمل المرأة خارج البيت لدينا كما رأته ابنة الرجل الصالح وابنة أبي بكر الصديق رضي الله عنهم لاعلى أنه حق أو حرية أو حضارة، وإنما على أنه ضرورة إجبارية لظروف اضطرارية سواء للمرأة أو لمجتمعها عليها أن تقوم به، مسقطينه عن كاهلها مع أول فرصة لوجود من يمكنه أن يقوم به من الرجال عنها، ولتتوقف أسراب من النساء عن الخروج للعمل ممن لا يحتاجهن العمل ولا يحتجنه، ليتركنه لمن هو أجدر بالقيام به.

ونختم هذا المبحث بآية عظيمة في معناها عظيمة في موقعها إذ للعطف فيها سر عظيم لأولي الألباب قال تعالى:{وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)} [النساء: ٣٢].

* * *

قال لأهله امكثوا

القرآن خُلقًا

قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا

قال تعالى:

{فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾} [القصص: ٢٩].

التفسير:

إن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما، وقد يستفاد هذا أيضًا من الآية الكريمة حيث قال تعالى:{فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ} أي: الأكمل منهما والله أعلم، وقوله:{وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ} قالوا: كان موسى عليه السلام قد اشتاق إلى بلاده وأهله فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره، فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة فنزل منزلاً فجعل كلما أروى زنده لا يضيء شيئًا فتعجب من ذلك، فبينما هو كذلك{ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا} أي: رأى نارًا تضيء له على بعد{قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا} أي: حتى أذهب إليها{لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ} وذلك لأنه قد أضل الطريق{أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ}: أي قطعة منها{لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ} أي: تستدفئون بها من البرد [1].

كان هذا أمرًا من موسى عليه السلام لأهله أن يمكثوا منتظرين أوبته ريثما يرى خبر تلك النار التي أبصرها على بعد لعله يأتيهم منها بخبر، أو بجذوة يصطلون ويستدفئون بحرها ويدفعون بها ما يجدونه من برد تلك الليلة وزمهريرها، أو يأنسون بالنار ويهتدون بنورها في ظلمات ذلك الليل الأليل، ولكن السؤال لماذا لم يرسل موسى عليه السلام أهله أقصد

---

(1) تفسير ابن كثير.

(امرأته) لترى هي خبر تلك النار أو تنفعه ونفسها بجذوة منها مستعينًا بما لديها من قدرة على التخفي والمكر وما شابه ذلك من إمكانيات لدى النساء يمكن أن تنتفع بها إذا ما اضطرتها الظروف لذلك؟!

لماذا لم يفعل موسى عليه السلام ذلك؟ أليس غريبًا ألا يفعل؟! أو تراه غريبًا إن هو فعل؟! ولماذا يعد ذلك السؤال سؤالاً مستقبحًا غريبًا، ويبدو هذا الطرح طرحًا مستهجنًا مرفوضًا؟!

أو ليس ذلك ما يحدث مع كثير من الرجال في عصرنا ممن انتكست فطرتهم وضلت عقولهم وعميت قلوبهم ممن يمكثون في البيوت ويرسلون زوجاتهم وبناتهم للعمل في ورديات ليلية في المستشفيات ومؤسسات العمل المختلفة رغبة منهم في ما ترتزقه إحداهن من أجر؟! ألا يدفع الرجال بالنساء من الأهل للعمل كموظفات قاذفين بهن في وسائل المواصلات العامة المزدحمة، وفى الوظائف المختلفة التي تليق بهن، والتي لا تليق مما يعرضهن فيها للتحشر والتحرش والاختلاط بالرجال بدعوى ما يمتلكنه نساؤهم من قدرات وإمكانيات وشهادات ومؤهلات متذرعين بمسيس حاجة العمل خارج البيت إليهن، وبعظيم دورهن خارج بيوتهن وبما يقدمنه للأمة من خدمات، بينما يقوم رجالهن برعاية الأولاد وحفظ البيت ريثما يعدن هن من العمل مرددين أن الحياة شركة التعاون أهم أسسها، بل والأسوأ من ذلك ألا يرسل الرجال بالنساء من الأهل إلى دول وبلاد أخرى بدون محرم لتمكث إحداهن خارج الوطن لا يوم أو بعض يوم، ولا ليلة أو بعض ليلة، ولا مسيرة يوم وليلة بل لتقضي السنوات الطوال في السفر بدون محرم، أما حجة وليها من أب أو أخ أو زوج فهي الحجج السابقة نفسها مضافًا إليها حججًا أخرى يراها وجيهة من وجهة نظره الضيقة الخاطئة منها: أن السفر فرصة لا يمكن تأخيرها للحصول على محرم، ولا يمكن بالطبع التضحية بها في حالة عدم وجوده، وأن السفر أصبح آمنًا، وأن من الفقهاء من يجيز سفر المرأة

بدون محرم في زماننا الذي لم يعد للمحرم فيه ضرورة - من وجهه نظرهم - حتى وإن اشترطه النبي صلى الله عليه وسلم شرطًا وحيدًا لإيمان المرأة المسافرة فقد قال صلى الله عليه وسلم :**{لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم عليها}** [1].

رادين هذا الحديث الشريف الذي أورده الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما بأقوال الفقهاء بجواز سفر المرأة المسلمة بدون محرم إذا ما وجدت الصحبة الآمنة مستشهدين في ذلك بحديث أورده البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: عن عدي بن حاتم قال: بينما أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم أتاه رجل فشكى الفاقة وأتاه آخر فشكى إليه قطع السبيل فقال:**{يا عدي بن حاتم إن طالت بك الحياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله...}** [2].

والنبي صلى الله عليه وسلم في الحديث لم يستحسن أن ترتحل الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالكعبة وحدها بدون محرم، ولم يأمر بذلك، وإنما أمر بنقيضه فيما رواه الشيخان عن ابن

عباس رضى الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول:**{لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم}** فقال له رجل: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا؟ قال:**{انطلق فحج مع امرأتك}** [3].

وأما حديث البخاري عن عدي بن حاتم إنما يصنف من النبوءات التي تنبأ بها النبي صلى الله عليه وسلم مما سيكون عليه الحال في المستقبل دونما ذم أو إطراء لهذا الفعل وذاك الحال، وعلى كل حال فإن الصحبة الآمنة التي يجيز بها العلماء سفر المرأة بدون محرم سواء أوجدت أم لم

(1) متفق عليه.
(2) أخرجه البخارى.
(3) متفق عليه.

توجد فهي موجودة عند هؤلاء الذين اعتبروا نساءهم وبناتهم رجالاً يعتمد عليهن، حينما مكثوا هم في البيوت، وأرسلوهن لابتغاء الرزق.

بل والأسوأ الأسوأ أن دولاً مسلمة وحكومات تقبل أن ترسل بناتها ونساءها للعمل في الخارج بدون محرم؛ بدعوى أن ذلك سينعش الاقتصاد، ويزيد الدخل القومي بجلب المزيد من النقد الدولي، وبالمثل فإن هناك دولاً مسلمة وحكومات تقبل سفر النساء والبنات المسلمات إليها للعمل بدون محرم؛ بدعوى أن حاجة العمل فيها فوق مراعاة لأي اعتبار.

لكن موسى عليه السلام لم يكن كهؤلاء جميعًا فلم يكن ليرسل امرأته لتلك النار لعلها تنفعه منها أو تأتيه منها بخبر بينما يمكث هو بجانب أولاده وأغنامه؛ ذلك لأن موسى عليه السلام سيظل تجسيدًا لمبدأ القوامة، قوامة الرجل على المرأة التي تعني قيامه بها، واهتمامه بها ورعايته لها وعنايته بكل ما من شأنه أن يصلح أمرها، بغض النظر عما تمتلكه المرأة من إمكانيات وقدرات وشهادات ومؤهلات، قيامًا يحفظ لها كرامتها.

وكيف لا وموسى عليه السلام قد قام بأمر المرأة قبل أن يعرفها يوم أن سقى لها ولأختها أغنامهما من ماء مدين تطبيقًا لمبدأ قوامة الرجل على المرأة أي كانت؟ فكيف به وقد تزوجها وأصبحت هي على وجه الخصوص دون سائر النساء مناطًا معلقًا به ومسؤولاً منه مسؤولية كاملة؟!

آدم قيم على زوجه

والى المعنى نفسه يشير الله سبحانه وتعالى في سورة طه قال تعالى: {وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾} [طه: ١١٥ - ١١٧].

وفي تفسير الآية الأخيرة ورد عن فضيلة الشيخ الشعراوي - رحمه الله -: أن الله يحذر آدم عليه السلام من إبليس عليه لعنة الله، ويخبره أنه عدو له

ولزوجه حواء ويقول له محذرًا: فلا تطعه يا آدم وتعصاني؛ فيكون ذلك سببًا في خروجك من الجنة أنت وزوجك، ثم يخص الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام بالخطاب، ويبين له عاقبة ذلك الخروج عليه حين يقول له:{فَتَشْقَىٰٓ} أي أن عاقبة خروجك من الجنة ستكون وبالاً عليك أنت فقط يا آدم دون زوجك؛ لأنك أنت الذي ستعنى وتتعب وتشقى في طلب رزقك ورزق زوجك التي ستقر في بيتها مستريحة هانئة بينما تتحمل أنت هموم العيش والسعي والكدح، وفي إفراد آدم بالخطاب في قوله فتشقى دليل على أن كفح الحياة للرجل أما المرأة فهي السكن المريح المنشط لصاحب الحركة [1]، وهذا القول وافقه فيه كثير من العلماء والمفسرين، فقد ورد نفس القول في تفسير تلك الآية في تفسير القرطبي، والجلالين، وموجز البيان وغيرها من كتب التفاسير وتلك إشارة من الله سبحانه وتعالى تؤكد وتوضح معنى قول{ٱمۡكُثُوٓاْ} على لسان موسى عليه السلام.

قوامة النبي محمد صلى الله عليه وسلم

أما الحال مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأهله فقد كان أوضح من إشارة{ٱمۡكُثُوٓاْ} لأهل موسى عليه السلام، إذ كان أمرًا صريحًا من الله سبحانه لهن بالقرار الدائم في بيوتهن ولزومها وعدم البروز من حصونهن الحصينة حجراتهن الطاهرة العفيفة إلا لضرورة؛ درءًا بذلك لأي شبهة، وحفظًا لهن من كل سوء، وإبعادًا لهن عن كل ريب {وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾} [الأحزاب: ٣٣]، ويقوم النبي صلى الله عليه وسلم عليهن كلهن على قدر ما قدره الله له من طاقة ووسع، والشواهد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة تؤيد ذلك وتشهد به، فلم نقرأ فيهما أنه صلى الله عليه وسلم قد أرسل إحداهن خارج

(1) تفسير الشعراوى.

بيتها لأي سبب أو لأي عذر كان، وإنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم بأمرهن حافظًا لهن مراعيًا لجميع شؤونهن.

هذا وإن احتج المحتجون بتجارة خديجة رضى الله عنها ، أوعمل زينب بنت جحش بالجلود، أو سفر عائشة إلى صفين رضي الله عنهن أجمعين، نقول للرد على هذا الرأي: أما خديجة رضى الله عنها فقد كان لها مال تدفعه للرجال للتجارة لها به أي تضارب بمالها، أما هي فلم تكن تخرج لتبيع أو تشترى، ولم يؤثر عنها أوعليها أنها سافرت في رحلتي قريش في الشتاء والصيف إلى الشام أو اليمن ولا لمرة واحدة، وهذه المضاربة بالمال حق شرعي جائز لكل من هذا بالإضافة إلى أن آية{يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ} [الأحزاب: ٣٢] في سورة الأحزاب وهي الآية التي ألزمت نساء النبي بالقرار في بيوتهن قد نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها .

أما عمل زينب بنت جحش رضى الله عنها بالجلود فقد كان عملاً منزليًا لا يضطرها للخروج من بيتها لمزاولته، وهذا العمل جائز شرعًا فالإسلام لا يقف أمام المواهب والمهارات الخاصة إذا ما استغلت في مكانها الصحيح، بل إنه يندب إليها ويحث عليها ويرغب فيها:**{هذه يد يحبها الله ورسوله}**.

أما عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنه فقد خرجت إبان الفتنة التي اشتعلت نارها بين المسلمين أيام الجمل، و ظلت رضى الله عنها نادمة على ذلك الخروج ما حييت.

هكذا كن نساء النبي صلى الله عليه وسلم قريرات بيوتهن كلهن بأمر الله سبحانه، وظل النبي صلى الله عليه وسلم قائمًا عليهن كلهن بما يصلح جميع أمورهن؛ فكان أسوةً حسنةً لمن كان يرجو الله واليوم الآخر من الرجال في القوامة على النساء وصيانتهن، والمحافظة عليهن، وظلت كذلك نساء النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً يحتذى في لزوم البيوت

والقرار فيها والمحافظة عليها لمن كانت ترجو الله واليوم الآخر من النساء.

إسماعيل عليه السلام والقوامة

ذلك وأن هذا الأمر لم يكن مقصورًاعلي آدم عليه السلام وأهله، أو على موسى عليه السلام و أهله، ولا محمد عليه الصلاة والسلام وأهله، وإنما كان حال جميع المرسلين عليهم السلام - عدا أيوب عليه السلام فإن ظروف ابتلائه اضطرته لمخالفة ذلك - ومن سار على نهجهم من أسوياء الناس وأفاضلهم، فها هو النبي صلى الله عليه وسلم يلمح في حديث شائق إلى حياة واحد من أنبياء الله عليه السلام إنه أبوه إسماعيل عليه السلام فيقول النبي صلى الله عليه وسلم عن إسماعيل عليه السلام وعن أمه هاجر:{**فألفى ذلك أم إسماعيل، وهي تحب الأنس – فنزلوا، فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل. فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا** – وفي رواية: **يصيد لنا – ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق و شدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن اقرأ عليك السلام ويقول: غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها، وتزوج منهم أخرى. فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت على الله عز وجل، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم.**

قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء}. قال النبي صلى الله عليه وسلم :{ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه – قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه}.

قال:{فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة – وأثنت عليه –، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة أمرني أن أمسكك...} [1].

والحديث على طوله، وما به من فوائد عديدة عظيمة، وقصة شائقة عن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل عليه السلام وزوجتيه، إلا أن شاهدنا الوحيد فيه هو لزوم زوجتا إسماعيل عليه السلام لبيتهما وقرارهما فيه، وخروجه عليه السلام لابتغاء الرزق.

وانطلاقًا من حال بيت الصديق إسماعيل عليه السلام أتساءل: هل في أيامنا هذه إذا ما جاء أحد إلى بيوتنا يسأل عن أزواجنا، أوعن أمر من الأمور هل سيجد من تجيبه؟ أم سيجد بيوتنا خاوية على عروشها منهن؟

علي كرم الله وجهه والقوامة

ونذكر ونحن ما نزال في هذا المقام نناقش كيف كانت القوامة، وكيف كان يؤدي الرجل دوره نذهب لبيت أحد الصالحين، إنه من كان من النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، إنه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم وزوج ابنته البتول فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وأبو سيدا شباب أهل الجنة، وريحانتي الرسول صلى الله عليه وسلم من الدنيا (الحسن و الحسين) رضى الله عنه، إنه أول من أسلم من الصبيان، إنه

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم.

الخليفة الراشد الرابع عليٌّ بن أبي طالب أحد العشرة المبشرين بالجنة في بيته مع ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفلذة كبده كيف كان يفعل يصحو عليٌّ في الصباح الباكر، فيبحث هو وفاطمة عن شيء من طعام فلا يجدانه، فيرتدي فروًا على جسمه من شدة البرد ويخرج، ويتلمس ويذهب في أطراف المدينة، ويتذكر يهوديًا عنده مزرعة، فيقتحم عليٌّ عليه باب المزرعة الضيق الصغير ويدخل، ويقول اليهودي: يا أعرابي، تعال وأخرج كل غرب بتمرة والغرب هو الدلو الكبير، وإخراجه، أي إظهاره من البئر معاونة مع الجمل. فيشتغل عليٌّ رضى الله عنه معه برهة من الزمن، حتى ترم يداه و يكل جسمه، فيعطيه بعدد الغروب تمرات، ويذهب بها ويمر برسول الله صلى الله عليه وسلم ويعطيه منها، ويبقى هو وفاطمة يأكلان من التمر القليل طيلة النهار [1].

من لنا برجال على تلك الشاكلة

هكذا مكثت فاطمة الزهراء رضى الله عنها في البيت، وخرج عليٌّ كرم الله وجهه يلتمس الرزق أما نحن معشر النساء اليوم، فمن لنا برجال على تلك الشاكلة؟! من لنا بمن يمكثنا في البيوت ويقرنا فيها ويذهب هو ليلتمس الرزق والخير والنفع؛ حتى لا نرى في طوابير المخابز وفي زحام الجمعيات و...

لا نرى ونحن نملأ وسائل المواصلات، لا نرى ونحن نزاحم في المؤسسات العامة طلبًا للرزق وجريًا وراء لقمة العيش متخلين بذلك عما فرضه الله علينا من دور في رعاية بيوتنا والقرار فيها، ومتخلين عن أطفالنا ملقين بهم عند أي شخص، وفى أي مكان؟!

فهل من رجال تقوم علينا أو ترى هل أصبحنا نحن نساء هذا الزمان من علامات يوم القيامة من هؤلاء اللواتي لا تجد للخمسين منهن القيم الواحد

(1) لا تحزن.

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم؟!

ومتى يعير الرجال مبدأ القوامة اهتمامًا؟

ومتى يوفر الرجال ممن بأيديهم القرار في الدول والحكومات المسلمة للمرأة المسلمة التي يحتاجها الخارج سواء في وطنها أو خارجه، أو تحتاجه عملاً خاليًا من كل شبهة من فقد محرم أو غير ذلك؟

وقبل الختام نورد كلمة في هذا الموضوع لشيخ الأدباء عباس محمود العقاد يقول رحمه الله: " فلما بعث النبي صلوات الله عليه بالدعوة الإسلامية لم تكن للمرأة منزلة مرضية ولا حقوق مرعية في وطن من أوطان الحضارة أو البداوة، فدحض الإسلام عنها هذه الوصمة وخولها من الحقوق ما يساوي حقوق الرجل في كل شيء إلا في حق القوامة:{ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ} [النساء: ٣٤].

{وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} [البقرة: ٢٢٨].

وهذا الذي عنيناه بالمساواة بين الحقوق والواجبات لأن المساواة بين الرجل والمرأة في جميع الكفايات والأعمال أمر لم يقم عليه دليل من تكوين الفطرة، ولا من تجارب الأمم ولا من حكم البداهة والمشاهدة، بل قام الدليل على نقيضه في جميع هذه الاعتبارات. ولم تتجاهل الأمم فوارق الجنسين إلا كان تجاهلها لها من قبيل تجاهل الطبيعة التي تضطر من يتجاهلها إلى الاعتراف بها بعد حين، ولو من قبيل الاعتراف بتقسيم العمل بين جنسين لم يخلقا مختلفين عبثًا بعد أن غبرت عليهما ألوف السنين، وأحرى أن يكون طول الزمن مع تطور الأحوال الاجتماعية سببًا لاختصاص كل منهما بوظيفة غير وظيفة الجنس الآخر، ولا سيما في الخصائص التي تفترق فيها كفاية الحياة البيتية وكفاية الحياة الخارجية، فإن طول الزمن لا يلغى الفوارق بل يزيدها ويجعل لكل منها موضعًا لا

يشابه سواه " [1].

ولا أقول الذي أقول لأمنع المرأة من عمل يحتاجها أو تحتاجه إن كان في حدود ما أحل الله سبحانه، فما ينبغي لي هذا ولا لأحد كان، وإنما أقول ذلك لأن من الرجال كثير بات يتقاعس عن دوره الذي أناطه الله تعالى به، ويوكله لغيره من النساء.

وفي الختام تظل كلمة {ٱمۡكُثُوٓاْ} تمثل مبدأ إسلاميًا وخلقًا من أهم الأخلاق القرآنية يسير عليه كل من بقي لديه شيء من رجولة وشهامة، وتظل {ٱمۡكُثُوٓاْ} كلمة تلمح إلى أهم خلق من أخلاق الرجال التي بها يتفاضلون على النساء مع محبة النساء لذاك التفاضل عليهن، وتظل {ٱمۡكُثُوٓاْ} هي القانون الذي ينطبق على المرأة على أغلب أحوالها، وتظل {ٱمۡكُثُوٓاْ} إن شئت قلت هي الدين... وإن شئت قلت هي المنطق... وإن شئت قلت هي الواجب.

* * *

(1) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

وإني سميتها مريم

القرآن خُلقًا

وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ

قال تعالى:

{ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾} [آل عمران: ٣٥ - ٣٦].

التفسير:

{ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ } حنة لما اشتاقت للولد فدعت الله وأحست بالحمل يا رب إني نذرت أن أجعل لك ما في بطني محررًا أي لخدمة بيتك المقدس{فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ } للدعاء العليم بالنيات ثم مات عمران وهى حامل{ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا} ولدتها جارية وكانت ترجو أن يكون غلامًا إذ لم يكن يحرر إلا الغلمان فقالت معتذرة{رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ} أي عالم بما وضعت وهي جملة اعتراض من كلامه تعالى وفى قراءة بضم التاء وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لأنه يقصد للخدمة وهي لا تصلح لضعفها وعورتها وما يعتريها من الحيض ونحوه ولقد نذرت خدمة المسجد في ولدها، فلما رأته أنثى لا تصلح وأنها عورة اعتذرت إلى ربها.{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ } يعني خادم الرب في لغتهم{وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا} أي مريم،{وَذُرِّيَّتَهَا } أي عيسى{مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ } وفي الحديث:{**ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا إلا مريم وابنها**} [1] يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم{وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا } [2].

(1) رواه الشيخان.

(2) تفسير مختصر ابن كثير - القرطبي - الجلالين.

تقص علينا هذه الآيات الكريمات قصة امرأة عمران تلك المرأة المؤمنة التي نذرت ما في بطنها محررًا لله تعالى، وهي يملؤها الأمل ويحدوها الرجاء أن ما في بطنها ولد ذكر يصلح لأن تهبه محررًا من كل شواغل الدنيا ليكون متفرغًا لعبادة الله سبحانه، وخدمة بيت المقدس، وتحين ساعة الولادة وتوشك لحظتها، وها هي امرأة عمران تضع حملها تضع ما نذرته محررًا لله تعالى، وتأتيها المفاجأة غير السارة؛ لأنها على غير المرجو المؤمل إن نتيجة حدثها السعيد كان (أنثى) لا تصلح لأن توهب لخدمة بيت المقدس. فكيف تفي امرأة عمران بنذرها؟! وكيف تنفذ ما وعدت به الله؟! فتناجي المرأة وهي في النفاس ربها في صوت حزين معتذرة بشأن ذلك النذر وذاك الوعد الذي قطعته على نفسها أمام الله سبحانه. فتقول:{رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ} تقدم اعتذارها لله برغم علمها أنه سبحانه هوالخلاق العليم يعلم بما وضعت قبل أن تضعه، فهو سبحانه الذي يقر في الأرحام ما يشاء، ويعلم سبحانه أن الذكر يختلف عن الأنثى في خلقهما، وفيما يوكل إليهما من أعمال، ولكنا نسمع اعتذارها الحزين الذي يدلنا على مدى صدقها مع الله جل وعلا، ثم نرى امرأة عمران تخرج من دائرة الحزن والأسف والشعور بخيبة الأمل لتقف ثابتة كعهدها الأول أيام النذر فتقول بكل يقين وثقة في الله وفيما أعطى:{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} هكذا امرأة عمران قد بدأت مرة ثانية تتقدم للأمام كسابق عهدها إذ إن مريم في لغتهم تعني (خادم الرب) وعليه يكون معنى كلام امرأة عمران: أني وضعتها أنثى ولكن برغم أنوثتها إلا أنها ستكون في مضمارعبادة الله فهي العابدة التي ستكون في خدمة الرب وخدمة بيته بيت المقدس، وتحمل المرأة وليدتها وتأتي بها سدنة بيت المقدس قائلة لهم: دونكم هذه النذيرة ليصدق القول العمل، وتدعو لمولودتها فتقول:{وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ} أي هاهي الأنثى التي رزقتني أقدمها لخدمة بيتك برغم أنوثتها

فاحمها اللهم وذريتها من الشيطان الرجيم؛ لتظل عابدة لك محررة لخدمة بيتك.

وهكذا بتلك الدعوة المباركة يختم الفصل الأول من قصة مريم عليها السلام، الجزء الخاص بأمها امرأة عمران تلك المرأة المؤمنة، بأن يتقبل الله طاعتها ويقبل نذرها وقربانها الذي تقربت به إليه وهو مريم عليها السلام { فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا } [آل عمران: ٣٧].

وفى هذه القصة من العبر مالا يمكن أن تحصيه أقلام الكتاب والمفسرين، ولا أبحاث البحاث والمفكرين شأنها شأن كل قصص القرآن الكريم، ولكن ما أردت أن أنوه إليه في هذا المقام على وجه الخصوص هو إيجابية امرأة عمران وثباتها على الحق والتجائها إلى الله جل وعلا في كل الأحوال، فيما أحبت وفيما لم تحب، فقد كانت تتوقع ولادة ولد ينشأ في طاعة الله وخدمة بيته محررًا لذلك نذرت ما في بطنها، وكأنها رضى الله عنها لم تك تتوقع أو تفترض افتراضًا ولو ضئيلاً جدًا بأن هذا المولود قد يكون (أنثى)، ولم تكن تتمنى ذلك ولو لثوان، فتنذر وثقتها أن جنينها (ذكر) وتدعو الله أن يتقبله منها قرباناً لخدمة بيت المقدس هذه هي المقدمات، ثم بعد ذلك تأتي النتائج غير المرجوة فتضعها أنثى يالها من مفارقة!!

ماذا تفعل..؟ وكيف ستتصرف..؟

لكنا نراها تثبت وتصر على السير قدمًا في الطريق القويم لا يأس، لا انتكاس، لا تردد، لا انقلاب على الأعقاب، لا نظر إلى الوراء، لا بكاء على أمنية لم تتحقق، وإنما مثالاً مثاليًا للإيجابية ونموذجًا حيًا لتجسيدها، إذ تقول بلسان الحال والمقال قدر الله وما شاء فعل، وما دام أن الله قدر ما أراد فليكن ما أراده الله، وليكن لقدره من نفسي كل الرضا والقبول، ولا يزيدني قدره إلا إيمانًا وتسليمًا، فتسمي طفلتها العابدة أو خادم الرب،

وكأنها تقول حتى وإن كان ما ولدت أنثى فستظل أمنيتي أن ألد ما أهبه محررًا لله نافذة محققة بإذن الله، ولأوفين بنذري على كل حال.

ولأنها رضى الله عنها على هذا القدر من الثبات على الحق، والتقدم بنفس القوة على الطريق المستقيم، لأنها على هذا القدر من الإيجابية، على هذا القدر من صدق النية، على هذا القدر من الإيمان بقدر الله ما كان الله ليضيع إيمانها، وإنما دفع الله إليها الخير دفعًا، وأسبغ عليها نعمه ظاهرة وباطنة ومنحها ما سألت وما لم تسأل{وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} [إبراهيم: ٣٤].

سألت امرأة عمران ربها أن يرزقها غلامًا ذكرًا يعبد الله ويكون في خدمة دينه، فأعطاها الله مريم عابدة له كأحسن ما تكون العبادة، قارة في محرابها لا شغل لها إلا عبادته وتسبيحه، فقد جعل سبحانه عمل مريم في الدنيا أشبه بعمل الملائكة المكرمون الذين يسبحون الليل والنهار لا يسأمون، وضمن لها رزقًا طيبًا يأتيها في محرابها بغير حساب.

سألت امرأة عمران ربها سبحانه أن يعيذ ابنتها وذريتها من الشيطان الرجيم، فأعاذها سبحانه من ذاك اللعين، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :{**ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا من مسه إياه إلا مريم وابنها**} [1] وقد قال علماؤنا أن هذا الحديث الشريف أفاد أن الله استجاب دعاء أم مريم، فإن الشيطان يمس جميع ولد آدم حتى الأنبياء والأولياء إلا مريم وابنها.

هذا هو ما سألت أم مريم أن يحققه الله لابنتها، وقد كان رد الله على سؤال أم مريم أن قال سبحانه:{ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا } ولا يحيط العلماء وإن اجتهدوا في تفسيراتهم بمقدار ذلك القبول، وأورد ما ذكره بعض علمائنا من المفسرين في هذا:{ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا } أي:

---

(1) سبق تخريجه.

سلك بها طريق السعداء وتقبلها من أمها نذيرة برغم أن الله سبحانه لم يكن يقبل في النذر إلا الذكور كما قال ابن عباس.{نَبَاتًا حَسَنًا} أي: جعلها شكلاً مليحًا

ويسر لها أسباب القبول وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين.

{وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا } أي جعل القائم على كفالتها ورعايتها نبي كريم لتقتبس منه علمًا جمًا نافعًا.

لقد كانت إيجابية امرأة عمران وثباتها على الحق وتقدمها في الطريق المستقيم إثر يقينها بالله وثقتها بما في يده أكثر من ثقتها بما في يدها؛ لذلك أرت الله من نفسها خيرًا، فوفت بنذرها وأسمت ابنتها اسمًا لا يعين مسماه فقط، وإنما يدل عليه، وقدمتها بالفعل لخدمة بيت المقدس، ودعت الله لها أن يحفظها بقدرته ورحمته وذريتها من الشيطان الرجيم، ويعلم الله العليم سبحانه صدق نية امرأة عمران ويرى إيجابيتها فيثيبها فتحًا من الحسنات قريب، ويجزيها الحسنة عشر أمثالها ويزيد، " ويقول لها أردت غلامًا ذكرًا ليخدم بقعة محددة من الأرض في زمن معين فوهبتك أنثى تخدم مبادئ وعقائد تصلح الدنيا من يوم ولادتها إلى أن تقوم الساعة " [1].

انظر إلى شجرة الإيجابية وانظر إلى ثمارها ما أعظمها من شجرة وما أينع ثمارها وأنفعها!!

انظر كيف ثبتت امرأة عمران على الحق وسارت نحوه قدمًا: { يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ } [إبراهيم: ٢٧].

انظر كيف اعتصمت بحبل الله المتين وتمسكت بعروته الوثقى التي لا انفصام لها{ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ} [آل عمران: ١٠٣] فلم تتردد ولم تتراجع.

---

(1) - تفسير الشعراوى.

انظر إلى أثر إيمانها وتمسكها بمبدأ صائب، قال تعالى{وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ} [التغابن: ١١].

فاق النبيين فما بالك بذويهم!

وللنبي صلى الله عليه وسلم مواقف كثيرة عديدة مثلت ذا الخلق الكريم مواقف للثبات عند الشدائد.. للإيجابية.. للسير قدمًا في طريق الحق كان له فيها التميز والتفوق على أم مريم رضى الله عنها وعلى غيرها من الصالحين، فلقد فاق النبي صلى الله عليه وسلم النبيين عليهم السلام في خلق وفي خلق فما بالك بذويهم؟!

فاق النبيين في خلق وفي خلق ::: ولم يدانوه في علم ولا كرم

فما من خلق كريم كان لبشر إلا وللنبي صلى الله عليه وسلم منه الحظ الأوفر والنصيب الأجزل، وصدق الله تعالى حين وصف نبيه صلى الله عليه وسلم فقال جل من قائل:{وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤} [القلم: ٤]، ولقدعلم النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة وصف ربه سبحانه له، كما علم كنه رسالته التي أرسل بها حين قال صلى الله عليه وسلم :{**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**} [1]، فإذا ما أثبت الله سبحانه لأم مريم عليها السلام خلقًا كريمًا في هذه الآية الكريمة، فقد أثبت للنبي صلى الله عليه وسلم من الأخلاق ما فاق بها أم مريم والناس أجمعين.

وأورد في هذا المقام خلقًا كريمًا للنبي صلى الله عليه وسلم وهو ذاك الخلق المذكور في الآية الكريمة نفسه إنه خلق الإيجابية، إذ الشواهد المؤيدة على ذلك كثيرة جدًا في حياته المباركة صلى الله عليه وسلم اخترت منها ذلك الشاهد، فقد كان ذلك يوم أن عاد خالد بن الوليد بالجيش المسلم من غزوة مؤتة، يومها قال النبي صلى الله عليه وسلم كلمة أشبهت كلمة المرأة الصالحة امرأة عمران{وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ}.

---

(1) صحيح البخاري.

ولقد كان سبب هذه المعركة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمروالغساني - وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر - فأوثقه رباطًا، ثم قدمه، فضرب عنقه.

وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، يساوي بل يزيد عن إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وهو أكبر جيش إسلامي، لم يجتمع قبل ذلك إلا في غزوة الأحزاب، وأمّر رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا البعث زيد بن حارثة، وقال: إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة، وعقد لهم لواءً أبيضًا، ودفعه إلى زيد ابن حارثة وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم، وقاتلوهم، وقال لهم: اغزوا بسم الله في سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغيروا، ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأةً، ولا كبيرًا فانيًا، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة ولا تهدموا بناءً.

ولما تهيأ الجيش للخروج حضر الناس، ودعوا أمراء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسلموا عليهم، وحينئذ بكى أحد أمراء الجيش، عبد الله بن رواحة، فقالوا: ما يبكيك؟

فقال: أما والله ما بي حب الدنيا، ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار{وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾} [مريم: ٧١] فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟ فقال المسلمون صحبكم الله بالسلامة، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين غانمين، فقال عبد الله بن رواحة:

ولكني أسأل الرحمن مغفرة ::: وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة ::: بحربة تنفذ الأحشاء والكبد

حتى يقال إذا مروا على جدثي ::: أرشده الله من غاز وقد رشدا

ثم خرج القوم، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيعًا لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف وودعهم.

وتحرك الجيش الإسلامي في اتجاه الشمال حتى نزل معان، من أرض الشام، مما يلي الحجاز الشمالي، وحينئذ نقلت إليهم الاستخبارات بأن هرقل نازل بمآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلي مائة ألف.

ولم يكن المسلمون أدخلوا في حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمرم، والذي بوغتوا به في هذه الأرض البعيدة - وهل يهجم جيش صغير، قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فحسب، على جيش كبير عرمرم، مثل البحر الخضم، قوامه مائتا ألف مقاتل؟ حار المسلمون وأقاموا في معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وينظرون ويتشاورون، ثم قالوا: نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا فنمضي له.

ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا الرأي، وشجع الناس قائلاً: يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة. وأخيرًا استقرالرأي على ما دعا إليه عبد الله بن رواحة. وحينئذ بعد أن قضى الجيش الإسلامي ليلتين في معان، تحركوا إلى أرض العدو، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها: " مشارف " ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى مؤتة، فعسكروا هناك وتعبؤوا للقتال، وهناك في مؤتة التقى الفريقان، وبدأ القتال المرير، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتي ألف مقاتل، معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب.

أخذ الراية زيد بن حارثة - حب رسول الله صلى الله عليه وسلم - وجعل يقاتل بضراوة بالغة، وبسالة لا يوجد لها نظير إلا في أمثاله من أبطال الإسلام، فلم يزل يقاتل ويقاتل حتى شاط في رماح القوم، وخر صريعًا، وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، وطفق يقاتل قتالاً منقطع النظير، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها، ثم قاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حتى قطعت شماله، فاحتضنها بعضديه، فلم يزل رافعًا إياها حتى قتل. يقال: إن روميًا ضربه ضربة قطعته نصفين، وأثابه الله بجناحيه جناحين في الجنة، يطير بهما حيث يشاء، ولذلك سمي بجعفر الطيار، وبذي الجناحين.

وروى البخاري عن نافع أن ابن عمر أخبره أنه وقف على جعفر يومئذ وهو قتيل، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة، وليس منها شيئًا في دبره يعني ظهره [1] ولما قتل جعفر بعد القتال بمثل هذه الضراوة والبسالة أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وتقدم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد حتى حاد حيدة، ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ::: كارهة أو لتطاوعنه

إن أجلب الناس وشدوا الرنة ::: مالي أراك تكرهين الجنه

ثم نزل، فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال: شد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده فانتهس منه نهسة، ثم ألقاه من يده ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قتل.

وحينئذ تقدم رجل من بني عجلان - اسمه ثابت بن أرقم - فأخذ الراية وقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية قاتل قتالاً مريرًا، فقد روى البخاري عن خالد بن الوليد قال: لقد انقطعت في يدي

---

(1) صحيح البخاري.

يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية [1].

وقد قال رسول الله يوم مؤتة - مخبرًا بالوحي، قبل أن يأتي إلى الناس الخبر من ساحة القتال: أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تزرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم [2].

ومع الشجاعة البالغة والبسالة والضراوة المريرتين كان مستغربًا جدًا أن ينجح هذا الجيش الصغير في الصمود أمام تيارات ذلك البحر الغطمطم من جيوش الروم، ففي ذلك الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته ونبوغه في تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه. واختلفت الروايات كثيرًا فيما آل إليه أمر هذه المعركة أخيرًا، ويظهر بعد النظر في جميع الروايات أن خالد بن الوليد نجح في الصمود أمام جيش الرومان طول النهار، في أول يوم من القتال، وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية، تلقي الرعب في قلوب الرومان؛ حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة، فقد كان يعرف جيدًا أن الإفلات من براثنهم صعب جدًا لو انكشف المسلمون، وقام الرومان بالمطاردة.

فلما أصبح اليوم الثاني غيّر أوضاع الجيش، وعبأه من جديد، فجعل مقدمته ساقة، وميمنته ميسرته، وعلى العكس، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم، وقالوا: جاءهم مدد فرعبوا وصار خالد - بعد أن تراءى الجيشان، وتناوشا ساعة - يتأخر بالمسلمين قليلاً قليلاً، مع حفظ نظام جيشه، ولم يتبعهم الرومان ظنًا منهم أن المسلمين يخدعونهم، ويحاولون القيام بمكيدة ترمي بهم في الصحراء.

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده، ولم يفكر في القيام بمطاردة المسلمين،

---

(1) صحيح البخاري.
(2) صحيح البخاري.

ونجح المسلمون في الانحياز سالمين، حتى عادوا إلى المدينة.

أما عن قتلى الفريقين فقد استشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلاً، أما الرومان، فلم يعرف عدد قتلاهم غير أن تفصيل المعركة يدل على كثرتهم [1].

وقالت أسماء بنت عميس زوج جعفر الطيار بن أبي طالب رضى الله عنها أتاني النبي صلى الله عليه وسلم وقد فرغت من اشتغالي وغسلت أولاد جعفر، ودهنتهم، فأخذهم وشمهم، ودمعت عيناه فقلت يا رسول الله أبلغك عن جعفر شيء؟ قال:**{نعم أصيب هذا اليوم}**.

ثم عاد إلى أهله فأمرهم أن يصنعوا لآل جعفر طعامًا - فهو أول ما عمل في دين الإسلام - ولما رجع الجيش ودنا من المدينة لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ عبد الله بن جعفر فحمله بين يديه، فجعل الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون: " يا فرار يا فرار "، ويقول رسول الله:**{ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله}** [2].

وتلك الأخيرة هي شاهدنا في هذا المقام:**{ليسو بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله}** إنها كلمة خالدة للنبي العظيم محمد صلى الله عليه وسلم الذي قد قدم كل مقدمات العمل الناجح كل مقدمات النصر، فقد جهز جيشًا كبيرًا لم يجهز مثله إلا في غزوة الأحزاب، وحدد زمان المعركة ومكانها، وعين أمراءها، ولم يؤمر عليها أميرًا واحدًا، وإنما أمرعليها ثلاثة أمراء اختارهم من أمهر وأشجع المقاتلين جاعلاً القيادة بينهم بالتناوب:**{فإن أصيب فلان فالأمير فلان}**، وعقد لهم اللواء بيده، وودعهم وأصحابه حتى ثنية الوداع، ودعا لهم بالسلامة والنصر والغنيمة هذه هي المقدمات التي أعدها النبي صلى الله عليه وسلم وقدمها لإنجاح هذه الغزوة متمنيًا وراجيًا لها النصر.

---

(1) الرحيق المختوم.

(2) هذا الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم.

أما الذي لم يكن في الحسبان أن يكون جيش الرومان بهذه الكثرة " مائة ألف " وينضم إليه جيش مثله في العدد والعدة يقاتلان معًا المسلمين!! ويقتحم جيش المسلمين الكرار جيش الرومان، ويقاتل الجيش المؤمن الباسل حتى يقتل أمراؤه الثلاثة الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم قد عينهم، ويتولى قيادة الجيش من بعدهم خالد بن الوليد، ويقاتل قتالاً مريرًا، ولا يجد أمامه حلاً سوى الانسحاب بجيشه فلا سبيل إلى الاستمرار في تلك المعركة غير المتكافئة، وبالفعل ينسحب خالد بن الوليد بالجيش المسلم انسحابًا عبقريًا فذًا مازال يدرس في الكليات الحربية في العديد من البلدان المتقدمة إلى وقت قريب، ويعود خالد بجيشه للمدينة سالمًا معافى ليجد أهلها يحثون عليه وعلى جيشه التراب ويعيرونهم بالفرار " يا فرار يا فرار ".

لكن النبي صلى الله عليه وسلم الذي رأى أحداث المعركة بعين اليقين، وأخبر بها أصحابه يرد عن خالد وجيشه قائلاً:{**ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله**} لقد ثبت النبي صلى الله عليه وسلم على الحق رغم نتائج المعركة غير السارة؛ لأنه أدرك صلى الله عليه وسلم قبل غيره من الناس، وعلم علم اليقين أن جيشاً مكانهم وفى مثل حالهم لم يكن ليقتحم حشود جيوش الرومان أو يكر عليهم بعدما رأى عددهم وعدتهم، لكنهم كروا... وحاربوا... وقاتلوا... واستماتوا في القتال.

ليسوا بالفرار وأن جيشًا مكانهم وفى مثل حالهم لم يكن ليثبت دقائق أمام جيش الرومان العرمرم، لكنهم ثبتوا يحاربون ويقاتلون ويكرون عليه أيامًا وأيامًا.

ليسوا بالفرار وقد كر أمراؤهم على الأعداء، والواحد منهم يقتل أشد القتل أمام أخيه، فلا يزيدهم ذلك إلا إيمانًا، وتسليمًا، وبسالةً، وإقدامًا، وكرًا على أعداء الله غير مبالين بما أصابهم في سبيل الله، فلا هم لهم إلا أن تظل كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله عالية خفاقة.

ليسوا بالفرار وقد وكلت قيادتهم لسيف من سيوف الله سله الله على أعدائه فأمكن منهم، وما كان له أن يغمد أو يفر.

ليسوا بالفرار والجيش من صفوة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تعلموا على يديه كيف تكون الشجاعة والبسالة والإقدام والكر.

ليسوا بالفرار وقد كان الانسحاب هو أحسن الحلول بل لم يكن هناك غيره حل لما وقع فيه الجيش المسلم.

ليسوا بالفرار وقد كان انسحابهم ليس فرارًا بالمعنى الحقيقي، وإنما هو تحرفًا لقتال الرومان في مواقع أخرى وأزمنة لاحقة فقد كانت هذه المعركة هي مقدمة فتوح بلدان النصارى.

وعن نتائج هذه الغزوة العظيمة والمعركة الكبيرة يقول صاحب كتاب الرحيق المختوم فضيلة الشيخ صفي الرحمن المباركفوري: " وهذه المعركة وإن لم يحصل المسلمون بها على الثأر، الذي عانوا مرارتها لأجله، لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين، إنها ألقت العرب كلها في الدهشة والحيرة، فقد كانت الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض، وكانت العرب تظن أن معنى جلادها هو القضاء على النفس وطلب الحتف بالظلف، فكان لقاء هذا الجيش الصغير - ثلاثة آلاف مقاتل - مع ذلك الجيش الضخم العرمرم الكبير - مائتا ألف مقاتل - ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تذكر، كان كل ذلك من عجائب الدهر، وكان يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله، وأن صاحبهم رسول الله حقًا، ولذلك نرى القبائل اللدودة التي كانت لا تزال تثورعلى المسلمين جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام، فأسلمت بنو سليم وأشجع وغطفان وذبيان وفزارة وغيرها. وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامي مع الرومان، فكانت توطئةً وتمهيدًا لفتوح البلدان الإسلامية، واحتلال

المسلمين الأراضي البعيدة النائية [1].

لقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما رآه المباركفوري وغيره بعد مئات السنين، رآه صلى الله عليه وسلم وقتما لم يره غيره وقت انسحاب الجيش، ورجوعه إلى المدينة، وقتل قواده الثلاثة، حين لم يحالفه النصر ولم تتبعه الغنائم.

رأى النبي صلى الله عليه وسلم للمعركة ثمارًا يانعة لم تكن قد تجلت إلا للرائي البصير، رأى الجانب المشرق في حين لم ير غيره إلا الهزيمة والانسحاب وقتل القواد والفرار، رأى صلى الله عليه وسلم نصف الكوب الملآن؛ فثبت رغم أن النتائج قد اختلفت عن المقدمات.

وظل سائرًا للأمام، ويقينه صلى الله عليه وسلم بأن ما قدره الله سبحانه كان له وللجيش المسلم لا عليهما{ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾} [التوبة: ٥١] " لا يقضي الله لمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له " [2].

ثبت النبي صلى الله عليه وسلم لأنه علم أن الجيش صنع كل ما يمكن أن يصنع وأنه جاهد في الله حق جهاده، فلم يأل جهدًا، ولم يدخر وسعًا في مجاهدة جيش الرومان، ولكن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء.

ثبت النبي صلى الله عليه وسلم في الموقف العصيب، ورأى فيه الخير والفتح، ليعلمنا الله جل وعلا من نبيه صلى الله عليه وسلم كيف نثبت عند الشدائد، ونرى فيها ما لا يراه الآخرون، فنتقدم للأمام برغم ما يلاقينا.

ثبت النبي صلى الله عليه وسلم ليرينا الله سبحانه كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم سائرًا على ما سار عليه السابقون الأولون بأفضل مما ساروا عليه من الإيمان واليقين والإيجابية من الإصرار على السير قدمًا مهما

(1) الرحيق المختوم.
(2) مسند الإمام أحمد.

اختلفت النتائج عن المقدمات، مهما اختلف الواقع عن الأمنيات{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} رأت امرأة عمران أن الله قد وهبها ما أرادت وإن كان على غير ما أرادت، واستمرت سائرة في طريق الحق والإيمان، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة للانسحاب عذرًا، وفي قتل قواد الجيش شهادةً، وللحرب كرةً في مواقع أخرى، وللنصر فيها نصيبًا وموعدًا آخر مع نفس هؤلاء الجنود في مواقع أخرى؛ ذلك لأن هؤلاء المباركين كانوا دائمًا متفائلين إيجابيين ناظرين للأمل المشرق القريب{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ}،**{ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله}**.

إنهم يرون في الصورة التي تبدو للناس سوداء مظلمة يرون فيها ضياءًا ونورًا، إنها حقًا الإيجابية وإن حدث ما حدث.

الإيجابية خلق الأفاضل

هذا وأن الإصرار على السير قدمًا في الطريق المستقيم برغم كل العراقيل والصعوبات لهو خلق كريم لم يكن مقصورًا على الصفوة من خلق الله من الأنبياء وذويهم فحسب، بل هو خلق عند أفاضل الناس أيضًا أثبته لهم النبي صلى الله عليه وسلم حين ذكر حال أحدهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{قال رجل: لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على زانية! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تصدق على غني، فقال: اللهم لك الحمد على سارق، وعلى زانية، وعلى غني، فأتي فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله أن يعتبر**

فينفق مما آتاه الله} [1].

فلقد سار الرجل إلى الأمام غير منتكس أو ناكص على عقبيه متراجع عن التصدق مع أن الناس كانوا دائمًا يرون أنه فعل الشيء الذي لا ينبغي، وتحدثوا بذلك، وقد سمع ما تحدثوا به، فلم يثنه كلامهم عن موقفه، ولم يؤثر عليه انتقادهم له، فرفعه الله عن مستواهم الفكري والخلقي، وذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم حامدًا له إيجابيته وسيره إلى الأمام قدمًا في الطريق الصحيح المستقيم مبينًا أثر ذلك في هداية أصناف شتى من الناس، وأوبتهم إلى الله عز وجل، مع جزيل ثواب الرجل على تلك الصدقات.

وفي الختام لقد كان هذا عرضًا لنماذج عظيمة من البشر تحمل نفوسًا أبيةً تأبى إلا أن ترى من كل شيء جانبه المشرق المضيء، فتثبت عليه ومنه تستمر في طريق النور.

اثبت على الحق الذي به يعتصـــم ::: وارجو إلهًـــا لـــيس إلاه يرتجـــى

إنها نفوس اتصلت بالسماء، وعاشت على الأرض فكانت سراجًا منيرًا يضيء للسالكين الطريق إلى الله، فكم نحتاج اليوم لذلك الخلق الكريم وشعاراته العظيمة{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ}**{ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله}** الممثلة لحقائق نؤمن بها ونعتز، والممثلة لأخلاق من أهم أخلاق المسلم، كم نحتاج أن نحيا بها قائلين لأنفسنا: نحن العبَّاد، نحن كلنا خادم الرب، نحن الكرار إن شاء الله؛ لنبطل بها وازع في نفوسنا ينفيها ويردد نقيضها، ولنكتسب من إيجابية الصالحين إيجابية تعيننا على تخطي كل عقبة وتجاوز كل عسير.

وإن أناسًا لا يقتدون بأمثال هؤلاء العظماء الذين مثلوا ذلك الخلق العظيم لضالون تائهون في دياجير الظلمات، وإن أعينًا تأبى أن ترى من

---

(1) رواه البخاري بلفظه ومسلم بمعناه.

الأشياء جانبها المشرق لأعين كالة سقيمة، وإن نفوسًا لا تتمسك بالثبات على الحق مهما قابلت في طريقه من أشواك لنفوس مدسوسة خبيثة.

ترى الشوك في الورود وتأبى ::: أن ترى الندى فوقها إكليلاً

فلنرجع إلى الله سبحانه وإلى من جعلهم الله للناس قدوة؛ لنلتمس النور الذي يضيء لنا الدنيا ويهدينا إلى الجنة.

* * *

وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات
فأتمهن

القرآن خُلقًا

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ

قال تعالى:{وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾} [البقرة: ١٢٤].

التفسير:

يقول تعالى منبهًا على شرف إبراهيم خليله عليه السلام، وأن الله تعالى جعله إمامًا للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله به من الأوامر والنواهي ولهذا قال:{وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ} أي: قام بهن كلهن كما قال تعالى:{ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾} [النجم: ٣٧] أي وفى جميع ما شرع له فعمل به صلوات الله عليه{إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} أي: جزاء ما فعل كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة وإمامًا يقتدى به ويحتذى حذوه.

وقوله:{قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ } لما جعل الله إبراهيم إمامًا سأل الله أن يكون الأئمة من بعده من ذريته، فأجيب إلى ذلك وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم (1).

يخبرنا الله سبحانه في الآيات الكريمات أن إبراهيم عليه السلام أكمل وأتم كلمات ابتلاه الله بهن.

والابتلاء هو اختبار ومقياس لتمحيص الخير والشر، وأما مادة الابتلاء فكانت كلمات وهي التكليفات التي كلف الله سبحانه إبراهيم عليه السلام بها بدون قهر في كل ما أمره به في قوله افعل ولا تفعل (2) وكانت نتيجة الابتلاء أن إبراهيم عليه السلام نجح نجاحًا باهرًا بل إنه تفوق تفوقًا

(1) تفسير ابن كثير.
(2) تفسير الشعراوي.

منقطع النظير؛ لأنه أدى كل ما أمر به أداءً تامًا شهد له الله تعالى به.

ولأن لنا في إبراهيم عليه السلام ونبينا صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة؛ لأنا نحن المسلمين أولى الناس بهما، فنبينا صلى الله عليه وسلم هو نبي الإسلام الذي جعله الله أسوة حسنة يتأسى بها كل من كان يرجو الله واليوم الآخر، وإبراهيم عليه السلام هو الحنيفي المسلم الذي إنما سار النبي محمد صلى الله عليه وسلم على ملته قال تعالى:{ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾} [آل عمران: ٦٨]؛ لذا فقد عنَّ لنا في هذا المقام أن نعرض لخلق من أعظم أخلاقهما صلى الله عليهما وسلم وهو الإتمام وكيف حققاه في الواقع حتى شهد الله عز وجل لهما به، ولنبدأ بخليل الله إبراهيم عليه السلام مسلطين الضوء على ذاك الخلق عنده عليه السلام من خلال ابتلائين مما ابتلاه الله تعالى بها؛ لنرى كيف أتم وأكمل ونجح في الابتلاء مترسمين طريقه في ذلك الإتمام، متوسمين الاقتداء به وبطريقته المثلى التي انتهجها لنحظى بما حظي به من شهادة الله تعالى له بأنه أتم ووفى.

وقد قصدت بالاختيار ابتلائين متمايزين مختلفين:

أولهما ابتلاء في مصلحة عامة وخدمة اجتماعية لعموم الناس وهو (بناء الكعبة المشرفة).

وثانيهما: ابتلاء خاص في أمر شخصي وهو (ذبح ولده إسماعيل) على أبيه وعليه السلام؛ لأوضح الخيط الذي يوضح إتمام إبراهيم عليه السلام للأمر الذي أمر به، وذاك الخيط كان هو الإخلاص والتوسل في ذلك بكل وسيلة والتماس كل حيلة للوصول لأفضل النتائج، ولأبين تلك السلسلة التي لا يتباين طرفاها لتداخلهما في بعضهما البعض، والتي تضم سر النجاح في كل عمل وتجمع حكمة التفوق فيه وهي الإخلاص - الوسيلة - الإتمام.

والتي يمثل كل منها خلقًا من أهم وأبرز أخلاق الأنبياء عليهم جميعًا

صلوات الله وتسليماته.

إبراهيم عليه السلام يبتلى ببناء البيت

والآن إلى الابتلاء الأول: قال تعالى:{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾} [الحج: ٢٦].

التفسير:

{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ} العامل في إذ مضمر تقديره اذكر وبوأنا أصله من باء بمعنى رجع وقيل: معناه هيأنا، وقيل: جعلنا، والبيت هنا الكعبة، وروي أنه كان آدم يعبد الله فيه، ثم درس بالطوفان، فدل الله إبراهيم عليه السلام على مكانه، وأمره ببنيانه{أَن لَّا تُشْرِكْ} أن مفسرة، والخطاب لإبراهيم عليه السلام، وإنما فسرت تبوئة البيت بالنهي عن الإشراك، والأمر بالتطهير، لأن التبوئة إنما قصدت لأجل العبادة التي تقتضي ذلك{وَطَهِّرْ بَيْتِيَ} عام في التطهير من الكفر والمعاصي والأنجاس وغير ذلك{وَالْقَائِمِينَ} يعني المصلين [1].

لقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة فقيل الملائكة قبل آدم، وقيل آدم عليه السلام، والراجح أن الله سبحانه هو أول من بنى البيت كما أوضحت ذلك آيات القرآن الكريم، وهذا الرأي هو ما قال به الشيخ الشعراوي - رحمه الله - مستنبطًا إياه من القرآن الكريم [2]، ثم أمر الله سبحانه إبراهيم عليه السلام ببناء البيت، وأرشده إلى مكانه، ودله على قواعده، ثم عرفه مهمة هذا البيت فهو بيت بركة وهدى يطوف به الطائفون ويعتكف به المعتكفون، ويقيم فيه القائمون ويصلي به وإليه المصلون في كل بقاع الأرض فهو قبلتهم ومسجدهم الأول، وإليه يثوب ويرجع الناس كل الناس

(1) التسهيل لعلوم التنزيل.
(2) تفسير الشعراوى.

من كل فجاج الأرض طلبًا للراحة والأمن{مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا}، فلا يتأخر إبراهيم عليه السلام في تنفيذ أمر الله سبحانه بل ينفذه مصطحبًا ابنه إسماعيل عليه السلام معاوناً له في بناء البيت الحرام، ويجدا قواعده كما أرشد الله ودل فيرفعانها ويعليان البناء حتى يرتفع عن قامة إبراهيم عليه السلام، لكنه لا يكتفي بهذا المستوى من الارتفاع، فإبراهيم عليه السلام لا يحب أن يبني البيت الحرام كيفما اتفق، أو كما يبني الناس بيوتهم، وإنما يريد أن يرفع البناء ويشيده ويعليه أكثر وأكثر؛ فهو بناء أعلى البيوت شرفًا ومكانة.

ومن إخلاصه عليه السلام يعمل عقله لينتج فكرة تعينه على التجويد والإتمام، فيأتي بحجر يضعه له إسماعيل عليه السلام؛ ليقف عليه، ويناوله إسماعيل حجارة البناء ويدورا بذلك الحجر حول جدران الكعبة وكلما أتما جانب منها انتقلا إلى الذي يليه حتى أتما البناء كأكمل وأتم ما أمكنهماعليهما السلام.

لم يكن إبراهيم إذن بناءً عاديًا بل كان مبتكرًا مخترعًا مستثمرًا استثمر وقته وجهده وأعمل عقله لابتكار أداة بها يتم العمل مستعينًا بابنه في ذلك، ولم يأل في عمله جهدًا، ولم يدخر فيه وسعًا، بل عشق التكليف وأحبه وأخلص في إتمامه وإتقانه مقدمًا كل ما يمكنه أن يقدمه ملتمسًا كل حيلة ممكنة؛ ليصل إلى أفضل النتائج.

ولنقف مع تلك الحيلة التي لجأ إليها إبراهيم عليه السلام وتلك الوسيلة التي التمسها وهي (المقام) ذلك الحجر الذي وقف عليه وهو يبني الكعبة إذ فيه يقول فضيلة الشيخ الشعراوي - رحمه الله - مجتهدًا: إن أثر قدم إبراهيم عليه السلام في ذلك الحجر قد يكون مرجعه إلى أنه عليه السلام قد أضاف حيلة للحيلة بأن حفر في ذلك الحجر موضع قدمه لئلا تنزلق إبان وقوفه على الحجر لبناء الكعبة، والدليل على أنه فعل ذلك أن قدمه عليه السلام غائرة في موضع واحد في الحجر مستوية فيه.

ويضيف الشيخ الشعراوي - رحمه الله -: أن إبراهيم عليه السلام إن كان قد فعل ذلك فإن هذا يحسب له في محاولاته الجادة الحثيثة لبناء البيت الحرام، وإن لم يكن قد فعل ذلك فإن أثر قدمه في الحجر يكون مرجعه إلى أن الله سبحانه قد ألان له الحجر تحتها ليثبت عليه ولا ينزلق؛ وذلك تقديرًا من الله جل وعلا لإبراهيم عليه السلام واجتهاده في بناء البيت مصداقًا لقوله تعالى:{وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾} [العنكبوت: ٦٩] وعليه فإن تلك تحسب لإبراهيم عليه السلام كسابقتها؛ لأن الله سبحانه لولا أن رأى صدق إبراهيم عليه السلام، وعشقه للتكليف، وأداءه له بموضوعية لا بشكلية ترفع عنه إصر اللوم ما كان سبحانه ليلين له الحجر ليسهل له مهمته [1] وقد ذكر الله سبحانه لإبراهيم محاولته الجادة شاكرًا له عليها مثنيًا عليه في القرآن الكريم.

بيد أن الله تعالى لا يكرم المخترع المبتكر فحسب، وإنما لفضله وكرمه يكرم حتى الاختراع والابتكار، فنراه سبحانه قد كرم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وأشاد ببنائهما للبيت ورفع قواعده، وكيف أنهما عليهما السلام في سبيل ذلك قد بذلا كل ما أمكنهما، وقدما كل ما في وسعيهما، نراه سبحانه يعود بالثناء على المقام يكرمه، يكرم ذلك الحجر الذي اتخذه إبراهيم عليه السلام حيلة ووسيلة لإكمال بناء البيت وإتمامه إذ إنه لم يعد بعد حجرًا عاديًا، وإنما أصبح من أهم معالم البيت الحرام قال تعالى:{إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾} [آل عمران: ٩٦ - ٩٧].

فقد جعل الله سبحانه وتعالى ذلك المقام من الآيات البينات في البيت، بل جعله الآية والعلامة الوحيدة، وخصها بالذكر خصوصًا لم يفعله سبحانه مع غيرها من آيات البيت حتى أن ابن عباس رضى الله عنه قرأ{فِيهِ

---

(1) تفسير الشعراوي.

ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ} قرأها " فيه آية بينة " يعني بها مقام إبراهيم ويراد بها علامة واحدة.

هكذا بنى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت ورفعا قواعده بكل هذا الإخلاص والإتقان والعشق للتكليف ملتمسين لذلك كل وسيلة ممكنة محتالين بكل حيلة مشروعة، وعندما فعل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ما فعلا وانتهيا من عملهما، أعطاهما الله الغني الكريم أجرهما قبل أن يجف عرقهما وأجرهما كان أجرًا عظيمًا من رب عظيم كريم غني على عمل جليل عظيم لنبيين كريمين عظيمين هما خليل الله وابن خليله.

ذلك كله من الأجر

وإن كان الكريم كريمًا مع الناس كلهم فإن كرمه مع خليله يكن زائدًا فياضًا كالبحر من أي الجوانب جئته، ولنذكر من ذلك الأجر ما شاء الله لنا أن نذكر.

أول الأجر: كان شهادة من الله العظيم شهادة تقدير وامتنان مفادها أن إبراهيم عليه السلام قد أتم العمل على أحسن وجه وأكمل حال، ولم ينقص العمل من شيء، وأنه التمس لإتمام ذلك العمل ما استطاع من الحيل وما وسعه من السبل، وعشق ما كلف به وأداه بموضوعية وأمانة تامتين{ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾} [النجم: ٣٧]،{وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ} [البقرة: ١٢٤].

ومن الأجر: شرّف الله سبحانه إبراهيم عليه السلام أولاً ببناء البيت، وعندما أتم إبراهيم عليه السلام ما طلب منه أتم الله نعمته عليه وعلى ابنه إسماعيل بأن عهد إليهما، وكلفهما ثانية بأمر البيت الحرام، والقيام بشأنه بأن يطهراه من الأوثان والأرجاس والأنجاس، ويهيئونه لمن كان يرجو الله واليوم الآخر من الطائفين والعاكفين والركع السجود قال تعالى:{وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ } [البقرة: ١٢٥] يطهرا أطهر بقاع الأرض: البيت الحرام يطهرا أول بيت وضعه

الله للناس للهدى والبركة والعبادة، يطهرانه لأفضل خلق الله للسابقين للمفردين للذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، لمن أراد أن يطوف لمن أراد أن يعتكف لمن أراد أن يصلي فيه وإليه للقائم فيه والباد.

ومن الأجر: أن الله سبحانه عهد إلى إبراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج قال تعالى:

{وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ} [الحج: ٢٧] أي ناد في الناس داعيًا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فذكر أنه قال: يارب كيف أبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم، فقال: ناد وعلينا البلاغ، فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا وقيل: على أبي قبيس، وقال: يأيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتًا فحجوه فيقال أن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض وأسمع من في الأرحام والأصلاب، وأجاب كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر ومن كتب الله أن يحج إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك [1].

بيد أن الله سبحانه لم يوكل لإبراهيم عليه السلام أمر الأذان للحج فقط، بل إن الله سبحانه أتم له النعمة بأن أوكل إليه أمر القيام بالبيت ومناسكه الخاصة بمناسك الركن الخامس في الإسلام ألا وهو الحج كاملة له ولأهله فهم أولى الناس بالبيت.

ومن الأجر: أن الله سبحانه حينما جعل البيت مثابة للناس وأمنًا من كل ظلم وحيف وشر، ذكر إبراهيم بأنه بانيه وذكّر الناس بذلك حين قال: {وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى} [البقرة: ١٢٥] إنه سبحانه الحميد الشكور الذي لا ينسى الفضل لأهله، ويريد لعباده أن يتخلقوا بهذا الخلق الكريم، فعلى كل من ثاب إلى البيت أن يشكر لإبراهيم بناءه للبيت الحرام بالصلاة في المقام.

---

(1) تفسير ابن كثير.

ومن الأجر: أن ذلك الحجر ظل باقيًا شاهد عيان من يوم أن وضعه إبراهيم عليه السلام بجوار الكعبة لم تطاله يد بسوء، ولما بدأ الناس يتحرجون من الصلاة في المقام؛ لأن الحجر كان بينهم وبين الكعبة وهم لا يريدون بينهم وبين الكعبة شيء امتدت إليه يد عمر بن الخطاب رضى الله عنه يد العدل والرحمة، فأخره عن الكعبة؛ ليصلي الناس في المقام وليبسر عليهم الطواف بالبيت، وما فعله عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان لا بد منه؛ لأن الحجر كان حيثية من حيثيات إتمام بناء البيت فلا يصح أن يكون بعد ذلك عاملاً من عوامل نقص الصلاة فيه فمنطقيًا أن تكون الفكرة التي استعين بها لإتمام بناء البيت ألا تكون نقطة نقص لا يصلي فيها منه [1].

ومن الأجر: أن الله سبحانه عندما بعث نبي الرحمة محمدًا صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه كلامه الخالد ممثلاً في القرآن الكريم، أشاد سبحانه في كتابه ببناء إبراهيم وإسماعيل للبيت، وأشاد بحيلة إبراهيم في البناء جاعلاً إياها من العلامات البينات قال تعالى:{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ} [آل عمران: ٩٦ - ٩٧]؛ ليبقى إخلاص إبراهيم عليه السلام وحيلته وإتمامه مذكورًا مشكورًا إلى ما شاء الله على الدوام.

ومن الأجر: أن إبراهيم عليه السلام عندما أتم بناء البيت ضمن ما أتم من التكاليف العظيمة، جعله الله للناس لعموم الناس في جميع بقاع الأرض وعلى مر العصور والأزمان - " إمامًا يقتدون به ويأتمرون بهديه فسأل إبراهيم الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه، وباقية في نسبه، وخالدة في عقبه فأجيب إلى ما سأل ورام وسلمت إليه الإمامة بزمام واستثنى من نيلها الظالمون، واختص بها من ذريته العلماء العاملون " [2] قال

(1) تفسير الشعراوي.
(2) البداية والنهاية لابن كثير.

تعالى:{وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾} [العنكبوت: ٢٧].

وكل ما أوردناه من أجر كان من أجر إبراهيم عليه السلام في الدنيا، أما في الآخرة فإن الله أعد له أجرًا أعظم وأكرم، فقد ذكر سبحانه أن إبراهيم عليه السلام فيها من الصالحين.

ونذكر شيئًا مما أورده ابن كثير من أجر إبراهيم عليه السلام على بناء البيت قال - رحمه الله -: " والمقصود أن الخليل بنى أشرف المساجد في أشرف البقاع، في واد غير ذي زرع، ودعا لأهلها بالبركة، وأن يرزقوا من الثمرات، مع قلة المياه وعدم الأشجار والزرع والثمار، وأن يجعله حرمًا أمنًا محتمًا. فاستجاب الله وله الحمد له مسألته، ولبى دعوته، وآتاه طلبه،فقال تعالى:{أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [العنكبوت: ٦٧]. وقال تعالى:{أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا} [القصص: ٥٧] وسأل الله أن يبعث فيهم رسولاً منهم، أي من جنسهم، وعلى لغتهم الفصيحة البليغة النصيحة؛ لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية، سعادة الأولى والآخرة، وقد استجاب الله له: فبعث فيهم رسولاً وأي رسول! ختم به أنبياءه ورسله، وأكمل له من الدين مالم يؤت أحدًا قبله، وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، في سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة، وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء، لشرفة في نفسه، وكمال ما أرسل به، وشرف بقعته وفصاحة لغته، وكمال شفقته على أمته، ولطفه ورحمته، وكريم محتده وعظيم مولده، وطيب مصدره ومورده. ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان باني الكعبة لأهل الأرض، أن يكون منصبه ومحله وموضعه، في منازل السموات ورفيع الدرجات، عند البيت المعمور، الذي هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور، الذي يدخله كل يوم سبعون ألفًا من الملائكة يتعبدون

فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور " [1].

ونظل نكتب إن شاء الله، ويكتب الكتّاب والمفسرون عن أجر إبراهيم عليه السلام الذي أعطاه الله سبحانه على الإتمام والإكمال معددين كل ما دخل ضمن أجره، ومهما كتبنا وكتب الناس يظل ما كتب غيض من فيض، فلا نحيط به؛ لأنه أجر كما أسلفنا عظيم لرجل عظيم ممن له الأسماء الحسنى سبحانه.

الخليل يبتلى بالبلاء العظيم

أما الابتلاء الثاني: - فهو أمر أمر الله به إبراهيم عليه السلام في أي صورة جاء هذا الأمر؟ وإلى أي درجة أخلص إبراهيم عليه السلام في تنفيذه؟ وما الوسائل وما الحيل التي التمسها إبراهيم عليه السلام للوصول في الأمر لدرجة الإتمام؟ هذا ما سنراه في السطور التالية:

قال تعالى:{وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)} [الصافات: ٩٩ - ١١٣].

التفسير:

يقول تعالى: مخبرًاعن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنه بعدما نصره الله تعالى على قومه وأيس من إيمانهم بعدما شاهدوا من الآيات العظيمة هاجر من بين أظهرهم وقال:{إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ

(1) قصص الأنبياء لابن كثير.

لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾} يعني: أولادًا مطيعين يكونون عوضًا من قومه وعشيرته الذين فارقهم، قال تعالى:{ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾} وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام، وقد ولد ولأبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة{ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ } أي: كبر وترعرع، وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه وقيل: أي شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعي والعمل{ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ } هذا وفي الحديث عن ابن عباس رضى الله عنه مرفوعًا:{**رؤيا الأنبياء في المنام وحي**}، وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه{قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ} أي: امض لما أمرك الله من ذبحي{سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ } أي: سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل، وصدق صلوات الله عليه فيما وعد. قال تعالى:{فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ} أي: فلما تشهدا وذكرا الله تعالى، إبراهيم على الذبح والولد شهادة الموت، وقيل أسلما يعني استسلما وانقادا، إبراهيم امتثل أمر الله تعالى وإسماعيل طاعة لله ولأبيه.{وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ} أي: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه، وقيل: بل أضجعه كما تضجع الذبائح، وبقي طرف جبينه لاصقًا بالأرض فعند ذلك نودي من الله عز وجل{أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ } أي: قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك، ومبادرتك إلى أمر ربك، وبذلك ولدك للقربان{ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ } أي: الاختبار الظاهر المبين، وقوله:{ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ } أي: وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى له من العوض عنه [1].

قال تعالى:{ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ } استدل بذلك على أن الذبيح غيره {نَبِيًّا} حال مقدرة: أي يوجد مقدرًا نبوته{مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ }،{وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ } بتكثير

(1) تفسير ابن كثير، قصص الأنبياء لابن كثير (باختصار).

ذريته{وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ} ولده بجعلنا أكثر الأنبياء من نسله{وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ} مؤمن{وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ} كافر{مُبِينٞ} بيّن الكفر [1].

ورد في مضمون هذه الآيات الكريمات أن إبراهيم الخليل عليه السلام رأى في المنام أنه يذبح ولده إسماعيل عليه السلام، ذلك الغلام الحليم الذي ما رزق به إلا وعمره ست وثمانين سنة بعد شوق ودعاء وابتهال لله سبحانه أن يرزقه إياه، ولكن رؤيا الأنبياء حق، فما رآه إبراهيم عليه السلام في المنام إنما هو وحي من الله إليه بأن يذبح ابنه إسماعيل، كان ذلك هو الأمر، وكانت تلك صورته، أما تنفيذ الأمر فكان بأن أخبر إبراهيم عليه السلام ابنه بالرؤيا، وهو في إخباره بها موافقة منه على تنفيذها، وإلا فلماذا أخبر بها إسماعيل عليه السلام؟ وما جدوى ذلك؟!ويأتي رد إسماعيل عليه السلام البار بأبيه وبرب أبيه بالموافقة على ما يراه والده من تنفيذ أمر الله وتشجيعه عليه واعدًا إياه بأنه سيجده صابرًا إن شاء الله وقت تنفيذ الأمر.

ومما لا شك فيه أن أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه أمر مكروه لإبراهيم عليه السلام من جهة ولابنه من جهة أخرى، فما من أحد يحب أن يذبح ابنه أوغير ابنه، وما من أحد يود أن يذبح على يد أبيه كان هذا الذبح أو غيره، وأن ما أقدم عليه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أمر ضد طبيعة البشر في حب الولد وبذل كل غال ونفيس من أجله، وهو يتنافى في الوقت نفسه وحب الدنيا والتمسك بها ونصيبها من نفس كل من يعيش فيها، ناهيك عن أن إبراهيم عليه السلام كان شيخًا كبيرًا تمنى طويلاً أن يرزق بولد، ودعا الله مبتهلاً كي يحقق له ما تمناه، وأن ابنه إسماعيل عليه السلام غلام حليم بار بوالديه غاية ما يكون البر.

وإذا ما نظرنا لما فعله إبراهيم عليه السلام في ذلك الأمر، وكيف

---

(1) تفسير الجلالين.

تصرف، وما لجأ إليه من وسائل وحيل ومحاولات جادة لتنفيذ ما أمر به، نجد أنه عليه السلام قد أخبر إسماعيل عليه السلام بما رأى، وبعد أن تأكد من موافقة ابنه على الذبح اصطحبه لمكان بعيد حيث لا يمنعه من الناس مانع من تنفيذ الذبح، ثم شرع عليه السلام في التنفيذ بأن ألقى إسماعيل على وجهه ليذبحه من قفاه، أوأن يكون قد أضجعه كما تضجع الذبائح{وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ} وشرع في ذبحه.

ولقد أصر إبراهيم عليه السلام أن ينفذ أمر الله بذبح ابنه بنفسه، فلم يوكل أمر الذبح لأحد غيره ولم يكلف به أحدًا سواه؛ وذلك لأنه رأى في المنام أنه هو الذي يذبح ابنه لا غيره، فعمد إلى تنفيذ ما رأى كما رأى، ولتنفيذ أمر الله سبحانه كما أمر لم ينظر إبراهيم عليه السلام لمغزىالرؤيا فقط مع إهمال تفاصيلها الشكلية، ولكنه فطن لمغزاها مع مراعاة جميع تفاصيلها الدقيقة، وإلا فما المحصلة النهائية للذبح؟ أليست الموت؟ فلماذا لم يختر الخليل أية ميتة لابنه بطريقة لا تشق عليهما؟ لماذا لم يقتله رمية بسهم، أو طعنة برمح، أو ضربة بسيف، أوأن يقتله بالسم أو بغيره؟.

إن إصراره على الذبح إصراره على الإتمام في تنفيذ رؤياه كما رآها بالضبط بحذافيرها، فيلقي بإسماعيل عليه السلام ابنه الحليم الذي تمنى من الله أن يرزقه إياه على الأرض منفذاً لأمر الله، لكنه يخشى أن تتلاقى إبان الذبح نظرتيهما: نظرة الوالد المشفق على ولده المحب له، ونظرة الولد الحليم الخائف من الموت المطيع لله جل وعلا ولوالده، وعندما تتلاقى هاتان النظرتان تحركان في نفس إبراهيم مشاعر الأبوة الحانية فلا ينفذ أمر الله؛ لأنهما سيمثلان عائقًا أمامه، فيلجأ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للحيلة مرة أخرى، فيحتالا على عاطفتيهما ويشير إسماعيل على والده بأن يلقيه ويكبه على وجهة؛ حتى لا يرى وجهه الحبيب إلى قلبه فتتحرك مشاعره، فيعود متراجعًا ممتنعًا عن ذبحه.

لقد كان ذبح الأب لابنه أمرًا مرًا وبلاءً مبينًا من الله سبحانه لخليله. التمس

الخليل وابنه عليهما السلام الحيل لإنفاذه شدا من أزر بعضهما، وشجع كل منهما الآخر؛ ليضمنا أفضل النتائج في تنفيذه بالرغم من أن الأمر نفسه لم يكن أمرًا صريحًا كبناء البيت أو غيره من الأوامر الصريحة التي أمر الله سبحانه بها إبراهيم عليه السلام بل كان مجرد رؤيا منامية رآها إبراهيم عليه السلام، ولأن رؤيا الأنبياء وحي حق، ولأن إخلاص الخليل وابنه عليهما السلام بلغ هذا الحد الذي فاق الحد قاما بما رأيناه في الآيات من محاولات للتنفيذ؛ ليتما ما طلب الله منهما أفضل إتمام.

وعندما يكون الاختبار بهذه القسوة والصعوبة بحيث لا يمكن أن يجتازه إلا المؤمن المحسن الذي يصل إيمانه وإحسانه إلى درجة الامتياز هنا يأتي النجاح لمن يستحقه، فيناديه الله سبحانه{أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ}، وعندئذ يحز إبراهيم عليه السلام جوائز النجاح ومنها مناداة الله له بأنه قد صدق الرؤيا والتي قد أتته أثناء محاولته ذبح ابنه يدلنا على ذلك واو المصاحبة في{وَنَٰدَيۡنَٰهُ} فالمناداة لم تحدث بعد محاولة الذبح ولكنها كانت مصاحبة لها [1].

ومنها: أن الله سبحانه فدى إسماعيل عليه السلام بذبح وصفه سبحانه بأنه عظيم{ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ}.

ومنها: أن الله جل وعلا جعل الثناء باقيًا مستمرًا على إبراهيم عليه السلام تقديرًا من الناس لقيمة صدقه مع الله سبحانه في ذبح ولده بأنه بذلك الصدق فدى أولادهم من الذبح، فسلام على إبراهيم{ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ }.

ومنها: بشره الله بالسلامة والسلام{ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ }، وشهد الله سبحانه له أنه من المحسنين المؤمنين{ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ}.

(1) تفسير الشعراوي.

ومنها: بشره الله بغلام آخر، هو إسحق عليه السلام نبيًا{ وَبَشَّرْنَهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ }.

ومنها: أن الله سبحانه بارك عليه وعلى إسحق عليهما السلام{ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ } كل ذلك الخير والفضل لإبراهيم عليه السلام جائزة من الله له ومكافأة على إخلاصه وصدقه في تنفيذ ما أمره به، والتماسه في التنفيذ ما استطاع من الوسائل والحيل؛ رغبة في الوصول إلى الإتمام ذاكرًا الله جل وعلا لإبراهيم عليه السلام تلك الحيلة في القرآن الكريم{وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ}. كبرهان على صدق الخليل وإصراره على تنفيذ أمر الله، ولو كان على غير مراده.

ولو أنا أرجعنا القول وقلنا إن تكليف الله سبحانه لإبراهيم عليه السلام ببناء البيت الحرام تشريف وأي تشريف، وهل يتاح لأحد مثل هذا الشرف العظيم ثم يتقاعس عن أن يبذل كل ما في وسعه وطاقته لإتمامه وتجويده؟! وهل يمكن أن يعرض على أحد ما عرض على إبراهيم عليه السلام في بناء البيت، ثم تعجزه الحيل أو تضيق به السبل؟!. أما وإن انثنينا لنرى تكليفه عليه السلام بذبح ابنه، والذي هو ابتلاء ما بعده ابتلاء، وكيف نفذه واحتال لتنفيذه عندئذ نعرف ما هو الإخلاص، وكيف يكون، ونرى بحق الطائع من العاصي، المتم لأمر الله بصدق كما أمر - حتى وإن كان هذا الأمرعلى غير مراده - ملتمسًا لذلك كل حيلة، ومبتغيًا إليه كل سبيل، ممن هو من ذلك الأمر في شك يراوغ ويهرب ويحتال على الأمر لا له.

هكذا كانت الحيلة هي معيارالإخلاص وأداته في كل ما ابتلي به إبراهيم عليه السلام ووكل إليه من أمر فيما أحب وكره في المنشط والمكره، وفيما هو عام للناس وفيما خصه الله سبحانه به من تكليف، وكانت في الوقت نفسه دليل الإتمام وأداته، وظل التماس الحيل خلقًا يذكر مع الإخلاص كلما ذكر، ويذكر للإتمام كلما ذكر.

ذو القرنين وأخلاق من أهمها الإتمام

ولنأخذ مثالاً آخر من القرآن الكريم يؤكد تلك الأخلاق وهي (الإخلاص والتماس الحيل من أجل الوصول للإتمام) قبل أن نصل إلى زمن النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم، ولأجل ذلك سنسير في رحلة طويلة بين الصخور والرمال في عمق أغوار الجبال مع ذي القرنين، ولكن فقط بين السدين.

يقول الله تعالى:{حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ﴿٩٨﴾} [الكهف: ٩٣ - ٩٨].

التفسير:

{حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ} وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيثون فيها فسادًا ويهلكون الحرث والنسل؛ ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين:**{إن الله تعالى يقول: يا آدم فيقول لبيك وسعديك فيقول ابعث بعث النار فيقول وما بعث النار؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فقال: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج}**. وقوله{وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا} أي: لاستعجام كلامهم وبعدهم عن الناس{قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا} فهل نجعل لك أجرًا عظيمًا، يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه حتى يجعل بينهم وبينهم سدًا، فقال

ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير{مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ} أي: أن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، ولكن ساعدوني بقوة أي بعملكم وآلات البناء.

{أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ} والزبر جمع زبرة وهي القطعة منه، وهي كاللبنة{حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ} أي: وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضًا، واختلفوا في مساحة عرضه وطوله على أقوال

{قَالَ انفُخُوا} أي أجج عليه النارحتى صار كله نارًا{قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا} وهو النحاس، زاد بعضهم المذاب، ويستشهد بقوله تعالى:{وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ} [سبأ: ١٢]،{فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} يقول تعالى مخبرًا عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا أن يصعدوا من فوق هذا السد، ولا قدروا على نقبه من أسفل، ولما كان الظهورعليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال:{ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا}. أي لما بناه ذو القرنين{قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي} أي بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العبث في الأرض والفساد{فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي} أي: إذا اقترب الوعد الحق{جَعَلَهُ دَكَّاءَ} أي ساواه بالأرض{وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} أي كائنًا لا محالة (1).

تحكي القصة عن ذي القرنين وهو ملك عظيم دانت له الأرض فجاب مشارقها ومغاربها يدعو إلى الله وينشر العدل ويقدم الخير والمساعدة لكل محتاج، وفي طريق رحلته وصل إلى منطقة بين سدين بين جبلين فوجد قريبًا منهما أناس لا يكادون يفهمون قولاً، ويذكر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي - رحمة الله - في تفسيره أن ذا القرنين تفاهم معهم بلغة الإشارة

---

(1) تفسير ابن كثير (بتصرف).

[1]؛ حتى يفهم منهم ما يقولون، ويعلم ما يريدون فعرف شكواهم من يأجوج ومأجوج الذين يسطون عليهم، فيفسدون في أرضهم بالسلب والنهب، وفهم اقتراحهم عليه بأن يجعلوا له خرجًا من مال ليجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدًا منيعًا لا يصلون منه إليهم، فوافق ذو القرنين على مساعدتهم، وقال: ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة لأجعل بينكم وبين هؤلاء المفسدين حاجزًا حصينًا وبدأ العمل بأن طلب منهم أن يحضروا له قطع الحديد، وساوي بين الجبلين بالبناء، ثم أمرهم بأن ينفخوا حتى تضرم النار في الحديد، ثم أفرغ عليه النحاس المذاب، فكان سدًا منيعًا، وردمًا حصينًا لا يستطيع يأجوج ومأجوج أن يظهروه، ولا يستطيعون له نقبًا، ثم يعقب ذو القرنين على ما قدمه لهم من خدمة بإرجاع الفضل لصاحبه سبحانه فيقول:{هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا}.

وتجذبنا القصة وتأسرنا منذ البداية وتشعرنا بالإثارة والتشويق، فبطلها ملك جاب الأرض شرقًا وغربًا وقد مكن الله له فيها، فحمد الله على تلك النعمة بأن قدم العون والإغاثة لكل من لقي في طريقه{ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾} [الحج: ٤١]، ونتوقف معه في رحلته الطويلة في منطقة بين جبلين لنرى قريبًا من تلك المنطقة أناس يعيشون، وقد تلقوا ذا القرنين بشكواهم وبمطالبهم، ولكنهم لبعدهم عن الناس؛ بالكاد يفهمون الكلام، وبصعوبة شديدة وبمعاناة بالغة يتفاهم معهم، ولكن ذلك وإن بدا لغير ذي القرنين حائلاً بينه وبين إتمام خدمتهم، والتمس لنفسه الأعذار في عدم العون والمساعدة قائلاً: " ماعساي أن أقدم لأمثال هؤلاء القوم الذين لا يستطيعون أن يخدموا أنفسهم، فيبدون ويفصحون عما يريدون أن أساعدهم فيه، وما دام الأمر كذلك فليذهبوا إلى الجحيم، ولأتركنهم

(1) تفسير الشعراوي.

ليبقوا لقمة سائغة ليأجوج ومأجوج يفسدون في أرضهم ما شاءوا وينهبون ويبغون كما أرادوا{لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ} [آل عمران: ٧٥].

ولكن ذا القرنين لم يكن كغيره إذ لم يمثل عدم فهم هؤلاء القوم للكلام، وصعوبة التفاهم معهم عقبة أمامه، ولم يكن ذلك مانعًا له من مساعدتهم وإغاثتهم، فقد احتال أن يفهم منهم شكواهم، وما يعكر عليهم صفو حياتهم بما يصيبهم من أذى من يأجوج ومأجوج وشعر بآلامهم، وحقق لهم آمالهم بتنفيذ اقتراحهم الذي اقترحوه عليه، وهو أن يجعل بينهم وبين أولئك المفسدين سدًا، ملتمسًا لذلك ما استطاع من حيل لفهم كلامهم والتفاهم معهم؛ فاتخذ اللغة العالمية المشتركة بين جميع الناس لغة الإشارة أداة للتواصل بينه وبينهم، وعندما عرف منهم ما أرادوا بدأت المسارعة إلى الخير والمبادرة إليه ببذل كل ما مكنه الله تعالى من مال وفكر وجهد؛ لتنفيذ ما أرادوا{وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ} [التوبة: ٤١] مشترطًا عليهم فقط أن يعينوه بقوة في البناء واعدًا إياهم أن يجعل بينهم وبين أعدائهم لا سدًا كما أرادوا، وإنما ردمًا منيعًا أعظم مما تمنوا واقترحوا، وبالفعل يبدأ العمل الخيري التطوعي الجماعي بكل تفاعلاته، بكل جد وقوة، ودور ذي القرنين فيه مصممًا، ومهندسًا، ومشرفًا عامًا على البناء، وعاملاً يده بيدهم في إنجاز العمل، فنسمع أمره لهم بأن يأتوه بقطع الحديد ولبناته، فيضع بعضها فوق بعض من الأساس حتى يحاذي به رؤوس الجبلين طولاً وعرضًا، ثم يأمرهم أن ينفخوا حتى تؤجج عليه النار ليصير منصهرًا، ثم يأمرهم بالنحاس المذاب فيفرغه على قطع الحديد، وبهذا يكون قد بنى السد وأقام الردم الذي وعدهم به، والذي به يحتمون من يأجوج ومأجوج فلا يستطيعون أن يصعدوه ويظهروه لملاسته وارتفاعه، ولا يستطيعون أن ينقبوه ويخرقوه لصلابته وتماسكه، وهكذا يسلم القوم من شرهم وأذاهم.

لقد بنى ذو القرنين لهؤلاء القوم عجيبة من عجائب الدنيا التي لا يؤثر فيها

زلازل الأرض وبراكينهـا، ولا رعـود السـماء وبروقهـا، ولا دخـات الأمطار وهطلاتها، ولا الرياح العواصف واجتياحاتها، ولا يفت اختلاف الليل والنهار في عضدها، إنها عجيبة باقية لا ينقضها إلا وعد الله الحق، فهو القادرعلى هدم ذلك الردم وجعله دكاء كأن لم يغن بالأمس، وأما سواه فلا، وإلى أن يحين ذلك اليوم، ويأتي ذلك الوعد يبقى بناء ذي القرنين قويًا شامخًا، ويبقى هؤلاء القوم ينعمون بالأمان والاطمئنان في ظله، ولتظل الحيلة التي احتالها ذوالقرنين والوسيلة التي اتخذها هي المفتاح الذي به توصل لحل شفرة الإعجام في كلام أولئك القوم، وتظل الحيلة شاهدًا على صدق ذي القرنين ونبل غايته وإخلاصه في مساعدته لهؤلاء القوم بكل ما أوتي من جهد بكل ما تحمل كلمة جهد من معنى، وتظل تشهد له بالإتمام في كل ما طلب منه بأكثر مما طلب منه.

وقبل أن نترك ذا القرنين وردمه الخالد نستطرد ببعض النقاط حيث إن في قصته من فوائد ما لا يمكن أن يمر عليها مرورًا عابرًا، ولكن لابد من الالتفات إليها بكثيرمن الاهتمام والمراعاة.

فوائـد:

وتلك الفوائد مما لا تحصى أو تحصر في هذا المقام أو في غيره لكثرتها وعظمتها وإنما نذكر منها: -

1 - شكوى الظالم لظلمه وإفساده في الأرض وذلك لدرء مفاسده ومنعه عن ظلمه{إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ}.

2 - طلب الغوث من أهله وعرض الحاجة أمام من يستطيع أن يفي بسدها{فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا}.

3 - المسارعة إلى إغاثة المنكوبين وإجابة المضطرين وتفريج كربتهم؛ لأن ذلك محمود عند الله مضمون ثوابه وجزاءه{قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ} ونلمس مسارعة ذي القرنين إلى تلبية دعوة القوم من الفاء في الفعل أعينوني التي تدل على السرعة، فهو لم يؤجل المساعدة أو

يسوف فيها، ولقد كان هذا خلق للنبي صلى الله عليه وسلم شهدت له به زوجه خديجة بنت خويلد رضى الله عنها حين قالت مطمئنة له عندما جاءها من الغار فزعًا من رؤية الملك: " كلا، والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق " [1].

وذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الخلق حامدًا صاحبه واعدًا إياه بالخير العظيم يوم القيامة، وذلك حين قال صلى الله عليه وسلم :**{من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا في الدنيا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه}** [2].

4 - ألا يألو الإنسان جهدًا أو يدخر وسعًا في المساعدة وإنما يقدم كل ما وسعه من مال وفكر وجهد{مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي} فلقد قدم ذو القرنين ما يستطيع أن يقدمه مما أعطاه الله من مال، وجاهد معهم بنفسه، فساعدهم عقليًا حين أعمل عقله فأنتج لهم فكرة هي أفضل من فكرتهم، فقد اقترحوا عليه أن يبني لهم سدًا، فبنى لهم ردمًا ليكون أمتن وأبقى، وجاهد معهم جسديًا عندما ساعدهم بالمجهود البدني، فبنى معهم، أو بنوا هم معه سدًا بالحديد والنار، واحتمل كل تعب ومشقة من أجل مساعدتهم.

5 - ألا يستأثر الإنسان بالعمل الخيري، ويرفض المساعدة فيصبح العمل شاقًا عليه من جهة ضعيفًا واهيًا غير ذي جدوى من جهة أخرى{فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ} فقد طلب ذو القرنين من هؤلاء القوم العمل معه لبناء ذلك الردم؛ لأنه حينما يشترك المحتاج ومساعده يصبح العمل الخيري يسيرًا على القائمين به من جهة عظيمًا ثابتًا عميم النفع والفائدة من جهة أخرى{يَدُ ٱللَّهِ

(1) صحيح البخاري.
(2) أخرجه مسلم.

فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ } [الفتح: ١٠]، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم :{**يد الله مع الجماعة**} [1].

هذا وأن مشاركة المحتاج في العمل الخيري توفر له الاطمئنان والأمان؛ لأنه شارك فيه ورأى مجمله وتفصيلاته الدقيقة، فيصبح عنده القدرة على القيام بالعمل بمفرده في حالة غياب المساعد أو تقاعسه أو فقدانه وكما تقول الحكمة: " خير للمحتاج من أن تعطيه سمكة أن تعلمه كيف يصيد أفضل ".

6 - أن يكون لأهل العلم والخبرة الكلمة العليا واليد الطولى في العمل الخيري؛ لأنهم هم الأقدر على القيام به، فيكون لهم فيه الأمر والنهي والإشراف العام، وهذا ما يؤكده قول ذي القرنين يأمر هؤلاء الناس قائلاً: {ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ}،{ٱنفُخُواْ}،{ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا}، بالإضافة إلى ما يقوم به من الإشراف العام على بناء السد، فهو الذي يساوي بين الصدفين، وهو الذي يجعل الحديد نارًا، وهو الذي يفرغ القطر على الحديد {حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ}،{حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا }،{ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا}، ولا ضير في أن يقبل القائد اقتراح المقترحين تحت إمرته إن كان لها وجاهتها كما حدث مع النبي صلى الله عليه وسلم في بدر حينما أشير عليه أن يغير موقع القتال، فقبل تلك المشورة وأخذ بها صلى الله عليه وسلم.

7 - أن يهتم مقدم الخير بالعمل ككل بأجزائه الكبيرة وجزئياته الصغيرة، فذو القرنين هو صاحب فكرة بناء الردم، وهي الفكرة الأولى التي قام عليها المشروع بأكمله نجده يساعد في البناء كأصغر عامل.

8 - أن يهتم المساعد بالعمل الخيري من نقطة بدايته حتى نقطة نهايته، ولا يتركه إلا وقد أتمه إتمامًا كاملاً، فذو القرنين أول من بدأ المشروع

---

(1) صحيح الجامع.

بفكرة الردم التي أنتجها، ثم استمر في العمل حتى انتهى منه وبنى ما أراده والقوم، وأتمه، ثم عينه وأشار إليه قائلاً:{هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي}.

9 - أن يراعي مقدم الخدمة الإتقان في كل جزئية من جزئيات العمل حتى يتم العمل على أفضل وأحسن حال قال صلى الله عليه وسلم :**{إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه}** [1].

10 - أن يعلم الإنسان الذي يقدم خدمة للناس أن الله قد منَّ عليه واختاره لأن يقوم بها ووفقه إليها، وهذا فضل من الله ونعمة ساقهما إليه، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{الخلق كلهم عيال الله، فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله}** [2] وعنه صلى الله عليه وسلم قال:**{خير الناس أنفعهم للناس}**، فيجب على مقدم الخدمة أن يحمد الله على هذه النعمة ويشكره على فضله وامتنانه في التوفيق إليها.

11 - إن التوفيق في عمل الخير لا يقل عن التوفيق له، فعلى فاعل الخير أن يطلب التوفيق من الله جل وعلا في حال كونه باذلاً الخير.

12 - اعتراف مقدم الخير لله سبحانه أولاً الذي هو أعلم بالسرائر، ثم لنفسه وللناس ثانيًا بصدق وإخلاص إن ما فعله إنما هو رحمة من الله له، وفضل ساقه إليه ورحمة من الله بهم، ونعمة ومنة أنعم وامتن بها عليهم {قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا}.

النبي صلى الله عليه وسلم **والإتمام**

ونعود للخلق موضوع المبحث، فنقول: أنا إذا أردنا أن نستشهد من سنة المصطفى على فكرتنا التي نحن بصددها في هذا المقام، ونذكر للنبي صلى الله عليه وسلم ما ذكرناه لإبراهيم عليه السلام والصالحين من بعده من شواهد تؤكد له خلق الإتمام علينا قبل ذلك أن نستطرد مع الخلق

(1) صحيح الجامع.

(2) رواه البزار والطبراني في معجمه.

الموصل إليه ألا وهو التماس الحيل والاستعانة بكافة السبل المشروعة، وأن تلك الحيل وهاتيك السبل لهي البرهان على الإخلاص والإتمام.

فنجد في طريق بحثنا عن هذا الخلق في السيرة النبوية أن في تاريخ الإسلام غزوة سميت باسم الحيلة التي التمست فيها، والتي كانت سببًا رئيسًا في إتمام النصر للمسلمين إنها غزوة الخندق التي كانت بدايتها خروج عشرين رجلاً من زعماء اليهود وسادات بني النضير إلى قريش بمكة، يحرضون على غزو الرسول صلى الله عليه وسلم، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، ثم خرج هذا الوفد إلى غطفان فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشًا فاستجابوا لذلك، ثم طاف الوفد في قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك، فاستجاب له من استجاب، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفرعلى النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته والمسلمين.

واتجهت هذه الأحزاب نحوالمدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه، وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عرمرم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل. جيش ربما يزيد عدده على جميع من في المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ، ولم تكد تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها فيها بهذا الزحف الخطير.

وسارع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عقد مجلس استشاري أعلى تناول فيه موضع خطة الدفاع عن كيان المدينة، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى، اتفقوا على قرار قدمه الصحابي النبيل سلمان الفارسي رضى الله عنه قال سلمان: يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك، وأسرع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تنفيذ الخطة، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعًا، وقام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحثهم

ويساهمهم في عملهم هذا، وينقل تراب الخندق مرتجزًا بكلمات بن رواحة:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ::: ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ::: وثبت الأقدام إن لا قينا
إن الألى رغبوا علينا ::: وإن أرادوا فتنة أبينا

وكان المسلمون يعملون بهذا النشاط وهم يقاسون من شدة الجوع، ما يفتت الأكباد رابطين على بطونهم حجارة من شدة الجوع، وواصل المسلمون عملهم في حفر الخندق، فكانوا يحفرونه طول النهار، ويرجعون إلى أهليهم في المساء، حتى تكامل الخندق حسب الخطة المنشودة، قبل أن يصل الجيش الوثني العرمرم إلى أسوار المدينة، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثة آلاف من المسلمين، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سلع فتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الكفار، وكان شعارهم " هم لا ينصرون " واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأمر بالنساء والزراري فجعلوا في آطام المدينة.

ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة، وجدوا خندقًا عريضًا يحول بينهم وبينها، فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم، إذ كانت هذه الخطة - كما قالوا - مكيدة ما عرفتها العرب، فلم يكونوا أدخلوها في حسابهم رأسًا.

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضابًا، يتحسسون نقطة ضعيفة؛ لينحدروا منها، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين، ويرشقونهم بالنبل، حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه، ولا يستطيعوا أن يقتحموه، أو يهيلوا عليه التراب، ليبنوا به طريقًا يمكنهم من العبور، ودامت محاولة العبور من المشركين، والمكافحة المتواصلة من المسلمين أيامًا، إلا أن الخندق لما كان حائلاً بين الجيشين لم يجر بينهما قتال مباشر

بل اقتصروا على المراماة والمناضلة.

وبينما كان المسلمون يواجهون هذه الشدائد على جبهة المعركة كانت أفاعي الدس والتآمر تتقلب في جحورها، تريد إيصال السم داخل أجسادهم. انطلق كبير مجرمي بني النضير إلى ديار بني قريظة، فأتى كعب بن أسد القرظي - سيد بني قريظة، وصاحب عقدهم وعهدهم، وكان قد عاقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن ينصره إذا أصابته حرب. فما زال حيي كبير مجرمي بني النضير بسيد بني قريظة حتى نقض عهده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبريء مما كان بينه وبين المسلمين، ودخل مع المشركين في المحاربة ضد المسلمين، وفعلاً قد قامت يهود بني قريظة بعمليات الحرب.

وقد كان أحرج موقف يقفه المسلمون، فلم يكن يحول بينهم وبين قريظة شيء يمنعهم من ضربهم من الخلف، بينما كان أمامهم جيش عرمرم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه، وكانت ذراريهم ونساؤهم بمقربة من هؤلاء الغادرين في غير منعة وحفظ، وصاروا كما يقول الله تعالى: { إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا } [الأحزاب: ١٠ - ١١].

ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى قال: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. وحتى قال بعض آخر في ملأ من قومه: إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا أن نخرج، فنرجع إلى دارنا، فإنها خارج المدينة، وفي هؤلاء أنزل الله تعالى: { وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا } [الأحزاب: ١٢ - ١٣].

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقنع بثوبه حين أتاه غدر قريظة، فاضجع ومكث طويلاً، حتى اشتد على الناس البلاء، ثم غلبته روح الأمل، فنهض يقول: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره، ثم أخذ يخطط لمجابهة الظرف الراهن، وكجزء من هذه الخطة كان يبعث الحرس إلى المدينة؛ لئلا يؤتى الذراري والنساء على غرة، ولكن كان لا بد من إقدام حاسم، يفضي إلى تخاذل الأحزاب، وتحقيقًا لهذا الهدف أراد أن يصالح رئيسي غطفان على ثلث ثمار المدينة؛ حتى ينصرفا بقومهما، فاستشار السعدين في ذلك فقالا: يا رسول الله إن كان الله أمرك بهذا فسمعًا وطاعةً، وإن كان شيء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، فصوب رأيهما وقال: إنما هو شيء أصنعه لكم، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة.

ثم إن الله عز وجل - وله الحمد - صنع أمرًا من عنده خذل به العدو وهزم جموعهم وفل حدهم، فكان مما هيأ من ذلك أن رجلاً من غطفان يقال له: نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي رضي الله عنه جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني ما شئت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة}**، فذهب من فوره إلى بني قريظة وكان عشيرًا لهم في الجاهلية - فدخل عليهم وقال: قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت. قال: فإن قريشًا ليسوا مثلكم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فإن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمدًا فانتقم منكم. قالوا فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش، وقال لهم تعلمون ودي لكم ونصحي لكم؟ قالوا: نعم. قال: إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان، فقال لهم مثل ذلك.

فلما كان ليلة السبت من شوال - سنة 5هـ - بعثوا إلى يهود أنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكراع والخف، فانهضوا بنا حتى نناجز محمدًا، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن. فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان: صدقكم والله نعيم، فبعثوا إلى يهود: إنا والله لا نرسل إليكم أحدًا، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمدًا فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم. فتخاذل الفريقان، ودبت الفرقة بين صفوفهم، وخارت عزائمهم.

وكان المسلمون يدعون الله تعالى " اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا "، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب، فقال:{**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب اللهم اهزمهم وزلزلهم**} [1].

وقد سمع الله دعاء رسوله والمسلمين، فبعد أن دبت الفرقة في صفوف المشركين وسرى بينهم التخاذل، أرسل الله عليهم جندًا من الريح، فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قدرًا إلا كفأتها، ولا طنبًا إلا قلعته، ولا يقر لهم قرار، وأرسل جندًا من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف.

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحال، وقد تهيؤوا

---

(1) صحيح البخاري.

للرحيل، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رد الله عدوه بغيظه لم ينالوا خيرًا، وكفاه الله قتالهم، فصدق وعده، وأعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فرجع إلى المدينة، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أجلى الله الأحزاب:**{الآن نغزوهم لا يغزوننا، نحن نسير إليهم}** [1].

كانت تلك هي غزوة الخندق (الأحزاب)، والتي كان الانتصار فيها مرتكزًا بإرادة الله ومشيئته على ركائز عدة من أهمها: ركيزتان أساسيتان هما في الأصل حيلتان ذكيتان لصحابيين جليلين ألمعيين، فأما أحدهما وأولهما فهو رجل مبارك من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. إنه سلمان الفارسي رضى الله عنه عندما اقترح على رسول الله صلى الله عليه وسلم حفرالخندق حول المدينة لحمايتها من الأحزاب، ذاكرًا ما كان الفرس يفعلون في مثل هذه الظروف، وتلك الأحوال، " يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا ".

وهو بهذه الحيلة قد درأ رحى الحرب أن تدور في المدينة، وحمى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مهاجرين وأنصار ونسائهم وذراريهم من شرها، وأما ثاني الصحابيين، فهو رجل ذو دهاء وذكاء وحنكة إنه نعيم بن مسعود الأشجعي رضى الله عنه حين خذل عن المسلمين، وفت في عضد المشركين واليهود، وأضعف شوكتهم بما أحدثه داخل صفوفهم من بلبلة وارتباك، وغرس فيهم الفتنة، فكان لما قام به الأثر الكبير في سرعة إجلائهم عن حصار المدينة.

كانت حيلتي هذين الصحابيين الجليلين من أهم الأسباب التي قدرها الله، وأذن بها، ويسرها لإتمام النصر في غزوة الأحزاب، هذا بالإضافة إلى

---

(1) الرحيق المختوم.

ما تفضل به سبحانه من إرسال ريح وملائكة فعلوا بالأحزاب فعلهم، حتى قالوا بلسان الحال والمقال: لا مقام لنا فسنرجع أدراجنا إلى مكة منهزمين متخاذلين. وقد وقر في نفوسهم أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنمو في المدينة لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتي بجمع أقوى مما أتت به في الأحزاب؛ لذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم حين أجلى الله الأحزاب:{**الآن نغزوهم لا يغزوننا، نحن نسير إليهم**} [1].

بهذين الصحابيين العبقريين الفذين، وحيلتيهما الموفقتين جنب الله سبحانه المسلمين قتالاً مريرًا وحربًا ضروسًا كان يخشى أن تستأصل شأفتهم؛ ولهذا فليس غريبًا أن تسمى الغزوة بالخندق إشارة إلى الحيلة التي جنبت المسلمين الحرب، وكفاهم الله تعالى بها القتال، وليس غريبًا أن يرحب النبي صلى الله عليه وسلم بفكرة الخندق، وينفذها هو وأصحابه بكل ما أوتوا من قوة وجهد متغلبين على ما أصابهم من جوع وخوف وقلق، وقلة في العدد والعدة عاقدين عليها الأمل بإذن الله في النصر، وليس غريبًا أيضًا أن يرحب النبي صلى الله عليه وسلم بأية حيلة من شأنها أن تخذل عن المسلمين، وتدفع عنهم السوء، وتجلب لهم النصر، وكان حقًا على الله سبحانه أن ينصرهم{وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧].

هكذا كان إخلاص النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في االدفاع عن دعوتهم والحرص على مدينتهم وأعراضهم وذراريهم بكل ما أوتوا من قوة، وفي ذلك التمسوا ما استطاعوا من وسائل واحتالوا بما قدروا عليه من حيل، فكان الإتمام هو هدية الله تعالى لهم إذ أتم الله سبحانه لهم ما أرادوا، فحمى مدينتهم، وحفظ أعراضهم وذراريهم، وهزم الذين تجمعوا لحربهم.

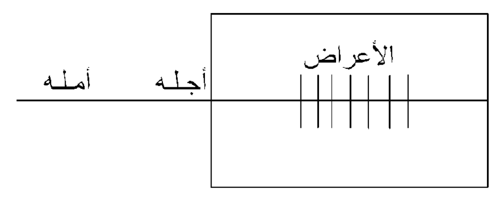
---

(1) الرحيق المختوم.

وتقف الحيلة بكل أنماطها لتصل الإخلاص بالإتمام ولتشكل حلقة هامة، وخلقًا عظيمًا من أخلاق عظيمة ثلاثة، ويظل خلق التماس الحيل هو الخلق الذي يربط بين خلقين كريمين هما الإخلاص والإتمام.

الإتمام بغيته صلى الله عليه وسلم **في كل أمر**

هذا ولم يكن لجوء النبي صلى الله عليه وسلم إلى التماس الحيل، وابتغاء الوسائل بغية الإتمام، ودليل الإخلاص قاصرًا فقط على المواقف الجسام والأمور العظام، وإنما كان ذلك ديدنه صلى الله عليه وسلم في الأمور كلها صغيرها وكبيرها يسيرها وجليلها، في الحرب وفى السلم ما وجد إلى ذلك سبيلاً، فنراه صلى الله عليه وسلم يشرح ذات يوم لأصحابه حال الحياة الدنيا، وأعراضها الفانية، وفعلها بالإنسان، وأجله المقدر له فيها، وأمله المرجو منها، فيروي عنه ابن مسعود رضى الله عنه فيقول: خط النبي صلى الله عليه وسلم خطًا مربعًا، و خط خطاً في الوسط خارجًا منه، وخط خططًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط فقال:{**هذا الإنسان، وهذا أجله محيطًا به أو أحاط به – وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا، نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا**} [1].



الإنسان

نرى في هذا الحديث الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم يستعين لتوضيح فكرته، وترسيخها في نفوس أصحابه والمسلمين من بعدهم برسم

(1) رواه البخاري.

تخطيطي توضيحي، متخذًا من الأرض وسيلة تعليمية يخط عليها، شارحًا موضحًا كل أجزاء المسألة مشيرًا إلى تفاصيلها وجزئياتها واحدة واحدة، فهذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، وهذا الذي هو خارج أمله، والخطط الصغار هي الأعراض، والأمل والأجل والأعراض في سباق للنيل من الإنسان، فإن أخطأه واحد منهم لم يسلم من أن ينهشه الآخر.

وبالفعل فقد آتت هذه الوسيلة أكلها في إتمام وصول الفكرة التي أراد النبي صلى الله عليه وسلم إيصالها، فما أن تذكر الإنسان وأمله وأجله وأعراض الدنيا حتى تذكر الرسم التخطيطي الذي رسمه النبي صلى الله عليه وسلم، وما أن تذكر رسم النبي صلى الله عليه وسلم التخطيطي حتى تذكر كل جزئياته وتفاصيله متمثلة في خطوطه، فتذكر الإنسان وأمله وأجله والأعراض.

وإذا كانت هذه الوسيلة قد أكدت على إخلاص النبي صلى الله عليه وسلم في إيصال فكرته فقد أكدت في الوقت نفسه على إتمام إيضاح الفكرة وألصقتها بأذهان المتعلمين وخواطر السامعين المعتبرين، فبلغت من نفوسهم مبلغها، فما كان لنا بعد عن تلك الوسيلة غنى.

وسائل الإتمام لدى صحابته صلى الله عليه وسلم

وتستمر سنة احتيال الحيل وابتغاؤها وطلب الوسائل والتماسها دليلاً على الإخلاص والإتمام خلقًا واضح القسمات عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد روى الماجشون عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان " إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداث فاستشارهم لحدة عقولهم "[1].

إن بحث عمر عن الأفكار الجيدة الجديدة والآراء الموفقة السديدة لم يتوقف فقط على أهل الحنكة والخبرة وكفى بل كان يلتمسه كذلك عند أهل

(1) عبقرية عمر.

الحدة والنشاط ممن يناقضون أولئك في الشعور والتفكير، فلربما وجد عندهم من غريب الحيل والأفكار ما يحل به المشاكل العويصة، ويستكشف به أغوارها العميقة [1] وذلك دليلاً على إخلاصه ورغبته في إتمام كل ما ليس ميسر إتمامه، وإن ما لجأ إليه عمر رضى الله عنه من حيلة هو ما يسمى في عصرنا الحديث (بالعصف الذهني)، فحينما تكون المشكلة غير معتادة، ويكون الأمر معضل حينئذ يلزمه حل غير معتاد يوجد عند أناس هم في الغالب أبعد ما يكونون عن الاعتياد في أمزجتهم وأفكارهم ووجداناتهم هم الأحداث من الشباب.

وفي حياتنا اليومية العادية يحاول كل منا الحصول على ما فيه منفعته إن كان الأمر سهلاً ميسرًا، وإذا تعذر الوصول إلى ما يريد التمس لذلك السبل، واحتال له الحيل حتى يتحقق له ما يريد، هذا إن كانت كما ذكرنا مصلحة شخصية، أومنفعة خاصة، ولكن الأمر يختلف إذا كان خاصًا بغيره، ونافعًا لسواه، فإن ساعدته الظروف وحُسن الحظ أتى الأمر وأداه، وأما إذا كان الأمرعلى غير ذلك، ووجد أمامه صعوبات وعقبات ترك الأمر برمته عند أول عقبة تقابله، واحتال على الأمر لا له ملتمسًا لنفسه الأعذار مطمئنًا لما بقي عنده من ضمير، ومهدئًا لنفسه اللوامة، يقول بلسان حاله: " لو كان الأمر في استطاعتي ما تأخرت، لكن ليس باليد حيلة "، وفي الحقيقة أنه قلما يجد الإنسان الطريق معبدًا خاليًا من الأشواك والعقبات، وعلى الإنسان الذي ابتغى الإخلاص سبيلاً، والإتمام غايةً أن يلتمس تعبيد هذا الطريق وتمهيده، ونزع أشواكه، وإزالة عقباته، وليكن صبورًا كيسًا فطنًا يستعن بالله ولا يعجز سواء أكانت هذه المصلحة وتلك المنفعة له أو لغيره، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :**{لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه}** [2]، وليلتمس كل وسيلة

---

(1) عبقرية عمر.

(2) متفق عليه.

وليستخدم كل حيلة مشروعة للوصول إلى الإتمام؛ لأن الإخلاص والإتمام قد ارتبطا دائمًا وأبدًا بالتماس الوسائل، وابتغاء الحيل.

فعلى من أراد أن يتم عمله كما أتم الأولون عملهم وشهد الله لهم بهذا، على من أراد تلك المنزلة وذلك الشرف أن يبذل جهده منتجًا أفكارًا وحيلاً ووسائل مشروعة لحل ما يقابله من مشكلات، والتغلب على ما يقابله من عقبات واضعًا نصب عينيه حيلاً ومحاولات وابتكارات واختراعات قام بها الصالحون من عباد الله ممن لنا فيهم الأسوة الحسنة، فأتموا ما كلفوا به على أحسن وجه، وشكر الله جل وعلا لهم جهدهم، وجزاهم عليه خير الجزاء، وعلى ذلك الإنسان الذي يخطب ود الله سبحانه، ويبتغي رضاه أن يتدبر آيات كتاب الله تعالى، ومنها آيتان حثتا على ابتغاء الوسائل، والتماس السبل، وابتكار الحيل كطريق للإتمام، والفوز برحمة الله تعالى، والأمن من عذابه.

قال الله تعالى:

{ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾} [المائدة: ٣٥]، وقال جل من قائل: { أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾} [الإسراء: ٥٧].

أيوب عليه السلام ييسر له الإتمام

أما وإنا قد ذكرنا الحيل فلا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر حيلة أهداها الله سبحانه العلي القدير لأحد عباده الصابرين الصالحين النبي أيوب عليه السلام.

قال تعالى:

{وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا

وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾} [ص: ٤١ - ٤٤].

التفسيــر:

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب عليه الصلاة والسلام، وما كان ابتلاه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليمًا سوى قلبه، ولم يبق له من الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحوًا من ثماني عشرة سنة، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا، فسلب جميع ذلك حتى آل به الحال إلى أن ألقي على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته رضى الله عنها فإنها كانت لا تفارقه صباحًا مساءً إلا بسبب خدمة الناس ثم تعود إليه قريبًا، فلما طال المطال، واشتد الحال، وانتهى القدر، وتم الأجل المقدر تضرع لرب العالمين وإله المرسلين فقال{أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ} وفي هذه الآية الكريمة قال{وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} قيل بنصب في بدني، وعذاب في مالي وولدي، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين وأمره أن يقوم من مقامه، وأن يركض الأرض برجله ففعل فأنبع له الله تعالى عينًا وأمره أن يغتسل منها فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر فأنبع له عينًا أخرى، وأمره أن يشرب منها، فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء، وتكاملت العافية ظاهرًا وباطنًا، ولهذا قال تبارك وتعالى:{ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}.

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:{**إن نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به كانا**

يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين. قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب عليه الصلاة والسلام: لا أدري ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا في حق. قال وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله تبارك وتعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام أن{ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ} فاستبطأته فالتفتت تنظر، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى؟ فوالله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحًا. قال: فإني أنا هو. قال وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض} هذا لفظ ابن جرير رحمه الله.

وقال الإمام أحمد [1] حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :{بينما أيوب يغتسل عريانًا خر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو في ثوبه فناداه ربه عز وجل: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال عليه الصلاة والسلام: بلى يارب ولكن لا غنى بي عن بركتك} انفرد بإخراجه البخاري من حديث عبد الرزاق به، ولهذا قال تبارك وتعالى:

{وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ} قال الحسن وقتادة أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم. وقوله عز وجل {رَحۡمَةٗ

(1) المسند.

مِّنَّا} أي بـه علـى صبره وثباتـه وإنابتـه وتواضـعه واستكانته{وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ} أي لـذوي العقـول؛ ليعلمـوا أن عاقبـة الصـبر الفـرج والمخـرج والراحة. وقوله جلت عظمته:{ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ} وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته، ووجد عليها في أمر فعلته، قيل: باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه فلامها على ذلك، وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة، وقيل لغير ذلك من الأسباب فلما شفاه الله عز وجل وعافاه ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب، فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضغثًا وهو الشمراخ فيه مائة قضيب فيضربها، به ضربة واحدة، وقد برت يمينه، وخرج من حنثه، ووفى بنذره، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه، ولهذا قال جل وعلا:{إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ} أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه{نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ} أي: رجاع منيب، ولهذا قال جل جلاله:{وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾} [الطلاق: ٢ - ٣] واستدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على وسائل في الأيمان وغيرها، وقد أخذوها بمقتضاها والله أعلم بالصواب [1]، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الأيمان، وصدروه بهذه الآية الكريمة، وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب والله أعلم بالصواب [2].

وشاهدنا من الآيات الكريمات هو قول الله عز وجل لأيوب عليه السلام{ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ}، والتي كانت حلاً لقسم أيوب عليه السلام ونذره أنه إن شفاه الله ليضربن امرأته مائة سوط على شيء فعلته، كما ذكر المفسرون واختلفوا في ذلك السبب الذي أوجب عليها من

(1) تفسير ابن كثير.
(2) البداية والنهاية لابن كثير.

أيوب أن يقسم أن يضربها، ولكن المرأة لا تستحق منه ذلك وهي الصابرة معه على البلاء الشديد من فقد الولد والمال، وعلى القيام بأمره وخدمته ومداواته، والعمل من أجل أن تنفق عليه وعلى نفسها.

لكن أيوب عليه السلام أقسم أن يضربها مائة سوط إن هو قد شفاه الله، وها هو قد شفي وعوفي بإذن الله، فكيف يبر بقسمه ويفي بنذره؟ ألا من حل ينجي صاحب القسم ذلك العبد الصابر المحتسب الأواب، ويتم له ما نوى عليه، وينجي في الوقت نفسه المقسم عليها تلك المرأة الصابرة المجاهدة البارة؟

بلى هناك حل، إنها حيلة أفتى الله عز وجل بها أيوب عليه السلام وبها تحل تلك العقدة المتشابكة، والمشكلة الشائكة، وهذه الحيلة التي أوردها الله سبحانه هي من أدق وأرق وألطف وأطرف الحيل، وهي على قدر بساطتها على قدر عظمتها؛ وذاك لأنها من خالق عظيم سبحانه.

فقد حل الله القدير مشكلة أيوب وزوجه بمنه وكرمه حينما قال سبحانه جل وعلا لأيوب{ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ } هو ذا الحل أن يأخذ أيوب عليه السلام ضغثًا، والضغث هو كل ما جُمع وقبض عليه بجمع الكف [1] من حشيش ونحوه كأن يكون حزمة من نبات البرسيم أو الأرز أو ما شابه ذلك من نبات الأرض الذي لا يؤذي الضرب به، وليضرب بها زوجه ضربة واحدة كما أقسم ونذر، فيكون بهذا قد بر بقسمه، وخرج من الحنث باليمين بدون أن يؤذي تلك المرأة الوفية الصابرة المجاهدة الحبيبة زوجته.

هكذا أتم الله تعالى حل المشكلة بالحيلة لا بسواها غير أنها حيلة عظيمة من رب عظيم سبحانه. ومن الفوائد التي تؤخذ من تلك الحيلة الدقيقة اللطيفة: مراعاة الله سبحانه نفع الطرفين، وعدم إيذاء أي منهما، فأيوب

---

(1) المعجم الوجيز.

عليه السلام لم يحنث في قسمه، ويتحمل وزر الحنث باليمين في حالة استطاعته إبرار القسم، وامرأته لم تؤذ بضرب السياط، ولم تذق ألم الجلد، وإن كانت قد ضربت بالفعل.

والفائدة الثانية: تأكيد الله سبحانه لخلق الصدق، فأيوب عليه السلام بالحيلة قد أبر بقسمه كما أراد له الله سبحانه وأراد هو وأقسم، والمرأة ضربت كما أقسم أيوب عليه السلام، وهذان هما شرطا أي حيلة نافعة صالحة أن يراعى فيها عدم الإيذاء أو الضرر لأحد عند الأخذ بها والاعتماد عليها في مسألة من المسائل، والشرط الثاني هو أن يراعى فيها الصدق فلا تحتمل كذبًا أو تعتمد عليه، أو يدخل فيها خداع أو تغرير، ثم يبين الله سبحانه وتعالى سبب إفتاء أيوب عليه السلام بتلك الحيلة ذلك أنه عبد صابر أواب{إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ }، فأيوب عليه السلام وأمثاله من الناس الصابرين الأوابين هم الذين يستحقون أن يلهمهم الله سبحانه أمثال تلك الحيل النافعة الدقيقة اللطيفة المنجية، ولقد كان إلهام الله جل وعلا لأيوب عليه السلام بتلك الحيلة إرادة منه سبحانه على إتمام ما عزم عليه أيوب وأقسم على تنفيذه؛ وذلك لعلمه تعالى بإخلاصه عليه السلام.

ونعود لنرى تلك السلسلة من الأخلاق الكريمة المترابطة المتصلة، والتي من أي الثلاث بدأتها لن تجد سواهم (الإخلاص - احتيال الحيل - الإتمام).

أصحاب السبت يحتالون للإنقاص

وقبل أن نترك خلق احتيال الحيل والتماس الوسائل بغية الإتمام ودليلاً على الإخلاص لابد، وأن نذكر أن على الطرف الآخر، في أقصى اليسار في الاتجاه المعاكس، في عرصات الطريق المضل هناك حيلة لأناس ضلوا السبيل، ولم يروا جادته بل تاهوا في تعريجاته وأعراصه، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا يحسبون أنهم على شيء من هدى واستقامة، إنهم أصحاب السبت أولئك الذين أمروا بأمر من الله سبحانه فاحتالوا على

الأمر لا له.

يقول الله تعالى:{وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ } [البقرة: ٦٥ - ٦٦].

التفسير:

يقول تعالى:{وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ} يا معشر اليهود ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره إذ كان مشروعًا لهم فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن كان جزاؤهم من جنس عملهم، وهذه القصة مبسوطة في سورة الأعراف حيث يقول تعالى:{وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾} [الأعراف: ١٦٣] القصة بكمالها [1].

لقد أمر أصحاب السبت ألا يقربوا البحر للصيد يوم السبت فهو يوم عبادتهم الذي كلفوا أن يقوموا بأمره، لكن الفتنة فوق مستوى احتمال إيمانهم، فقلوبهم ما تزال منه خاوية على عروشها يقولون إنهم مؤمنون يلقونها بألسنتهم ويقولونها بأفواههم، أما حقيقة الإيمان فهي بعيدة كل البعد

(1) تفسير ابن كثير.

عن تلك القلوب القاسية الغافلة، وإذا ما أردت أن تتأكد من حقيقة ذلك القول، فعليك أن ترى نتيجة الاختبار الذي أجراه الله سبحانه لهم؛ للتمحيص ليميز الله الخبيث من الطيب، والاختبار هو أمر من الله ألا يقربوا البحر للصيد يوم السبت، فهو يوم عبادتهم الذي يجب أن يتفرغوا فيه لله تعالى، ويتركوا عملهم، أما باقي أيام الأسبوع فمسموح لهم مباشرة الصيد ولا حرج، ويستمر الأمر كذلك لكن الابتلاء يشتد إن الحيتان يوم السبت تبدو لهم برؤوسها تملأ ماء البحر، وكأنها عرفت أنهم ممنوعون اليوم من أن يمسوها بسوء، فهي حرة آمنة مطمئنة، تغدو وتروح طيلة اليوم، وتلوح لهم برؤوسها وأذنابها، ويشتد الابتلاء ويعظم حينما تزيد الحيتان يوم السبت وتكثر بينما تقل بل تنعدم في باقي أيام الأسبوع، فلا يرى لها أثر في البحر مهما أرب الصيادون في العثور عليها.

فما الحل إذن في تلك الفتنة؟ وكيف الخروج من هذه البلوى؟ ألا من حيلة حيال أمر الله بعدم الصيد يوم السبت؟ ألا من حيلة لاغتنام تلك الحيتان الشرع؟ ألا من حيلة في الرزق؟ ألا من حيلة تنقض أمر الله من غير أن تشعر هؤلاء القوم أنهم أنقصوه؟ حيلة تجنبهم العصيان المباشر لأمر الله، وفي الوقت نفسه تمكنهم من أن يمسكوا بتلك الحيتان ويحوزوها في شباكهم وشصوصهم؟

بلى هناك حيلة ماكرة خبيثة مفادها الآتي:

ألم يأمر الله سبحانه بعدم الصيد يوم السبت؟ فلن يكون هناك صيد يوم السبت، وإنما تنصب الشباك والشراك والشصوص يوم الجمعة، وتحفر الحفيرات ويجعل لها نهرًا إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفيرة، فيريد الحوت أن يخرج، فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر، فيمكث فيها فإذا كان يوم الأحد جاؤوا فأخذوها، وجمعت الشباك والشراك والشصوص، وحيزت بما عبأ فيها من الحيتان.

لقد رأى أصحاب السبت أنهم بهذه الطريقة لم يصيدوا يوم السبت ولم يقربوا البحر وحيتانه، فلم ينصبوا فيه شبكًا، ولم يرسلوا فيه شركًا، ولكنهم بالفعل وعلى الحقيقة قد صادوا يوم السبت، وأسقطوا بحيلتهم تلك حكم الله، وخالفوا أمره وعصوه، ووقعوا في حد من حدوده التي بينها سبحانه لهم؛ فأوجبوا لذلك على أنفسهم العذاب الشديد المخزي، ولو أنهم أتوا ما نهوا عنه مباشرة بدون احتيال ربما لكان أقل وزرًا مما فعلوا؛ لأن الله الخبير سبحانه لا يحتال عليه.

ولقد عاقبهم الله سبحانه بأن مسخهم قردة خاسئين، ولكن لماذا قردة على وجه الخصوص؟! لماذا لم يعذبهم الله كما عذب عاد وإرم وثمود؟ لماذا لم يفعل بهم ما فعله بأصحاب الفيل؟

في ذلك يقول ابن كثير رحمه الله: " مسخهم الله إلى صورة القردة وهي أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة فكذا أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر مخالفة له في الباطن فكان جزاؤهم من جنس عملهم " [1].

ويقول الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى: " إن أصحاب السبت قد صادوا وإن لم يروا أنهم صادوا، فإن وضعهم للشصوص والشباك كان هو الصيد أما ما أخروه وأجلوه عن يوم السبت، فكان أخذهم للسمك من الشباك والشصوص، وهم بهذا كانوا حريصين على إسقاط حكم الله بالحيلة فاستحقوا عقابه بأن قال الله تعالى آمرًا لهم:{كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ}، و{كُونُواْ} هو أمر تسخيري دالاً على الانصداع بالأمر يدل على أن المأمور نفسه لو كان مختارًا ما اختار إلا أن يفعل، وبهذا العقاب المخزي نقلهم الله نقلاً من إنسانية مكرمة إلى بهيمية في القيم، بهيمية في الإرادة؛ فهم لا يستحقون أن يكونوا ممنهجين بمنهج الله، فلا بد أن يكونوا في

(1) تفسير ابن كثير.

الخلق الأدنى، ولهذا اختار لهم الله أن يمسخهم قردة، والقرد هو الحيوان الوحيد المفضوح السوءة خفيف الحركة الذي لا يتأدب إلا بالعصا [1].

وأقول - والله أعلم: إن القردة هي أذكى الحيوانات وأكثرها لجوءًا للحيل، وأصحاب السبت كانوا أهل حيلة ظنوا أنهم يستطيعون بحيلتهم أن يتذاكوا على الله تعالى، ويحتالوا على أمره وينقضوه، فدللوا بذلك على خبث نفوسهم ودناءتها، فجعلهم سبحانه مسخًا خاسئًا كأحيل الحيوانات (القردة)؛ لعلهم ينتفعون بذكائهم بعد ذلك، أو أن يظنوا هم أوغيرهم أن الاحتيال على أمر الله ذكاء وحنكة؛ لتبقى صورتهم بمسخهم الخسيء صورة لعبرة واضحة للعيان، وعظة حية لاصقة بالأذهان لكل من يحاول الاحتيال على أمر الله تعالى بما لا يرضيه.

وبالقطع فإن حيلة أصحاب السبت كانت دليلاً على رغبتهم الأكيدة في إنقاض أمر الله، والتحايل عليه، ودليلاً على عدم إخلاصهم ودنس نفوسهم.

وهكذا تتعاضد الأخلاق الدنيئة الثلاثة ويكمل أحدها الآخر: خيانة - حيلة - إنقاص.

فما الموصل إلى الإنقاص إلا الخيانة وما أداة ذلك إلا الحيلة، كما تعاضت الأخلاق الكريمة الثلاثة الإخلاص - الحيلة - الإتمام من قبل، فما الموصل للإتمام إلا الإخلاص وما الدليل على الإخلاص إلا الحيلة كذلك.

وختامًا ليظل الإخلاص خلقًا من أهم أخلاق الأنبياء عليهم السلام، والسائرين على هداهم إلى يوم الدين، وليظل لذلك الإخلاص محاولاته التي تنم عليه، وتشي به، تذكر معه كلما ذكر، وليظل طلب الوسائل والتماسها خلقًا موصلاً للإتمام ومتفقًا معه. لتظل الوسيلة هي الدليل الذي ينبئ عن نفس صاحبه ويعرب عن خلقه، ويوضح هدفه ومبتغاه إن خيرًا

---

(1) تفسير الشعراوى.

فخير وإن شرًا فشر لتبقى هي الحلقة الوسطى من السلسلة التي إن انثنت إلى الداخل أعربت إما عن الخيانة وإما عن الإخلاص، وإن انثنت إلى الخارج دلت إما على الإنقاص وإما على الإتمام.

* * *

القرآن خُلقًا

ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ

قال تعالى:

{ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾}

[الكهف: ٦٠ - ٨٢].

التفسير:

سبب قول موسى لفتاه، وهو يوشع بن نون هذا الكلام أنه ذكر له أن عبدًا من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى فأحب الرحيل إليه، وقال لفتاه ذلك{لَآ أَبۡرَحُ} أي: لا أزال سائرًا{حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ} أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين.

قال قتادة وغير واحد: هما بحر فارس مما يلي المشرق وبحر الروم مما يلي المغرب، وقال محمد بن كعب: مجمع البحرين عند طنجة في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم. وقوله{أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا} أي: ولو أني أسير حقبًا من الزمان، وقيل: أي دهرًا.{فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا} وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو ثمة، فسارا حتى بلغا مجمع البحرين، وهناك عين يقال لها عين الحياة، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطرب وكان في مكتل مع يوشع عليه السلام، وطفر من المكتل إلى البحر فاستيقظ يوشع عليه السلام، وسقط الحوت في البحر، فجعل يسير في الماء، والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده ولهذا قال تعالى:{فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا} أي: مثل السرب في الأرض، وقال العوفي عن ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئًا من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة.{فَلَمَّا جَاوَزَا} أي: المكان الذي نسيا الحوت فيه، ونسب النسيان إليهما وإن كان يوشع هو الذي نسيه كقوله تعالى:{يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٢٢} [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من المالح على أحد القولين. فلما ذهبا عن المكان الذي نسياه فيه بمرحلة{قَالَ} موسى{لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا} أي الذي جاوزا فيه المكان{نَصَبٗا} يعني تعبًا{قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ}{وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ} أي طريقه{فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣} قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ} أي هذا هو الذي نطلب{فَٱرۡتَدَّا} أي رجعا{عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا}

أي طريقهما{قَصَصًا} أي يقصان آثار مشيهما ويقفوان أثرهما.{فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا} وهذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار أخبرني سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس أن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، قال ابن عباس: كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:{**إن موسى قام خطيبًا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ قال أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه أن لي عبدًا بمجمع البحرين هوأعلم منك، قال موسى يارب وكيف لي به؟ قال تأخذ معك حوتًا فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوته فجعله بمكتل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سربًا، وأمسك الله عن الحوت جريه الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كانا من الغداة قال موسى لفتاه{ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا} ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به، قال له فتاه{أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا} قال: فكان للحوت سربًا وكان لموسى ولفتاه عجبًا، فقال:{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا} قال: فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنّى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى، فقال موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشدًا{قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا} يا موسى إني**

على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. فقال موسى: {سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا} قال له الخضر: {فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا} فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى قد حملونا بغير نول فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئًا إمرًا: { قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾} قال وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم: فكانت الأولى من موسى نسيانًا، قال وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين فقال له الخضر: ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده، فقتله فقال له موسى: {أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا} قال: { قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا} قال وهذه أشد من الأولى، { قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ} أي مائلاً، فقال الخضر بيده هكذا{فَأَقَامَهُۥۖ} فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا{لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا} فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما} [1]. أما تفسير المواقف الثلاثة التي عرضت لموسى مع الخضر عليهما السلام فهي كما فسرها الخضر عليه السلام:

(1) تفسير ابن كثير.

{ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا } هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى، وما كان أنكر ظاهره، فقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنة، فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة{يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا } صالحة، أي جيدة{غَصۡبٗا } فأردت أن أعيبها فأرده عنها لعيبها فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها، وقد قيل: أنهم أيتام.

{وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا} في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:{**الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرًا**} رواه بن جرير. ولهذا قال:{فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا} أي يحملهما حبه على متابعته على الكفر. قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ولو كان بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب. وصح في الحديث:{**لا يقضي الله لمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له**} [1] وقال تعالى{وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ} [البقرة: ٢١٦].

{فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا} أي ولدًا أزكى من هذا، وهما أرحم به منه.

{وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا} في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة، لأنه قال أولاً حتى إذا أتيا أهل قرية ههنا{فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ} ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين

---

(1) مختصر تفسير ابن كثير.

يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما، أي كان تحته مال مدفون لهما، وقوله{وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا} فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم. وكان الأب السابع.

وقوله{فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا} ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله.

وقال في الغلام{فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً} وقال في السفينة{فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا} فالله أعلم. وقوله تعالى:{رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى} أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدي الغلام، وولدي الرجل الصالح، وما فعلته عن أمري لكني أمرت به ووقفت عليه. وقد ذهب كثيرون إلى أن الخضر كان وليًا ولم يكن نبيًا. وقوله:{ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا} أي: هذا تفسير ما ضقت به ذرعًا، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال:{تَسْطِع} وقبل ذلك كان الإشكال قويًا ثقيلاً فقال:{تَسْتَطِع} فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف فقابل كلاً بما يناسبه لفظًا ومعنى.

إن ما يحتويه لقاء موسى والخضر عليهما السلام من العبر لا يلم به قلم كاتب، ولا بحث باحث شأنه في ذلك شأن كل قصص القرآن الكريم، لكن ما يستوقفني هنا من ذلك اللقاء هي تلك الكلمة التي قالها موسى لفتاه عندما فقدا حوتهما إنها{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ}.

فنحن في بداية القصة بصدد متعلم وهو موسى عليه السلام يبحث عن معلم رباني؛ ليتعلم منه، ولا يبحث عنه بحثًا عاديًا، وإنما يسافر في طلبه وعلمه، ويضنيه ورفيقه السفر ويشق عليهما، وعندما يطلبان طعامهما الذي كانا قد أعداه لغدائهما يجداه قد تسرب منهما، وفقد ولا سبيل لاسترجاعه، ونكاد نرى فتى موسى وهو يعتذر بشأن ذلك الغداء عندما

يسأله موسى عليه السلام عنه فيقول الفتى:{أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا} ويأتي رد موسى عليه السلام كأغرب ما يكون الرد ونرى استقباله لثالث خبر سيئ - في تقدير الناس - كأعجب ما يكون الاستقبال فتصيبنا الدهشة، ويعترينا العجب حين يقول موسى عليه السلام لفتاه:{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ} فكيف أن إضاعة غدائهما - بعد رحلة عناء ومشقة ونصب هما فيها في أمس الحاجة إلى طعام يقيمان به أودهما؛ ليستكملا رحلتهما ليحققا هدفهما المنشود وهو العثور على ذلك المعلم الصالح، كيف يكون ضياع ذلك الطعام أو بعضه هو ما يبغيان؟! ولو أن أحدًا قد حدث له ما حدث لموسى عليه السلام في هذا الموقف ربما كنا سمعنا منه ردًا غير ذلك، فلربما قال ضجرًا: أف هذا ما كان ينقصنا، أو قال: حقًا المصائب لا تأتي فرادى معلم قطعنا الأرض في طلبه، ووصلنا إلى مكان اللقيا ولم نجده، بل وجاوزنا المكان ولم نجد له أثرًا، وسفر هو قطعة من العذاب أصابنا فيه النصب والتعب، ثم تأتي الثالثة فيضيع طعامنا هذا ما لا يمكن أن يحتمل. أو قال إن كان رحيمًا شفوقًا على فتاه: لا عليك سنلتمس طعامًا آخر وعلنا نجد في ذلك المكان القفر الأجدب.

ونعود لموسى عليه السلام ورده المحير الذي يستحق أن نقف عنده، إن كانت إرادة الخالق سبحانه اقتضت أن تكون علامة لقيا موسى عليه السلام بذلك المعلم الصالح (الخضر) هي ضياع حوت هو غداء موسى ورفيقه في السفر، فلماذا لم يجعل الله سبحانه وتعالى علامة اللقيا شيئًا آخر كوصف الرجل الصالح أو لباسه مثلاً؟! أو لماذا جعل لذلك علامة أصلاً ألم يكن الله سبحانه وتعالى قادرًا على أن يعرّف موسى عليه السلام بذلك الرجل بمجرد أن يريه إياه؟!

بلى قادر سبحانه، فلماذا إذن جعل سبحانه علامة اللقيا هي ضياع الحوت؟ لماذا جعل علامة اللقيا الفقد؟!

ذلك - والله أعلم - لأن تلك العلامة هي ملمح من حكمة الله العظيم التي اقتضتها سنته في خلقه في دنياهم وأخراهم، تلك الحكمة التي تقول: إنك لكي تحقق تقدمًا ونجاحًا في شيء ما لابد أن تقدم لذلك النجاح ما تستحقه به، ولكي تجد ما تريد لابد أن تضحى من أجله وتفقد.

وانظر لطالب العلم إنه لكي يحصل على بعض العلم لابد من أن يفقد كثيرًا من راحته واستقراره وماله ووقته، فيقلل من ساعات نومه، وأوقات راحته ولهوه، ومن أصناف الطعام التي يحبها؛ لأنها ربما تصيبه بشيء من الخمول والكسل، وربما إن أقدم عليها لا يتناول منها إلا القليل مخافة آثارها عليه، ونراه ربما يسافر في طلب معلم معين، أو كتاب بعينه منفقًا من ماله غير مبال بذاك المال في مقابل ما حصل عليه.

وهكذا الحال مع طالب الدنيا، فإنه لكي يجمع من حطامها ما قل أو كثر لابد له وأن ينهج نهج سابقه، فيفقد كثيرًا من أوقات هناءته وراحته ويخرج كثيرًا من حاويات نقوده ليحقق ما يصبو إليه.

وعلى الذي يطلب جاهًا أو سلطانًا نفس ما على الأوليين من ضريبة، فنراه يجامل هذا في أفراحه غير تارك ذاك في مصائبه وأتراحه، ويجري لاهثًا وراء اجتماعات وندوات وأشياء من هذا القبيل ليظهر فيها بما يليق به؛ ليبرز ويعرفه الناس، ويكون له من الشهرة والمكانة ما يريد؛ ولأجل هذا فهو يضحي بالكثير من وقته وجهده وصحته وماله.

وليكن معنا ونحن نتناول ذلك الملمح أهم مثل للتضحية ألا وهي الأم التي من أجل ولدها فلذة كبدها وقرة عينها نراها وهي تتحمل آلام الحمل والولادة، ومشاق الرضاع بنفس راضية سعيدة.

بل لقد اقتضت حكمة الله جل وعلا أن نكون هكذا بنفس هذا الحال ليس في أمر الدنيا فقط، وإنما في شأن الآخرة أيضًا، فإن على طالبها ومريدها أن يسعى لها سعيها وهو مؤمن، وهذا السعي يتطلب منه أن يفقد و يضحي ويبذل، فعليه أن يصلي خمس صلوات في أوقات مختلفة من اليوم

والليلة، ويصوم شهرًا متصلاً، ويخرج من ماله زكاة وصدقة، ويذهب في رحلة طويلة شاقة إلى مكة حيث بيت الله العتيق ليحج ويعتمر إذا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وليس الأمر على ذلك فقط وإنما عليه وهو يؤدي كل هذا أن يحسن خلقه، ويملك نفسه ويجاهدها، فيزيد من الطاعات قدر ما قدره الله له ثم ما أراده لنفسه من مكانة عند الله سبحانه، ويجتنب نواهي الله تعالى مهما كان ذلك المنهي عنه محببًا إلى نفسه، إنك لكي تشتري شيئًا نفيسًا لابد وأن تفقد من مالك قدر ما يعادل ذلك النفيس:**{ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة}.**

لكن إذا كنا قد أفضنا في الحديث عن الفقد والبذل فإنا لم نتكلم بعد عن النوال والكسب.

إن ما يدفعه طالب العلم من جهد ووقت ومال هو عنده لا يساوي - وإن بالغنا - ما يحوزه بسطر من علم نافع.

سهري لتنقيح العلوم ألذ لي ::: من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طربًا لحل عويصة ::: أشهى وأحلى من مدامة ساقي
وصرير أقلامي على أوراقها ::: أحلى من الدوكاء والعشاق
وألذ من نقر الفتاة لدفها نقري ::: لألقي الرمل عن أوراقي
أأبيت سهران الدجى وتبيته ::: نومًا وتبغي بعد ذلك لحاقي

وقبل كل هذا نعمة يحصلها طالب العلم لا يعطيها الله لسواه، وهي أن الله يرفعه في الدنيا والآخرة، ويعلي على الأيام ذكره، ويبقي في الدنيا أثره{يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ} [المجادلة: ١١].

ففز بعلم تحيا به أبدًا ::: فالناس موتى وأهل العلم أحياء

وهكذا طالب الدنيا فإن سعادته بعقد صفقات، والدخول في مضاربات، وحيازة أموال لهي عنده أسمى الغايات، هذا فضلاً على أنه يصبح من الأغنياء الأثرياء المتمتعين بنعيم الدنيا.

والأمر لا يختلف مع طالب الجاه والسلطان، فإن الشهرة عنده من أعظم

النعم، وذيوع صيته في الآفاق لهو من أغلى الأمنيات إن هو حصله.

والأم ترى في آلام الحمل ووهن الوضع ومشاق الرضاع تحقيقًا لقاعدة{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ} فلو أن زوجة تزوجت حديثًا وأخبرها أحذق الأطباء وأمهرهم بأنها ستستريح عمرها كله، فلن تذوق من تلك الآلام والمشاق شيئًا، فإنه بمقالته هذه يكون قد حول حياتها إلى آلام مستمرة وأحزان متصلة، فالأم وهي في أشد حالات التعب والوهن لهي في أحسن الحالات رضًا وسعادةً ناهيك عن نظرة واحدة لطفلها الصغير، أو لصبيها اليافع، أو لشابها المتوثب، بل وتظل الأم تذكر ما فقدت أيام حملها من راحة وصحة، وتذكر ساعات وضعها لجنينها المؤلمة الشاقة ما حييت بتلذذ واستمتاع{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ}.

والحال في أمر الآخرة لا يختلف كثيرًا عما سبق فأنت مهما بذلت فإنما تبذل القليل اليسير لتأخذ العظيم الجزيل، وبرغم أن سلعة الله غالية لأنها الجنة فإن سعرها زهيد ومهرها يسير على من يسره الله تعالى عليه إذا ما قارناه بما حازه حائزها، وما ناله نائلها، ولكنه مع يسره لابد منه{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ}.

ونعود لموسى والخضر عليهما السلام، ألم يمنع الله موسى عليه السلام من أن يتناول الحوت وهو غذاؤه في سفره؛ ليكون ذلك علامة على منحه معلمًا ربانيًا رحيمًا عنده من العلم اللدني ما عنده{ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا}، ونكمل رحلتنا مع موسى والخضر ونسير معهما في سفرهما، فنجد قانون{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ} يتناسب مع الثلاث قصص اللواتي أوردهم اللقاء تمام التلازم، فما خرق سفينة المساكين الذين يعملون في البحر إلا{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ} وما قتل الغلام إلا{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ} وما بناء جدار في قرية لئام بخلاء بغير أجر إلا{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ}.

ولنتناول كل قصة على حده: -

أولهم: سفينة مساكين يعملون في البحر صالحة جيدة هي مصدر رزقهم

يوشك أن يغتصبها منهم ملك طاغية مستبد، ألا من حل..؟! ألا من طريقة لإنقاذ المساكين من الفقر والعدم والإملاق بإنقاذ سفينتهم من يدي ذلك الملك الظالم؟!

بلى، هناك حل وحيد، وحيلة لا سواها حيث إن هذا الملك يأخذ السفينة الصالحة الجيدة فقط وأما المعابة أو الهالكة فلا يرضى بها. إذن ما الحل، هل يكون استعطاف المساكين للملك، وبيان حالهم له ومدى حاجتهم إلى سفينتهم، فإذا ما اعتبرنا هذا الطرح حلاً وناقشناه، فهل هؤلاء البحارة المساكين أولاً يستطيعون الوصول إلى ذلك الملك الطاغية، وتوصيل رسالتهم إليه ممن حوله من جند وحاشية وحجاب و...؟

ثم إذا ما وصلوا إليه هل يملكون من الشجاعة والجرأة ما يجعلهم يواجهون مثل ذلك الجبار؟ وإذا ما افترضنا جدلاً أن لديهم تلك الشجاعة وهذه الجرأة هل يسمح لهم الملك بعرض حالتهم وبيان حاجتهم، وعلى فرض أنه فعل هل سيجدي هذا الاستعطاف معه شيئًا؟

لا أرى ذلك نافعًا؛ لأن أمثال ذلك الملك يتلذذون بذل المساكين ومسكنتهم، ويستمتعون بإضعاف الضعفاء وقهرهم، فلنبحث عن حل آخر لإنقاذ السفينة، إذن يهربون بها حتى لا يمرون على ذلك الملك، وهذا لا يمكن أن يكون حلاً لأن كلمة وراءهم توحي وتدل على مدى إحاطة هذا الملك بهم على وجه الخصوص وبالبحر والبحارة على وجه العموم.

أو يكون الحل الثالث أن يقفوا في وجه الملك مدافعين عن سفينتهم رادينه عنها بكل ما أوتوا من قوة، وهذا حل لا يصلح أيضًا؛ فهم مساكين لا حول لهم ولا قوة ولا طاقة لهم بمدافعته ورده.

إذن لابد من قبول إعابة السفينة حلاً وحيدًا سديدًا{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ}.

أما القصة الثانية:

فهي عن غلام صغير كأظرف وأجمل ما يكون بريئًا لم يحتمل وزرًا،

زكيًا لم يكتسب ذنبًا، لكن هناك من الغيب الخفي ما يخيف، إن تلك البراءة يخشى عليها عندما تكبر أن تتحول إلى طغيان وكفر يرهقان صاحبهما وأبويه المؤمنين، فلماذا لا تقتلع تلك النبتة وهي صغيرة فتغرس في الجنة ببراءتها وطهرها بدلاً من أن تبقى في الدنيا، فتكبر، وتستضري، وتفتك بنفسها، وبالمحبين من حولها؟ إذن فلتقتلع هذه من جذرها، ولتزرع مكانها نبتة هي أفضل منها مأمونة الشر، مأمولة الخير{فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾}، وما يؤكد خير موت هذا الغلام على أبويه هذا الحديث، فعن معاوية بن إياس عن أبيه رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فقد رجلاً من أصحابه فسأل عنه فقالوا: يا رسول الله.. ابنه الذي رأيته هلك، فلقيه النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن ابنه فأخبره أنه هلك فعزاه عليه ثم قال:{**يا فلان.. أيما كان أحب إليك أن تمتع به عمرك أولا تأتي غدًا بابًا من أبواب الجنة إلا وجدته قد سبقك إليه يفتحه لك**}، فقال: يا نبي الله.. يسبقني إلى الجنة فيفتحها لي أحب إليَّ، قال:{**فذلك لك**} فقيل: يا رسول الله.. هذا له خاصة أم للمسلمين عامة؟ قال:{**بل للمسلمين عامة**} [1].

أما ما يؤكد خير موت هذا الغلام على نفسه ما رواه مسلم بن أبي حسان قال: قلت لأبي هريرة رضى الله عنه: حدثنا بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا.

قال: نعم.. صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه - أو قال: أبويه - فيأخذ بثوبه - أو قال: بيده - فلا ينتهي حتى يدخله الجنة [2].

ولنعد للخضر وحله ولنفكر ما شئنا في حل غيره، ولو أننا افترضنا مثلاً أن يعيش ذلك الغلام ولا يقتل، ويرزق أبواه غلامًا غيره خيرًا منه زكاة وأقرب رحمًا، نقول: إن حياة ذلك الغلام ستكون وبالاً عليه، وعلى أسرته

(1) رواه أحمد، والنسائي، ابن حبان في صحيحه باختصار.
(2) الكبائر.

جميعًا ولربما أضل أخاه فصار مثله، أو على أحسن الأوضاع أرهقه كما أرهق أبويه المؤمنين؛ ولهذا يكون قتل الغلام هو الحل الأمثل الوحيد{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ}.

وأما بناء جدار في قرية لئام بخلاء بغير أجر الذي هو موضوع القصة الثالثة فهو كذلك الحل الأمثل؛ ذلك لأنه كما ذُكر فإن تحت هذا الجدار كنزًا لغلامين يتيمين ساكنين المدينة، والجدار على وشك الانقضاض، فما العمل إذا انقض الجدار، وظهر ما تحته؟! مما لا شك أنه سيكون نهبًا لهؤلاء اللئام البخلاء، فما عسى الخضر أن يفعل؟!

هل ينشئ الخطب المؤثرة، والمواعظ البليغة؛ ليعظ بها أهل تلك القرية دالاً إياهم أن خلق البخل، وصفة اللؤم خصلتان لا ترضيان الله سبحانه، ثم يعرفهم أن هناك كنزًا تحت الجدار الموشك على الانقضاض هو أمانة عندهم، فهو لغلامين يتيمين في المدينة، ولاينبغي لهم أن يأخذوا منه شيئًا شارحًا وموضحًا إثم آكل مال اليتيم وخائن الأمانة، وسوء عاقبتهما في الدنيا والآخرة؟

إن مجرد التفكير في هذا الحل لهو من السذاجة بحيث لا يتصور أحد قبوله، إذن فليخرج الخضر الكنز ويذهب به إلى صاحبيه.

وما يدريك لعل أحد يراه من أهل تلك القرية، فتقوم بينه وبينهم مشادة وعراك، وربما تحول الأمر لاقتتال دام، والله وحده هو الذي يعلم هل سيخرج الخضر وموسى عليهما السلام منه سالمين ومعهما الكنز أم لا؟! ولنقترح اقتراحًا آخر يحضر الخضر الغلامين من المدينة ويخبرهما بالكنز، ويريهما حال الجدار. هذا أيضًا اقتراح غير مقبول لما به من حمق سخافة؛ ذلك لأن الغلامين صغيران بحيث إنهما لا يدركان ماهية الكنز؟ ولو افترضنا أنهما يدركان ماهية كنزهما، فكيف سيخرجانه وهما ما يزالا صغيرين لا يحسنان التصرف؟، وكيف يحفظانه من أيدي أصحاب القرية اللئام ويعودان به لمدينتهم؟!

هكذا ولو أنا فكرنا في ألف ألف اقتراح، و افترضنا ألف ألف فرض لحل تلك المشكلة ما وجدنا من حل هو أفضل وأحسن من إقامة ذلك الجدار ثانية ليحمي الكنز، وليظن أهل القرية أولئك اللئام البخلاء بموسى والخضر عليهما السلام اللذين فقدا من وقتهما، وبذلا من جهدهما ما شاؤوا من ظن، لكنهم لن يصلوا بعقولهم القاصرة الضالة إلى قصدهما من البناء أبدًا، وليكبر الغلامان ويصيرا رجلين ويأتيا ليريا تركة أبيهم الرجل الصالح، ويستخرجا كنزهما آمنين مطمئنين غير آبهين بأهل القرية وما هم عليه من لؤم وبخل.

هذه هي القصص الثلاث وإن شئت قلت المشكلات الثلاث كما فهمها موسى عليه السلام في أول الأمر، وكما نفهمها نحن في بداية قصته والخضر عليهما السلام.

سفينة مساكين تعاب، وغلام يقتل، وجدار يقام في قرية بخلاء لئام بغير أجر، فقد ثم فقد ثم فقد كان ذلك هو الظاهر، أما ما خفي والذي لم يعلمه إلا الله تعالى، وقد أعلمه عبده الخضر عليه السلام أن ذلك كان على الحقيقة عطاء ثم عطاء ثم عطاء، وعليه كانت حلول الخضر الثلاث، ولو أنك بحث ونقبت وفكرت وأعملت عقلك، وكان لك الإنس والجن ظهيرين، فأنتجت وإياهم مليون حل، فلن تجد هناك حلاً هو أسرع وأنجح وأنجع وأيسر وأنفع وأفضل وأروع من حلول الخضر عليه السلام التي ما قدم عليها إلا بوحي من الله سبحانه وتعالى{فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِي}، والتي لا يمكن غيرها، ولا يصلح إلاها، ولا ينبغي سواها بل هي ما تنبغي بعينها، ولوعرف موسى عليه السلام نهايات القصص الثلاث مسبقًا لما كان رده على ما أقدم عليه الخضر عليه السلام إلا{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ}.

وإذا ما عدنا لأول الرحلة نجد أن ضياع حوت موسى عليه السلام ورفيقه تلك الإشارة التي يكاد القرآن أن يخفيها هي ملخص القصص الثلاث في لقاء موسى والخضر عليهما السلام، وأن كلمة{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ} لهي من أهم

المبادئ ومن أعظم الحكم في قصتهما من بدايتها إلى نهايتها، والتي دلت دلالة واضحة على أن كل فقد يتبعه عطاء وافر جزيل، وما الفقد إلا علامة للعطاء، فلكي تبقى مع البحارة سفينتهم؛ لابد وأن تفقد شيئًا من صلاحها، ولكي يبقى الأبوان مؤمنين ويمنحا غلامًا زكيًا رحيمًا؛ لابد أن يفقدا أولاً ذلك الابن المرهق، ولابد لحفظ كنز الغلامين اليتيمين على يد عبدين من عباد الله صالحين هما الخضر وموسى عليهما السلام؛ أن يفقد الجدار شيئًا من سلامته.

هذا ولا يقول قائل لماذا جعل الله سبحانه وتعالى علامة اللقيا بين موسى والخضر عليهما السلام فقد الحوت؟ أو لماذا يجعل وراء هؤلاء البحارة المساكين ملك ظالم مستبد يأخذ السفن الصالحة غصبًا غير آبه بأصحابها؟ أو لماذا يرزق الله الزوجين المؤمنين غلامًا مرهقًا؟ أو لماذا يخفي الوالد الصالح كنز أبنائه تحت جدار واه ضعيف يكاد أن ينقض في قرية لئام بخلاء؟!

كل تلك التساؤلات تتنافى مع سنة الله في خلقه التي لن تجد لها تبديلاً، ولن تجد لها تحويلاً، والتي قضت بأن يبلونا بالشر والخير فتنة﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] وليكون قول الله عسى أن تحبوا، وعسى أن تكرهوا أمرًا يؤيده الواقع [1]﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] وليظل قوله تعالى:﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١] سائدًا سائرًا علينا ومعنا في كل مكان وزمان.

النبي صلى الله عليه وسلم **وتجربة الفقد**

والمبدأ عينه﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ نجده في سنة الحبيب المصطفى فعلاً وقولاً، فلقد تمثل هذا المبدأ مع النبي صلى الله عليه وسلم واقعًا حقيقيًا إذ مر

---

(1) حديث الشيخ الشعراوى.

النبي صلى الله عليه وسلم بتجربة الفقد القاسية المريرة التي انجلت عن عوض عظيم، ومكافأة كبيرة حتى أصبح ذلك الفقد - وإن عظم - علامة يسيرة على ما أعقبه من خير كبير، وما تلاه من عطاء وفير.

ونبدأ بالحديث عن الفقد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم من أولها حينما فقد أباه فولد يتيمًا، ثم تلا ذلك أن فقد أمه، ولما كفله الجد سرعان ما أتى عليه الدور في الموت، فمات أيضًا، كل تلك الأحداث مرت بالنبي وهو ما يزال ابن الثماني سنوات، ثم كفله عمه أبو طالب.

تلك كانت طفولته صلى الله عليه وسلم؛ لذا فقد عاش يتيمًا وحيدًا لم يعش كغيره من الأطفال متمتعًا بدفء الحياة الأسرية واستقرارها في حضن والديه سعيدًا هانئًا مدللاً، بل إنه صلى الله عليه وسلم لم يعش مستقرًا في مكان واحد وأسرة بعينها، بل كان مشتتًا بين الأسر يكفله هذا حينًا وذاك آخر، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يتيمًا فحسب، بل وعاش فقيرًا عائلاً هم معاشه منذ صغره، فيرعى لعمه مع بنيه أغنامه، ويرعى أغنامًا لأهل مكة مقابل أجر يعطونه إياه، وقد ذكر صلى الله عليه وسلم ذلك حين قال:**{ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم}** قال أصحابه: وأنت؟ فقال:**{نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة}** (1).

ذاك هو الفقد وإن لم نسهب في توضيحه إلا أنه كان فقدًا عظيمًا لم يرزأ أحد بمثله؛ ولهذا كان العوض عظيمًا لم ينل أحد فضلاً كفضله، وقد قال الله تعالى ذاكرًا الفقد والعوض:

{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾} [الضحى: ٥ - ٨].

لقد كان العوض عوضًا يبعث على الرضا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم راضيًا بفطرته التي فطره الله تعالى عليها؛ فأوفى له الكريم،

---

(1) رواه البخاري.

وأجزل، وأعطاه عطاءً غدقًا وافرًا عظيمًا.

حقًا فقد حرم الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم من أبويه وحضنهما الدافئ؛ ليمنحه سبحانه كنف الرحمن الرحيم وأنعم به من كنف: كنف لا يرام ولا يضام، وتولاه جل وعلا ولاية كاملة ما تطاول إليها أحد من البشر، وما منحت - فيما يعلم - لأحد غيره صلى الله عليه وسلم، فهو سيد الناس يوم يجمع الله الأولين والآخرين كما قال صلى الله عليه وسلم :**{أنا سيد الناس يوم القيامة}** [1].

فقد النبي صلى الله عليه وسلم الحياة العادية المألوفة لكل الناس بأن يرعاه والداه، ويعيش آمنا وادعًا في ظلهما؛ ليتعرض للحياة بكل ما فيها من خير وشر، فتعركه تلك الحياة بأنيابها القاسية تارة، وتحنو عليه تارة أخرى؛ ليخرج من تجاربها وقد جربها جميعًا، ودرس كل ما فيها، ووعيه وعلمه علم اليقين؛ لذا فقد كان صلى الله عليه وسلم أعلم وأذكى وأصلب وأقوى من كل من رأينا أو سمعنا أو قرأنا عنه من الناس، فالنبي صلى الله عليه وسلم رجل اجتمعت فيه كل كمالات البشر قاطبة{وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾} [القلم: ٤].

لقد فقد النبي صلى الله عليه وسلم أن يهتدي لبيت واحد يستقر فيه، وأسرة واحدة يعيش معها، ويتغذى من مبادئ ذلك البيت، ويشرب من عادات تلك الأسرة؛ ليمنح حريته بألا يكون مرتبطًا بمنكر من الأخلاق، أو سيء من الأهواء التي كان عليها أهله وعشيرته، وليهديه الله سبحانه إليه فلا يتغذى إلا بالمبادئ الحقة، ولا يمسك إلا بحبل الله المتين، ولا يرى إلا النور المبين، ولا يمشي إلا على الصراط المستقيم.

لقد حارالنبي صلى الله عليه وسلم إذ لم يهتد لإله أو معبود كقومه يعبده، وظل يبحث عن معبود يستحق أن يعبد، فهداه الله سبحانه إليه، وإلى شريعته

(1) متفق عليه.

الحنيفية الغراء. وأنزل عليه النور المبين{وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا } [النساء: ١١٣].

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتيم الأبوين فقد عاش فقيرًا عائلاً هم نفسه يرعى الغنم لعمه ولأهل مكة تارة، ويتاجر في مال خديجة رضى الله عنها تارة أخرى، فأغناه الله سبحانه عمن سواه، وفرض له الخمس من الغنيمة، ثم أغناه حتى عن الخمس، فرده على المسلمين:**{أيها الناس، والله مالي في فيئكم، ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم}.**

حُرم النبي صلى الله عليه وسلم التمتع بزينة الدنيا ومباهجها ونعيمها الفاني؛ ليرى الخير الحق والزينة الدائمة بعين اليقين، وليمنح " الكوثر " كوثر من العطاء الذي لا ينفذ ولا ينتهي ولا يضاهى ولا يقارن.

ونجد ونحن في طريقنا قدمًا في سيرته العطرة صلى الله عليه وسلم أمثلة عديدة ممثلة نفس مبدأنا{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ} ممثلة للفقد الذي أعقبه جزيل العوض، ووافر العطاء، نذكر منها خروجه إلى الطائف وهى تبعد عن مكة نحو ستين ميلاً، سارها ماشيًا على قدميه جيئة وذهوبًا، ومعه مولاه زيد بن حارثة، راجيًا أن يفتح آفاقًا جديدة للإسلام بعد أن أوصدت مكة أمامه أبوابها، ووقفت صخرة كئود أمام دعوته فخرج إلى الطائف يطلب ناصرًا من ثقيف ينصره على قومه، ويعينه على إبلاغ دعوته، خرج وهو راج أن يقبل أهل الطائف منه ما جاءهم به، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام فلم تجب إليه واحدة منها، فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال أحدهم هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر: أما وجد الله أحدًا غيرك، وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدًا، لئن كنت رسولاً من الله كما

تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك، فقام رسول الله عنهم، وقال لهم إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني.

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا، وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له صماتين " أي صفين " وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه، حتى اختضب نعلاه بالدماء، وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى أصابه شجاج في رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، على ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه، وعمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ظل شجرة عنب، فجلس تحتها مستظلاً بها، فلما اطمأن دعا بالدعاء المشهور الذي يدل على امتلاء قلبه كآبةً وحزنًا مما لقي من الشدة، وآسفًا على أنه لم يؤمن به أحد، قال:**{اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، لكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك}** [1].

ذلك كان الفقد الذي آلم النبي صلى الله عليه وسلم وأحزنه إذ لم يظفر بما رجا وتمنى، وأما العطاء فإن أردت أن تعرفه ففي السطور القادمة بعضه، وأول قطرة من غيث العوض وأول إشارة لانطلاق العطاء يوردها صاحب كتاب الرحيق المختوم قائلاً: فلما رآه - أي النبي صلى

(1) هذا الحبيب محمد يا محب، الرحيق المختوم.

الله عليه وسلم - ابنا ربيعة تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًّا، يقال له عداس، وقالا له خذ قطفًا من هذا العنب واذهب به إلى هذا الرجل. فلما وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مد يده إليه قائلاً:**{باسم الله}** ثم أكل. فقال عداس: إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟}** قال: أنا نصراني، من أهل نينوى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{من قرية الرجل الصالح يونس بن متى}**. قال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :**{ذاك أخي، كان نبيًا أنا نبي}**. فأكب عداس على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويديه ورجليه يقبلهما.

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاء عداس قال له: ويحك ما هذا؟ قال: يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

تلك كانت أول قطرة كما ذكرنا ثم بدأ الغيث ينهمر بركةً وخيرًا، إذ رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق مكة بعد خروجه من الحائط كئيبًا محزونًا كسير القلب، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة.

وقد روى البخاري - تفصيل القصة - بسنده عن عروة بن الزبير، أن عائشة رضى الله عنها حدثته أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم :**{هل أتى عليك يومًا كان أشد عليك من يوم أحد؟}** قال:**{لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت – وأنا مهموم – على وجهي، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب – وهو المسمى بقرن المنازل – فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني**

فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك. وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ، ثم قال: يا محمد، ذلك، فما شئت، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين} - أي لفعلت، والأخشبان: هما جبلا مكة، أبو قبيس والذي يقابله وهو قيقعان - قال النبي صلى الله عليه وسلم :**{بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئًا}** (1).

وأفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم واطمأن قلبه؛ لأجل هذا النصر الغيبي الذي أمده الله به من فوق سبع سماوات، ثم تقدم في طريق مكة حتى بلغ وادي نخلة، وأقام فيه أيامًا، وخلال إقامته هناك بعث الله إليه نفرًا من الجن، ذكرهم الله في موضعين من القرآن الكريم في سورة الأحقاف: {وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾} [الأحقاف: ٢٩ - ٣١].

وفي سورة الجن:{قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾} [الجن: ١ - ٢]. إلى تمام الآية الخامسة عشرة وكانت تلك أول مرة يصرف فيها الجن ليستمعوا القرآن، وحقًا كان هذا الحادث نصرًا آخر أمد الله به نبيه صلى الله عليه وسلم من كنوز غيبه المكنون بجنوده التي لا يعلمها إلا هو، ثم إن الآيات التي نزلت بصدد هذا الحادث كانت في طيها بشارات بنجاح دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن أي قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها:{ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

(1) صحيح البخاري، ومسلم.

﴿٣٢﴾} [الأحقاف: ٣٢].

{وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾} [الجن: ١٢].

وأمام هذه النصرة وأمام هذه البشارات، أقشعت سحابة الكآبة والحزن واليأس، التي كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف مطرودًا مدحورًا، حتى صمم على العود إلى مكة، وعلى القيام باستئناف خطته الأولى في عرض الإسلام، وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد وجد وحماس.

وحينئذ قال زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ يعني قريشًا، فقال: يا زيد: إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه.

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دنا من مكة مكث بحراء، وبعث برجل من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير، فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال سهيل: إن بني عامر لا تجير على بني كعب، فبعث إلى المطعم بن عدي، فقال: المطعم نعم، ثم تسلح ودعا بنيه وقومه فقال: البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجرت محمدًا، ثم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن ادخل، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته فنادى يا معشر قريش، إني قد أجرت محمدًا فلا يهجه أحد منكم، وانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن فاستلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدي وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته [1].

كان الهدف من رحلة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف هو رغبته أن يتعاضد بالطائف، ويجد فيها من يؤمن بدعوته ويصدقه وينصره،

(1) الرحيق المختوم.

فرفضت الطائف ما أتاها به، وانصرفت عنه وعن دعوته ونصرته، بل إن ذهابه إليها ظل في ذاكرته صلى الله عليه وسلم كأقسى وأشد يوم مرعليه كما ذكر ذلك صلى الله عليه وسلم لأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

كان الطائف هو ما رغب فيه النبي صلى الله عليه وسلم، وكان هو الراغب عن النبي صلى الله عليه وسلم، كان الطائف هو ما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يكسبه، وكان هو ما فقده، فلم يجد من أهله إلا آذانًا صمًا، وأعينًا عميًا، وقلوبًا غلفًا، أما ما أعقب هذا الفقد من منح وعطايا وهبات من الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم، فهي جد عظيمة عديدة نذكر منها: -

لقاؤه بغلام نصراني يدعى عداس وحفاوة ذلك الغلام بالنبي صلى الله عليه وسلم، وإيمانه به وبدعوته برغم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصده بالدعوة قصدًا، ولم يخرج لهدايته على وجه الخصوص.

أما ثاني العطايا فهي التأييد السماوي، والنصر الغيبي للنبي صلى الله عليه وسلم ممثلاً في نزول جبريل عليه السلام إليه ومعه ملك الجبال يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في أن يطبق الأخشبين على من رغبوا عن دعوته وآذوه وسخروا منه، مما كان له أكبر الأثر في رفع معنويات النبي صلى الله عليه وسلم، وتأكده من رضا الله عز وجل عنه ومؤازرته ونصره له.

وثالث العطايا هي أن الله سبحانه صرف إليه نفرًا من الجن يستمعون القرآن، فاستمعوا وأنصتوا ووعوا ما تلى؛ فآمنوا به وتولوا أمر دعوة قومهم وبني جلدتهم إليه، فانطلقوا إليهم يرغبونهم فيما دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم، وينذرونهم سوء عاقبة مخالفته، وما قصدهم النبي صلى الله عليه وسلم، ولا سعى إليهم، ولا بذل في هدايتهم جهده، بل لم يدر حتى بوجودهم إلا حينما أخبره الله سبحانه في القرآن الكريم

بانصرافهم إليه، واستماعهم القرآن، وإيمانهم به، وتوليهم أمر الدعوة إلى الدين الذي جاء به، فهدى الله سبحانه به خلقًا يغاير خلق من بعث إليهم وممن هو منهم صلى الله عليه وسلم، خلقًا يغاير خلق الناس، ولهم طبيعة خلاف طبيعتهم، وحياة خلاف حياتهم، بل وربما من المعتقد أنهم أبعد ما يكونون عن الإيمان - من وجهة النظر الآدمية العادية - فكانت تلك هدية من الله سبحانه للنبي صلى الله عليه وسلم إذ بها أصبح رسولاً للثقلين معًا.

أما آخر ما نذكره من تلك المنح والعطايا والهبات والفتوحات - وإن لم يكن بآخرها - فهو تأييد الله سبحانه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمطعم بن عدي وبنيه يدافعون عنه؛ حتى لا يتجرأ عليه أحد حتى بالكلام، ويدخل النبي صلى الله عليه وسلم البيت الحرام، فيستلم الركن ويصلي، وينصرف إلى بيته آمنًا مطمئنًا، وجلوازه أحد الكفار، وحقًا صدق النبي صلى الله عليه وسلم حين قال:{**إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**} [(1)].

وإذا ما استمر السير المبارك مع النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته العطرة ذاكرين معددين بعض ما فقد وبعض ما أعطى من عطاء أعقب ذلك الفقد مباشرة، نرى في رحلة حياته المباركة أهل مكة وهم يؤذونه ويسخرون منه ويضطهدونه ويعذبون من آمن به، ويقتلون منهم، ويتطاولون فيتدابرون ويمكرون لتنفيذ إحدى النكايات الثلاث للنيل منه صلى الله عليه وسلم إما يحبسونه حتى الموت، أو يقتلونه أو يخرجونه من مكة منفيًا مبعدًا طريدًا{ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ } [الأنفال: ٣٠] فيأمره الله سبحانه بالهجرة تاركًا مكة وما فيها ومن فيها إلى يثرب ليجد هناك رجالاً تنتظره، وكل واحد منهم يتمنى أن ينزل الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

عنده، فلا يمر النبي صلى الله عليه وسلم بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته: هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة، بل ويجد أهل المدينة عن بكرة أبيهم قد خرجوا لاستقباله حتى امتلأت بهم الطرق وظهروا على المنازل نساءً وأطفالاً ورجالاً وهم يقولون: الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر جاء محمد، الله أكبر جاء رسول الله، وقد ارتجت البيوت والسكك بأصوات التحميد والتقديس وضربت النساء والصبيان بالدفوف منشدين:

طلع البدر علينا ::: من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ::: ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ::: جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة ::: مرحبًا يا خير داع

ما أغرب تلك الصورة، وما أبعد طرفاها، وما أشد تناقضهما، وما أوضحهما لعين الرائي البصير في بيان الفقد والعوض، أهل يطردون، وغرباء يرحبون، وطن يشرد ويهدد ويدبر ويتوعد، وبلد غريب يدعو ويرحب ويستقبل ويؤيد ويحتفي ويسعد، بلدة تطرد ابنها الصادق الأمين البشير النذير، وتنبذه وترغب عنه وعن دعوته، وتتآمر عليه، وتجبره على الهجرة منها، وأخرى تستقبله، وترغب فيه وتؤيده وتنصره وتعزره، وتمنحه كل ما فيها ومن فيها تمنحه حتى أسمها ليكون مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم بدلاً من يثرب.

لقد أخرج الله سبحانه النبي صلى الله عليه وسلم من مكة وهي أحب البلاد إليه:**{إنك أحب بلاد الله إليَّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت}**[1]؛ ليسكنه يثرب بلاد أحب الناس إليه الأنصار " فهو القائل صلى الله عليه وسلم :**{فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا؛ لسلكت شعب**

(1) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد.

الأنصار} [1]. وليجمع الله عليه فيها شمله بأهله وذويه وأصحابه، وليجد في طيبة الطيبة أرضًا طيبة للإيمان، ورجالاً يوادون الله ورسوله، ويستقبلون الإسلام بأيد وآذان وقلوب مفتوحة محبة، وينصرون الدين ويعززوه بالقول والعمل.

كان ذلك هو الفقد الذي يعلمه كل من يعرف النبي صلى الله عليه وسلم، ويقرأ سيرته العطرة أما ما ذكر من العطاء فهو شيء يسير؛ لأنه كوثر عطاء دائم مستمر باق إلى قيام الساعة، وهذا ما تحمله كلمة{وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ} في الآيات الكريمات وما ورد فيها من أقوال للعلماء والمفسرين في تفسيرها وأسباب نزولها من عطايا وهبات، تلك الآيات الكريمات التي أثلجت صدر النبي صلى الله عليه وسلم، وأبهجت نفسه إذ طمأنته على أمته عامة، وعلى نفسه وأهل بيته خاصة.

عظم الجزاء مع عظم البلاء

وإذا ما ذكرنا ما يؤيد مبدأنا{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِ} من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم فكثيرة عديدة هي تلك الأقوال التي تؤكد أن ذلك الفقد ما هو إلا علامة العطاء الجزيل إذا ما احتسب المرء وصبر، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :**{إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط}** [2].

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله تعالى:**{ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة}** [3].

عن أنس رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:**{إن الله عز وجل قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما**

---

(1) سيرة ابن هشام، وروى مثل ذلك البخاري.
(2) رواه الترمذي.
(3) رواه البخاري.

الجنة} يريد عينيه [1].

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس رضى الله عنه: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف فادع الله تعالى لي، قال:**{إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك}** فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف، فادع الله ألاَّ أتكشف، فدعا لها [2].

وعن أبي موسى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:**{إذا مات ولد العبد، قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي، فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم فيقول: فماذا قال عبدي، فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، وسموه بيت الحمد}** [3].

هكذا يكون العطاء عقب المنع والعوض عقب الفقد مباشرة، ولا يكون العوض أبدًا مساويًا لذلك الفقد، وإنما الفقد ما هو إلا علامة على فيضان من العطاء الجزيل والعوض الوافي الوفير، وجرب بنفسك في نفسك{وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١} [الذاريات: ٢١] انظر إلى ما فقدت وقارنه بما أعطاك الله تعالى وقسه عليه تجده لا شيء بالمقارنة إلى ما أعطاك، ولكن الشرط الأساسي في العطاء الذي يعقب الفقد هو أن تنظر للحكمة التي أرادها سبحانه وقدرها من ذلك الفقد وتراجع نفسك هل من تقصير كان سببًا فيما أصبت به، فإن كان هناك تقصير، فلتصلح أولاً ما أفسدت وتوفى ما قصرت فيه، وإن لم يكن هناك من تقصير، فإن عليك أن تصبر وتحتسب، وتمتثل لحكم الله وقدره الذي قدره عليك{فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ} [القلم: ٤٨]، كما امتثل رسول الله موسى عليه السلام عندما فقد طعامه في

(1) رواه البخاري.
(2) متفق عليه.
(3) رواه الترمذي.

السفر، بل إنه اشتاق لأن يفقد مادام أن الفقد هو علامة العطاء{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ}.

ومثلما امتثل النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأمر الله سبحانه عندما فقد أبويه وجده المحب فعوضه الله الله جل وعلا{فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ } [الأنفال: ٦٢] يربيه ويعلمه يؤدبه على أحسن ما تكون التربية والتعليم والتأديب ويصطفيه سبحانه على العالمين؛ ليكون لهم مبشرًا ونذيرًا وداعيًا لهم إلى طريق النور والخير{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾} [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] وأيده بصفوة خلقه المؤمنين يحبونه، ويتبعونه، ويفدونه بأنفسهم وأهليهم.

وتمتثل كما امتثل النبي صلى الله عليه وسلم لأمر الله سبحانه وصبر على ما أصابه من أهل الطائف، وكان كل ما يشغله صلى الله عليه وسلم ألا يكون الله جل وعلا قد غضب عليه:**{إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي}**، فكانت هدايا الله له عظيمة إحداها أنه سبحانه هدى على يديه الثقلين معًا.

وكما امتثل الأمر بالهجرة من مكة غير مبال بما ترك من أهل ومال، فعوضه الله سبحانه المدينة المنورة ورد عليه فيها أهله، وأصحابه معهم وأغناه بالمال، ونفله فيها قومًا أحبوه وعزروه ونصروه، واتبعوا النور الذي جاء به، وقال صلى الله عليه وسلم فيهم:**{لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكت شعب الأنصار}**، وجمعه الله سبحانه بأصحابه وأحبابه من المهاجرين والأنصار في دار الهجرة؛ ليبدأ بهم ومعهم المجتمع المسلم لأول مرة يؤسسه بيده، ويصنعه على عينه على تقوى من الله ورضوان، فأي عطاء هذا وأي مغنم وأي عوض هو أجزل منه وأوفر.

وأخيرًا

لتبق{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ } كلمة تتردد على ألسنتنا فيما شئنا وفيما لم نشأ، وتقع

موقع الرضا من قلوبنا وعقولنا ونفوسنا، ونحن بها على يقين أن لكل فقد فقدانه بحكمة الله وقدره العوض الذي يفوق ذلك الفقد أضعافًا مضاعفة.

ولنتذكر الفقد ما شئنا ولكن أقمن بنا وأجدر أن نتذكر ما أعقبه من عطاء؛ لنعلم علم اليقين أن ذاك الفقد ما هو إلا علامة للعطاء.

ولتظل تلك الكلمة المباركة الخالدة ممثلة لأهم المبادئ الربانية في الحياتين الأولى والآخرة، ومعينة للمؤمنين على أخلاق قرآنية عظيمة منها الصبر والاحتساب والأمل في عطاء الله تعالى والرضا بقضائه.

ولتبق{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ} ترياق الشفاء لكل من كلم بفقد فإنما منعك الله ليعطيك

فإلى كل مريض.. إلى كل ثكيل.. إلى كل منكوب نهدي أخلاقًا من نبع{ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ}.

* * *

عفا الله عنك لما أذنت لهم

القرآن خُلقًا

عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ

قال تعالى:

{انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (٤٢) عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ (٤٦)} [التوبة: ٤١ - ٤٦].

التفسير:

{انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا} نشاطًا وغير نشاطًا، وقيل: أقوياء وضعفاء، أو أغنياء وفقراء وهي منسوخة بآية{ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ} [التوبة: ٩١]، {وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ } أنه خير لكم فلا تثاقلوا. ونزل في المنافقين الذين تخلفوا.

{لَوْ كَانَ} ما دعوتهم إليه{عَرَضًا} متاعًا من الدنيا{قَرِيبًا} سهل المأخذ{وَسَفَرًا قَاصِدًا } وسطًا{لَّٱتَّبَعُوكَ } طلبًا للغنيمة{وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ } المسافة فتخلفوا.

{وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ } إذا رجعتم إليهم{لَوِ ٱسْتَطَعْنَا} الخروج {لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ} بالحلف الكاذب{وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ } في قولهم ذلك.

وكان صلى الله عليه وسلم أذن لجماعة في التخلف باجتهاد منه، فنزل عتابًا له وقدم العفو تطمينًا لقلبه{عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ} في التخلف وهلا تركتهم {حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ} في العذر{وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ} فيه.

{لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ} في التخلف عن{أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ}.

{إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ} في التخلف{ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ} شكت{قُلُوبُهُمْ} في الدين{فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} يتحيرون.

{وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ} معك{لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً} أهبة من الآلة والزاد{وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ} أي لم يرد خروجهم{فَثَبَّطَهُمْ} كسلهم{وَقِيلَ} لهم{ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ} المرضى والنساء والصبيان، أي قدر الله تعالى ذلك [1].

نزلت تلك الآيات الكريمات من سورة (التوبة) حول غزوة تبوك: تلك الغزوة التي خاضها الرسول صلى الله عليه وسلم ضد الرومان في حدودهم؛ لأنه علم من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن هرقل قد هيأ جيشًا عرمرمًا قوامه أربعون ألف مقاتل، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم، وأنه أجلب معهم قبائل لخم وجذام وغيرهما من متنصرة العرب، وأن مقدمتهم بلغت إلى البلقاء. وهكذا تمثل أمام المسلمين خطر كبير.

ولما قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم الموقف أعلن في الصحابة أن يتجهزوا للقتال، وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة يستنفرهم، وكان قل ما يريد غزوة يغزوها إلا وري بغيرها، ولكنه نظرًا إلى

---

(1) تفسير الجلالين.

خطورة الموقف وإلى شدة العسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان، وجلى للناس أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة كاملة، وحضهم على الجهاد، ونزلت قطعة من سورة براءة تثيرهم على الجلاد، وتحثهم على القتال{ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ} ورغبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في بذل الصدقات، وإنفاق كرائم الأموال في سبيل الله، ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى قتال الروم إلا وتسابقوا إلى امتثاله، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة - إلا الذين في قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر - وتسابق المسلمون في إنفاق الأموال وبذل الصدقات، ولم يبخل بماله إلا المنافقون، وتجهز الجيش، وتحرك به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يستطع المسلمون - مع ما بذلوه من الأموال - أن يجهزوا الجيش تجهيزًا كاملاً بل كانت في الجيش - رغم كبره وكثرته (ثلاثون ألف مقاتل) - قلة شديدة بالنسبة إلى الزاد والمراكب، فكان ثمانية عشر رجلاً يتعقبون بعيرًا واحدًا وربما أكلوا أوراق الأشجار حتى تورمت شفاههم، واضطروا إلى ذبح البعير - مع قلتها - ليشربوا ما في كرشه من الماء، ولذلك سمي هذا الجيش جيش العسرة.

ومر الجيش الإسلامي في طريقه إلى تبوك بالحجر - ديار ثمود، وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر قال:{**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين**}، ثم قنع رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادي [1].

ونزل الجيش الإسلامي بتبوك، فعسكر هناك، وهو مستعد للقاء العدو، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم خطيبًا فخطب خطبة بليغة، أتى

(1) صحيح البخاري.

بجوامع الكلم، وحض على خير الدنيا والآخرة، وحذر وأنذر وبشر وأبشر، حتى رفع معنوياتهم، وجبر ما كان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤنة، وأما الرومان وحلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم واللقاء، بل تفرقوا في البلاد في داخل حدودهم، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية، في داخل الجزيرة وأرجائها النائية، وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة خطيرة، بما لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين.

وجاء يحنة بن روبة صاحب أيلة، فصالح الرسول صلى الله عليه وسلم وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأهل أذرع، فأعطوه الجزية، وكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابًا فهو عندهم.

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل في أربعمائة وعشرين فارسًا فتلقاه خالد في خيله، فأخذه وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحقن دمه وصالحه على ألفي بعير، وثمانمائة رأس، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، وأقر بإعطاء الجزية، فقاضاه مع يحنة على قضية دومة، وتبوك، وأيلة، وتيماء.

وأيقنت القبائل التي كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه، فانقلبت لصالح المسلمين، وهكذا توسعت حدود الدولة الإسلامية حتى لاقت حدود الرومان مباشرة، وشهد عملاء الرومان نهايتهم إلى حد كبير.

ورجع النبي صلى الله عليه وسلم بالجيش الإسلامي من تبوك مظفرين منصورين، لم ينالوا كيدًا، وكفى الله المؤمنين القتال، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يومًا. أقام الجيش منها عشرين يومًا في تبوك والبواقي قضاها في الطريق جيئة وذهوبًا. وكانت هذه الغزوة آخر غزواته صلى الله عليه وسلم، وقد كانت - لظروفها الخاصة بها - اختبارًا شديدًا من الله

تعالى، امتاز به المؤمنون من غيرهم{مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ} [آل عمران: ١٧٩] فقد خرج لهذه الغزوة كل من كان مؤمنًا صادقًا، حتى صار التخلف أمارة على نفاق الرجل، فكان الرجل إذا تخلف وذكروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم: دعوه، فإن يكن فيه خير سيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه، فلم يتخلف إلا من حبسهم العذر، أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين، الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للقعود كذبًا، أو قعدوا ولم يستأذنوا رأسًا. نعم كان هناك ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين تخلفوا من غير مبرر. وهم الذين أبلاهم الله، ثم تاب عليهم.

ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة بدأ بالمسجد، فصلى فيه ركعتين، ثم جلس للناس فأما المنافقون - وهم بضعة وثمانون رجلاً - فجاؤوا يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار، وطفقوا يحلفون له، فقبل منهم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، لكن الله عز وجل لم يعذرهم وكذا رسوله صلى الله عليه وسلم إذ لا عذر لهم، ولم يقعد بهم إلا نفاقهم وسوء ظنهم.

أما النفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين الذين تخلفوا عن المسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أعلن الرسول الحبيب مقاطعتهم وهجرانهم حتى أنزل الله توبتهم، وأما الذين حبسهم العذر فقد قال تعالى فيهم{ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ} [التوبة: ٩١] (1).

ولقد أوردت أحداث الغزوة بشيء من الاستيفاء قدر الاستطاعة؛ ليزداد القارئ معي معرفة بأحداثها وبأسباب نزول الآيات موضوع المبحث، وليكون يسيرًا على عرض خاطرتي التي وددت التنويه إليها، يسيرًا على

---

(1) أحداث الغزوة من كتاب الرحيق المختوم، وكتاب هذا الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم يا محب (باختصار).

القارئ العزيز تلقيها.

لقد كانت هذه الغزوة لظروفها الخاصة بها - اختبارًا شديدًا، فقد كان زمانها فصل الصيف الشديد، وكان الناس في عسرة وجدب من البلاء وقلة من الظهر، وكانت الثمار قد طابت، فكانوا يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الخروج على الحال، من الزمان الذي هم فيه، ومع هذا كله كانت المسافة بعيدة، والطريق وعرة صعبة، ولقد كانت صعوبة الامتحان لتمحيص أهل الإيمان الذين تسابقوا وسارعوا إلى الخروج للغزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أهل النفاق الذين تسابقوا وسارعوا إلى الاستئذان للقعود والتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وركبه المبارك، متعللين لذلك بعلل كاذبة وأعذار ملفقة، وما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن أذن لهم بالقعود، فعاتبه الله سبحانه وتعالى في ذلك الإذن فقال جل شأنه:{عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ } فقد كان الأولى ألا يأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ حتى يتبين أصحاب الأعذار الصحيحة والعلل الحقيقية، الصادقين في أعذارهم وعللهم، ويعلم الكاذبين المدعين الأعذار والعلل، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يفعل، وأذن لهم بالقعود والتخلف عن الغزوة، أذن لهم فيما استأذنوه فيه، فعاتبه ربه سبحانه في ذلك الإذن.

ولغة: (عتب) عليه - عتبًا، وعتابًا: لامه وراجعه فيما كرهه منه [1].

ولما كان العتاب مؤلمًا للنفس باعثًا للندم داعيًا للحسرة؛ فقد جاء عتاب الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم بالعفو قبل اللوم؛ لئلا يطير قلبه فرقًا{عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ}، وقد جاء في المعنى: أي عفا الله عنك فيما بدر منك من ترك الأولى وهوعدم الإذن لهم، فقدم الله له العفو على

(1) المعجم الوجيز.

الخطاب الذي هو في صورة العتاب تلطفًا منه سبحانه [1] ورفقًا بالنبي صلى الله عليه وسلم، ثم بين الله سبحانه للنبي صلى الله عليه وسلم سبب عدم الإذن؛ وذلك حتى يتبين للرسول صلى الله عليه وسلم الذين صدقوا في عللهم، ويعلم الكاذبين الذين كانوا قد قرروا القعود عن القتال سواء أذن لهم النبي صلى الله عليه وسلم أو لم يأذن.

ولقد أعجب العلماء بتلك الصورة من العتاب أيما إعجاب فقال بعضهم معربًا عن ذلك الإعجاب: " هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة " [2].

هكذا قرن الله سبحانه العفو بالعتاب مع تقديم العفو، فقدم المؤمل المحبب لكل نفس وهو العفو، ثم ذكر المتجافى المتجنب المحترز منه، ومما يوجبه على أي نفس وهو العتاب، ولما لم يكن هناك من بد من العتاب للتعريف بالأولى والأوجب كان لنا في القرآن الكريم صورة للعتاب من أروع صوره من اللطف والرفق والرقة.

وإذا ما بحثنا عن ذلك الخلق الرباني الكريم وهو اللطف في العتاب والمراجعة نجده خلقًا أصيلاً من أخلاق النبوة الدمثة لدى النبي صلى الله عليه وسلم ذكره له الإمام عليٌّ كرم الله وجهه ورضي عنه في حديث طويل رواه الطبراني عن الحسن بن عليّ رضى الله عنه وقد سأل أباه عن بعض صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان من سؤاله وجواب عليّ ما يلي:

قال الحسن وسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه؟ فقال: " يخزن لسانه إلا مما يعينهم ويؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي على أحد منهم بشره ولا خلقه، ويتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن

(1) تفسير القرطبي.
(2) تفسير ابن كثير.

ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه... " [1].

وتلك الكلمة الأخيرة هي شاهدنا فالنبي صلى الله عليه وسلم يحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه، وتلك هي الصورة المثلى في تقييم أي عمل أيا كان، أن تحسن الحسن؛ فيشتد ويقوى، وتقبح القبيح؛ فيضعف ويوهى من غير أن يوجه إلى فاعل أى منهما نقدًا موجعًا، أو معاتبةً مؤلمةً، أو مراجعة مخزية.

النبي صلى الله عليه وسلم **وتلطفه في المراجعة**

وفي سيرة المصطفي صلى الله عليه وسلم صورًا للعتاب تؤيد شهادة الإمام عليّ كرم الله وجهه ورضى الله عنه التي شهد بها للنبي صلى الله عليه وسلم، وتتفق مع صورة العتاب في القرآن الكريم في اللطف والرفق اخترت منها هذه الصورة:

فعن أبي بكرة رضى الله عنه: أنه انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو راكع، فركع قبل أن يصل إلى الصف، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال:{**زادك الله حرصًا ولا تعد**} [2].

في الحديث الشريف تأخر أبو بكرة عن الصلاة فأتاها مسرعًا، ودخل المسجد، فوجد المسلمين قد ركعوا، فركع قبل أن يصل إلى الصف؛ ليدرك الركوع فيدرك الركعة لقوله صلى الله عليه وسلم :{**من أدرك الركوع فقد أدرك الركعة**} [3]، ثم مشى إلى الصف، ولما انتهت الصلاة ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ليفتيه النبي صلى الله عليه وسلم، ويبين له حكم ما فعل أصواب أم خطأ، فلا يعاتبه النبي صلى الله عليه وسلم على تأخير المجيء إلى الصلاة، ولا على إتيانه الصلاة مسرعًا على خلاف ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال:{**إذا**

(1) رواه الطبراني.
(2) صحيح البخاري.
(3) أخرجه أبو داود والدارقطني والبيهقي.

أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة والوقار} [1]، ولم يعاتبه صلى الله عليه وسلم على دخوله في الصف وهو راكع، لا، لم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكرة شيئًا من ذلك؛ لأنه يقدر أن أبا بكره إنما فعل ما فعل لحرصه على الصلاة وإدراكها كاملة، فما كان النبي صلى الله عليه وسلم ليصادر جهد أبا بكرة، أو يهمل مدى حرصه على الصلاة، وسعيه الجاد الحثيث إليها، فيثني النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك الخلق ويمدحه، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أنه جانب يستحق الثناء والمدح، كما يعلم صلى الله عليه وسلم ما جبلت عليه النفوس من حب المدح والثناء، والطرب للشكر والإطراء، ويدرك أثره في تثبيت الخلال الحسنة والأخلاق الفاضلة؛ لذا قدمه النبي صلى الله عليه وسلم حين قال:**{زادك الله حرصًا}** ولما لم يكن هناك من بد من تصحيح الخطأ، ومن ذكر ما كره من العمل فقد كان ذلك في كلمتين قصيرتين موجزتين اختصر النبي صلى الله عليه وسلم بهما كل نقد ومراجعة، وأجمل فيهما كل تفاصيل الخطأ.

كلمتين صغيرتين قصيرتين لكن عظيمتين بليغتين في موقعهما إذ لا تغني غيرهما غناءهما**{لا تعد}**، كلمتان كفتا لأن يعرف أبو بكرة ومن معه ومن بعده أن ما فعله رضى الله عنه لم يكن هو الأصوب، كفتا لأن تعرف المثالب حتى تجتنب، وتعرف النواقص فتستكمل، كفتا لأن يعرف المسلمون في كل مكان وزمان كيف يكون نقد الخطأ وتصويبه؛ ليصحح المسار ويقوم السلوك.

حقًا زاد الله أبا بكرة حرصًا على صلاته شيئًا لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليهمله أو يتجاهله، وكيف للنبي أن يتجاهل الحسنى وهو الذي علمنا ما الحسنى وكيف يكون الإحسان، ولكن هناك من الأخطاء مالا يمكن السكوت عنه، ولا يجدي اجتناب الكلام في تصحيحه وتغييره،

(1) متفق عليه.

فيشير النبي صلى الله عليه وسلم إليه إشارة لطيفة رقيقة دقيقة:**{لا تعد}** ليعلم أبو بكرة أن ما فعله لم يكن صوابًا وإن لم يقصده، فيجب ألا يعود أحد إلى مثله مرة أخرى.

الصحابة وصورة من العتاب الرقيق

ما أروع صورة ذلك العتاب وما أرق تلك المراجعة، وما أرفق ذلك المعلم وأحرصه على أمته صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

وتمتلئ كتب قصص صحابة النبي صلى الله عليه وسلم بصور من المعاتبة الرقيقة اللطيفة التي تكتفي فقط بالاتجاه بالإشارة للخطأ؛ لتوضيحه وإظهاره لتجنبه وعدم الوقوع فيه دون الإشارة لفاعله بأدنى مساس من تجريح أو تقريع، فها هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو من عرف عنه البأس والشدة يكتب لأحد ولاته أبي عبيد وقد ترك حصار حلب، يستضعف رأيه في ترك حصارها: "... سرني ما علمت من الفتح، وعلمت من قتل من الشهداء، وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب إلى النواحي التي قربت من أنطاكية فهذا بئس الرأي... أتترك رجلاً ملكت دياره ومدينته ثم ترحل عنه، وتسمع أهل النواحي والبلاد بأنك ما قدرت عليه؟ فما هذا برأي.. يعلو ذكره بما صنع، ويطمع من لم يطمع، فترجع إليك الجيوش، وتكاتب ملوكها، فإياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.. " [1].

تلك هي رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أحد ولاته أبي عبيد، يستهلها الفاروق رضى الله عنه بذكر المحاسن والمكاسب، فيذكر علمه بالفتح وسروره به، ويذكر من قتل من الشهداء، وما أنالهم الله من فوز وفضل، وبذا يكون عمر رضى الله عنه قد ذكر الحسنيين المرجوين من كل حرب وهما النصر والشهادة، والتي تعد الواحدة منهما أمل كل

---

(1) عبقرية عمر.

محارب مسلم في كل زمان ومكان، فيذكرهما مثبتًا لواليه تحققهما على يدي ذلك الوالي المسلم المجاهد رضى الله عنه. يذكرهما عمر رضى الله عنه أولاً، ثم يذكر لواليه بعد ذلك سوء رأيه في ترك حصار حلب، ثم بين له أسباب سوء هذا الرأي تفصيلاً؛ لأن في ذلك التفصيل ضرورة تقتضيها السياسة الأمنية، والأوضاع الحربية؛ فلابد من أن يوضحها له ويجليها إيضاحًا وجلاءً لا يحتمل لبسًا أوغموضًا.

أرأيت كيف أثنى عمر رضى الله عنه على ما أحسن فيه أبو عبيد أولاً، ثم ذكر له بعد ذلك ما أساء فيه؛ لما يعلم من أثر هذا وذاك في النفوس، فتلك هي المراجعة الصحيحة، والعتاب المقبول، والنقد البناء، الذي يبين الجانب المضيء أولاً قبل أن يبين الجانب المظلم.

ولا يقتصر ذلك الخلق الكريم على هؤلاء الصفوة، بل هو الحال نفسه مع أسوياء الناس، يؤيد ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال:{**مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى داراً فأكملها وأحسنها، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون، ويقولون: لولا موضع اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين**} [1].

الناس كما ذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث يطوفون بالبيت الذي ضربه النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً له وللأنبياء عليهم السلام قبله، فيرون أول ما يرون أنه كامل حسن، فيعجبون منه ويشيدون ببنائه، إلا ما لاحظوه بالبيت من نقص في موضع لبنة، فيشيرون إلى ذلك النقص:{**لولا موضع اللبنة**} فقد حملت كلمتهم معنى إعجابهم بالبيت، واستحسانهم له وهذا يظهر من كلمة (لولا) الامتناعية، وعليه يكون نقص البيت فيما سوى اللبنة ممتنع لكماله وحسنه، ويكون كمال البيت وتمامه ممتنع لموضع اللبنة؛ لذا فإن الناس لا يعيبون البيت أولاً ولكنهم

(1) رواه البخاري.

يمدحونه، ثم يأتي ذكرهم لما به من نقص آخرًا.

ولقد كتب الأدباء والمفكرون مادحين ذلك الخلق القرآني في النقد والمراجعة والعتاب، ذامين في المقابل عكسه، مبينين أثره السيئ على النفس الإنسانية، فها هو دايل كارنيجي صاحب كتاب (كيف تكسب الأصدقاء) يطالب بالنقد البناء الذي يوجه المأخذ والنقص إلى الخطأ لا إلى فاعله، وذلك بأسلوب مهذب لطيف يقول دايل: " لا نريد النقد العقيم الذي يكسر القلب ويذل النفس " [1].

فلقد بين الكاتب أثر النقد الجارح على النفس والقلب، وما يترك فيهما من انكسار وذل مسميًا إياه بالنقد العقيم لما ليس له من أي أثر إيجابي، وإنما كل آثاره سلبية عقيمة.

ويقول صاحب كتاب الطريق إلى السعادة إل. رون هابرد: " وبما أن الحياة هي محاولات وأخطاء فبدلاً من أن تنتقد وتغضب الإنسان الذي يخطئ، حاول إيجاد السبب في ارتكاب ذلك الخطأ، ثم حاول أن تجد ما إذا كان ذلك الإنسان قادرًا على أن يتعلم من ذلك الخطأ شيئًا ما " [2] ولا يتم ما اقترحه إل. رون هابرد إلا بالتلطف في الإشارة إلى الخطأ، واللين في التعريف به.

هذا وينصح مختصو علم النفس اليوم باتباع ذلك الخلق القرآني نفسه في النقد والمعاتبة والمراجعة، مبينين آثاره الإيجابية على الشخص المخطئ، وما يمنحه له من احترام وتقدير للذات، ودافعية لتصحيح المسار، والعدول عن الخطأ وعدم تكراره مرة أخرى.

---

(1) كيف تكسب الأصدقاء.

(2) الطريق إلى السعادة.

التلطف في العتاب خلق الأسوياء

فهذا هو خلق أسوياء الناس في نقدهم وعتابهم ومراجعتهم، أما شواذ الناس ومنحرفيهم أولئك الذين يمتلكون أعينًا كأعين الذباب لا ترى إلا الجروح والأقذار، فلا يرون بها إلا النقائص والمثالب والأخطاء، يحجبهم السيء في أي شيء عن أن يروا فيه الحسن الجميل، أصحاب نظرة سوداء انبعثت من داخل نفوسهم الأكثر اسودادًا، ولقد ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه استعاذ بالله تعالى منهم حين قال:{**اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء إذا أحسنت لم يقبل، وإذا أساءت لم يغفر**} [1].

وعليه فإنه يكون لزامًا علينا في عتابنا ومراجعاتنا ونقدنا أن نتلطف، فنبدأ بالأحسن نمدحه ونطريه ونثني عليه؛ ليزداد ثباتًا وقوة، ثم ننبه بعد ذلك إلى وجه النقص والمأخذ - إن وجد - فنذكره ذكرًا يبينه ويظهر أثره السيئ؛ ليكون ذلك مدعاة لتلافيه وتلاشيه، وذلك من غير تقريع أو تجريح لفاعله.

أقل اللوم عاذل والعتاب ::: وقولي إن أصبت لقد أصاب

متخذين من القران الكريم في ذلك نبراسًا نسيرعلى هداه، فلقد أرضى الله جل وعلا رسوله صلى الله عليه وسلم قبل أن يعاتبه فقال له:{عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ}.

وفي السيرة النبوية الشريفة أرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكرة رضي الله تعالى عنه قبل أن يبين له ما أخطأ فيه، فقال مثنيًا على حرصه على صلاته:{**زادك الله حرصًا ولا تعد**}.

وفي سيرة صحابة النبي صلى الله عليه وسلم النجوم الذين بأيهم اقتدينا اهتدينا ما يؤيد ذلك كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه في معاتبته

---

(1) رواه البخاري.

واليه كما تقدم.

وفى سلوك الأسوياء ما يؤيد ذلك كما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أسلفنا ذكره، وفي كتابات الأدباء والمفكرين والحكماء الشرقيين والغربيين ما يؤيد ذلك أيضًا، فهكذا كان العتاب وهكذا لابد أن يكون إن كان لابد منه.

وفى الختام " يبقى الحب ما بقي العتاب ".

ولعل عتبك محمود عواقبه ::: فربما صحت الأجسام بالعلل

* * *

خاتمـــة

القرآن خُلقًا

خاتمة

أحمد الله تعالى الذي منحني نورًا أمشي به في الناس، وأدعوه جل شأنه أن يزدني علمًا، وأن ينفعني بما علمني، وأن ينفع بتلك القيم القرآنية المؤيدة بالسنة النبوية الناس كل الناس، وأن يفتح بها آذانًا صمًا، وأعينًا عميًا، وقلوبًا غلفًا، وأن يجعل مكارم الأخلاق عنوانًا وسمتًا لكل مسلم ينبئ بما في دخيلة نفسه من حب وخير وإيمان، وتذكر له إذا ما ذكر، كما تذكر لنبيه صلى الله عليه وسلم إذا ما ذكر ذلك الحبيب العظيم الذي فاق كل عظماء الأرض إذ لم يقصر عظمته على نفسه، وإنما رسم خط العظمة لكل راغب فيها.

وأنوه أن ما أوردته في هذا الكتاب إنما هو غيض من فيض من أخلاق القرآن الكريم، وخطوطًا قصارًا من أخلاق من جاءنا به صلى الله عليه وسلم، وأخلاق آل بيته وصحابته الكرام رضي الله تعالى عنهم أجمعين، داعية الله جل وعلا أن يوفقني ما حييت لإكمال تلك السلسلة المباركة، وأن يمدني من علمه سبحانه، وأن يتجاوز عما بالكتاب من تقصير من خطأ أو نسيان.

وأنا سائلة أخًا قرأ هذا الكتاب فانتفع به ألا ينسانا من دعوة صالحة، أو وجد خطأ فأصلحه، فله مني خالص الدعوات، وأسأل الله تعالى له عظيم الأجر والمثوبة.

وصلي اللهم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

أماني جيره عبد الواحد

قائمة المراجع و المصادر

القرآن خُلقًا

قائمة المراجع و المصادر

1 – **القرآن الكريم.**

2 – **تفسير القرآن العظيم لابن كثير**

إسماعيل بن كثير الدمشقي - الطبعة الأولى 1417هـ - 1996م مكتبة الإيمان بالمنصورة جمهورية مصر العربية.

3 – **مختصر تفسير ابن كثير**

محمد كريم راجح - الطبعة الثالثة - 1407هـ - 1987م دار المعرفة بيروت لبنان.

4 – **تفسير القرطبي**

لأبي عبد الله القرطبي إسطوانة - cd رؤية للبرمجيات القاهرة - جمهورية مصر العربية.

5 – **التسهيل لعلوم التنزيل**

لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي 693 - 741 هـ الدار العربية للكتاب.

6 – **تفسير الجلالين**

جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي دار المنار - الحسين مصر.

7 – **تفسير الشعراوي**

لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي اسطوانات cd الشركة الهندسية لتطوير نظام الحاسبات 2004م - المهندسين مصر.

8 – **تفسير موجز البيان في معاني القرآن**

أحمد حنفي نصار القوصي - الطبعة الأولى 1390هـ - 1970م دار وهدان الفجالة مصر.

9- المفردات في غريب القرآن

لأبي القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب الأصفهاني - المطبعة الميمنية مصر.

10- قصص الأنبياء لابن كثير

للإمام أبي الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي - المكتبة القيمة القاهرة.

11- مختصر صحيح البخاري

الإمام زين الدين أحمد بن عبد اللطيف الذبيدي - الطبعة الأولى 1427هـ - 2006م دار الغد الجديد القاهرة - المنصورة.

12- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين

للإمام أبي زكريا بن شرف النووي - الطبعة الأولى - 1415هـ 1994م دار الصحابة للتراث طنطا - مصر.

13- التذكرة

لأبي عبد الله القرطبي شبكة المعلومات الدولية.

14- الكبائر

للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - مكتبة الإيمان - المنصورة مصر.

15- شرح الكبائر

من كلام الإمام محمد بن صالح العثيمين - إعداد وتحقيق أبي عبد الرحمن عادل بن سعد - الدار الذهبية القاهرة - مصر.

16- سيرة ابن هشام شبكة المعلومات الدولية

17- زاد المعاد في هدي خير العباد محمد صلى الله عليه وسلم

للإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر أيوب المعروف بابن القيم، المطبعة المصرية.

18 – **الرحيق المختوم**
لصفي الرحمن المباركفوري - الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م دار العلوم العربية.

19 – **هذا الحبيب محمد** صلى الله عليه وسلم **يا محب**
لأبي بكر جابر الجزائري - الطبعة الأولى - 1423هـ - 2002م مكتبة العلوم والحكمة.

20 – **حياة الصحابة**
محمد يوسف الكاندهلوي 1335هـ - 1384 هـ مكتبة الإيمان المنصورة - مصر.

21 – **الرسول** صلى الله عليه وسلم
سعيد حوى الطبعة الرابعة 1397هـ - 1977م.

22 – **فقه السنة**
السيد سابق - المجلد الثاني - الطبعة العاشرة الشرعية 1414هـ - 1993م دار الفتح للإعلام العربي.

22 – **ففروا إلى الله**
أبو زر القلموني - الطبعة الأصلية - مكتبة الإيمان - المنصورة - مصر.

23 – **لا تحزن**
عائض بن عبد الله القرني - الطبعة الثالثة لجمهورية مصر العربية 1426هـ - 2005م مكتبة العبيكان.

24 – **المرأة في القرآن**
عباس محمود العقاد - تاريخ النشر سبتمبر 2003م نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

25 – **حقائق الإسلام و أباطيل خصومه**
عباس محمود العقاد - نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

26- عبقرية عمر
عباس محمود العقاد - الطبعة المدرسية لعام 1989 - 1990م.

27- من معالم الإسلام
محمد فريد وجدي - مكتبة الأسرة 2000 م طبعة خاصة تصدرها الدار المصرية اللبنانية ضمن مشروع مكتبة الأسرة.

28- المستطرف في كل فن مستظرف
شهاب الدين بن أحمد أبي الفتح الأبشتيهي - المكتبة التوفيقية - مصر.

29- المعجم الوجيز الطبعة المدرسية 1992 - 1993 م.

30- خلو البال
يوسف إدريس أغسطس 2007م - نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

31- الطريق إلى السعادة
رون هابرد

32- مجلة منبر الإسلام السنة (68) العدد (3) ربيع الأول 1430هـ مارس 2009م.

33- برنامج خواطر الشيخ الشعراوي (قناة الرسالة الفضائية).

34- برنامج الكلم الطيب من حلقات للدكتور محمد راتب النابلسي- (قناة الرسالة الفضائية).

35- برنامج مع سماحة المفتي، قناة المجد الفضائية.

36- برنامج أسماء الله الحسنى للدكتور محمد راتب النابلسي (قناة الرسالة الفضائية).

37- برنامج النفس والحياة للدكتور طارق الحبيب (قناة الرسالة الفضائية).

38- برنامج فضاءات للشيخ عبد العزيز فوزان الفوزان. (قناة الرسالة الفضائية).

39- برنامج الراصد للشيخ محمد صالح المنجد (قناة المجد الفضائية).

40- برنامج حوار ملون للأستاذة بثينة الإبراهيم (قناة الرسالة الفضائية).

41- شبكة المعلومات الدولية.

* * *

فهرس الكتاب

* * *